

٨٣

# ابن الأثير الجوزي المؤونخ

تأليف

الدكتور عبد القادر أحمد طيمات

مارس ١٩٦٩



رابط بديل  
[lisanerab.com](http://lisanerab.com)

مَكْتَبَةُ

لِسَانُ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

[www.lisanarb.com](http://www.lisanarb.com)



twitter

مكتبة لسان العرب



facebook

مكتبة لسان العرب



instagram

مكتبة لسان العرب



مكتبة لسان العرب



مكتبة  
لسان العرب

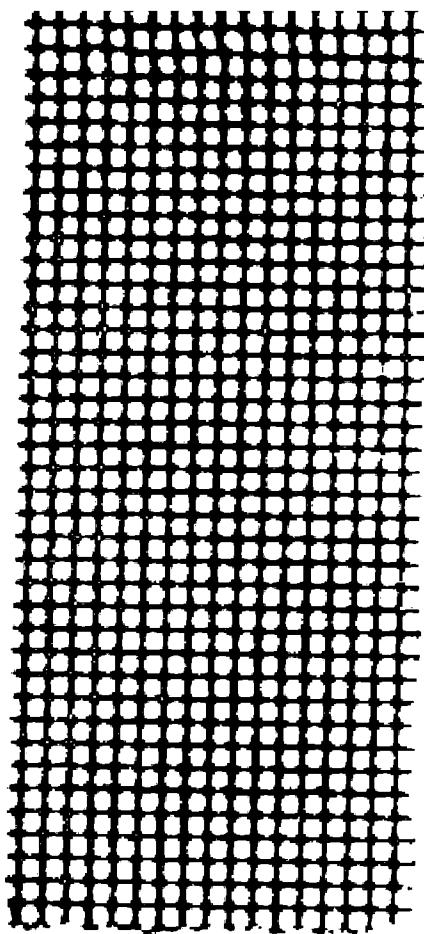
ابن الأثير الجزري  
المؤرخ

تأليف  
الدكتور عبد القادر أحمد طيمات

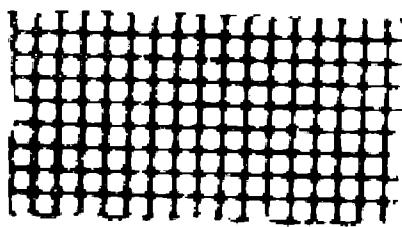
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر  
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر - ١٩٦٩





## مقدمة



في الثلث الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) توفي مؤرخ إسلامي عالمي ، يعد من أشهر المؤرخين المسلمين ، هو ابن الأثير الجزري ، صاحب التاريخ المشهور « الكامل في التاريخ » ، فقد العالم الإسلامي بموته ، أشهر من ظهر من المؤرخين المسلمين في القرون السبعة الهجرية الأولى ، بعد ابن جرير الطبرى المتوفى في العشر الأول من القرن الرابع .

وقد ظل ابن الأثير طيلة القرون التي تلت وفاته حتى اليوم ، أى على مدى سبعة قرون ونصف قرن – ملء سمع وبصر المؤرخين والباحثين ، وسيظل كذلك ما أثار المؤرخون المسلمون اهتمام الباحثين في الشرق والغرب .

وكان كتابه « الكامل في التاريخ » ، المصدر الأساسي للمؤرخين القدامى اللاحقين له ، وما زال مصدرا رئسيا للباحثين المحدثين – في

الشرق والغرب – وسيظل كذلك ، ما دام هناك باحثون ودارسون في التاريخ الإسلامي .

وعظمة ابن الأثير كمؤرخ ، ترجع إلى أنه المؤرخ الثاني الذي اهتم بتاريخ العالم الإسلامي بأقاليمه ومناطقه المختلفة ، أما المؤرخ الأول، فهو ابن جرير الطبرى ، الذى أرخ العالم الإسلامي حتى السنة الثانية من القرن الرابع الهجرى ، أى إلى ما قبل وفاته بثمانية أعوام .

وعدا هذه الميزة ، فإن ابن الأثير يمتاز بميزة لا نجدها إلا في قلة قليلة من المؤرخين الأصلاء السابقين عليه واللاحقين له ، وهى أن ابن الأثير لم يكن مجرد مسجل أخبار وأحداث ، وإنما كان ناقداً ممتازاً ، نقد أصحاب مصادره ، وناقش كثيراً من أخبارهم ، ونقد الشخصيات البارزة التي وردت في الأخبار ، كذلك ان فعل مع الأحداث الخطيرة ، وأبرز انفعالاته بالنقد والتعليق والابتهايات والدعاء ، وقد أثبتنا كل هذا في مواضعه من الكتاب .

وأما كتاب «الكامل في التاريخ» ، فإن له أهمية خاصة ، ذلك بأنه الكتاب الوحيد الذى دون أخبار العالم الإسلامي وأحداثه – شرقه ومغربه وما بينهما – على مدى سبعة قرون وربع قرن ، متصلة مسلسلة ، بالإضافة إلى استكمال ما نقص عند الطبرى من الأخبار حتى سنة ٣٠٢ ، أوهى السنة التي انتهى بها كتابه . وبعد الطبرى، لم يظهر كتاب يغطي أخبار حقبة طولها أكثر من ثلاثة قرون ، أى ما بين وفاة الطبرى وظهور كتاب «الكامل» في سنة ٦٣٠ .

وأهمية أخرى لكتاب «الكامل» ، وهى أنه الكتاب الوحيد حتى الثلث الأول من القرن السابع ، الذى تضمن أخبار الحروب الصليبية مجموعة متصلة منذ دخولهم الشام في سنة ٤٩١ هـ حتى سنة ٦٢٨ ، أى إلى ما قبل وفاة ابن الأثير بستين . كذلك تضمن الكتاب ، أخبار

الزحف التترى على المشرق الاسلامى منذ بدايته فى سنة ٦١٦ حتى  
سنة ٦٢٨ ، وهى السنة التى ينتهى بها الكتاب ، ويعتبر تاريخ  
ابن الأثير للزحف ، أوسع التواريخ التى دونت أخباره .

\* \* \*

وقد شغل الموضوع خمسة فصول : الأولى منها ، عن عصر  
ابن الأثير وأحداثه فى العالم الاسلامى ، ما بعد ابن الأثير عنها ،  
وما قرب منها .

وتضمن الفصل الثانى : نبذة عن أسرة ابن الأثير ، ثم ترجمة له ،  
مولده ، ونشأته ، وتعليمه ، ومكانته العلمية والاجتماعية ،  
وأخلاقه ، ووفاته .

وتضمن الفصل الثالث : التعريف بابن الأثير كمؤرخ ، فتكلمت  
عن تخصصه فى التاريخ وأهمية هذا التخصص ، وعن مفهومه  
للتاريخ ، وتفكيره التاريخي وأثره فى معالجة الأحداث ، وعنده كمؤرخ  
ناقد ، وحيدته فى التاريخ ، وخصائصه .

اما الفصل الرابع ، فقد تضمن الحديث عن مؤلفاته والتعريف  
بها ، فعرفت بكل كتاب على حدة : موضوع الكتاب ، ومصادره ،  
ومنهجه فى التأليف وغير ذلك .

اما الفصل الخامس – وهو الفصل الأخير – فقد تضمن الحديث  
عن تاريخ ابن الأثير لأخطر حادثين حدثا فى عصره – وكان قريبا  
منهما – وهما : الحروب الصليبية ، والغزو التترى .

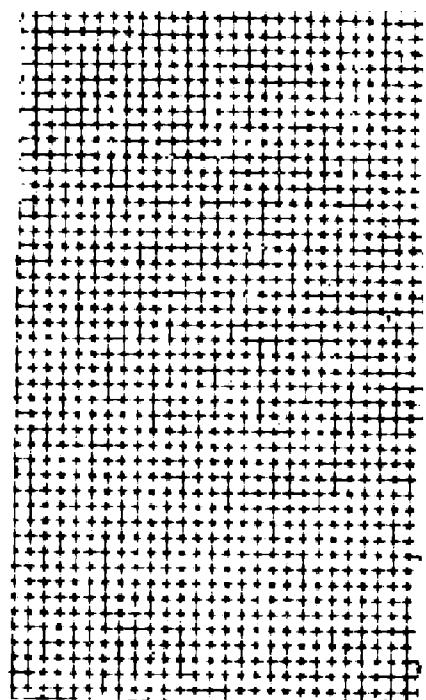
وقد هوجم ابن الأثير من بعض الدارسين المحدثين ، مهاجمة  
عنيفة ، بسبب بعض أخبار انفرد بها – من بين المؤرخين المعاصرين  
له – عن صلاح الدين الايوبي ، ولنقده بعض تصرفاته الحربية ،  
فناقشنا – بایجاز – في نهاية الفصل ، أهم ما جاء في الهجوم .

أما الهجوم في مجموعه ومناقشتنا المفصلة له ، فموضعه الطبعة الخاصة  
لدراستنا المفصلة لكتاب «**الكامل**» التي سوف تظهر قريبا  
ان شاء الله .

هذا ، وأرجو أن أكون قد قدمت ابن الأثير ، المؤرخ المحدث ،  
لقراء العربية تقديما يرضيهم ، بالقدر الذي سمح به نطاق الكتاب .  
والحمد لله رب العالمين ۷

**عبد القادر أحمد طليمات**

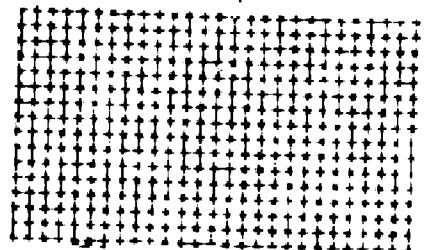
رمضان ١٣٨٧ هـ : مصر الجديدة :  
أكتوبر ١٩٦٧ م



## الفصل الأول

# عصر ابن الأثير

١١٦٠ - ٥٠٥ = ١٤٣٦ هـ



عاصر ابن الأثير النصف الثاني من القرن السادس ونحو الثلث  
الأول من القرن السابع .

وظاهرة هذه الفترة التي تمتد ثلاثة أرباع القرن ، هي امتلاؤها  
بالأحداث الخطيرة والمثيرة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه وما بين  
مشرقه ومغاربه ، فشاهد أحداث المنطقة التي عاش فيها - الموصل  
والجزيرة - وسمع أخبار المناطق القرية منه كالعراق وما يقع  
شرقه ، والشام ومصر ، كما سمع أخبار المناطق البعيدة عنه كافريقيا  
والأندلس من الواردin على الموصل من هذه المناطق .

ففي المشرق الإسلامي ، كانت الصراعات العنيفة على قدم وساق ،  
بين الشعوب المختلفة التي تشغّل أقاليمه ، كالسلاجقة ، والخوارزمية ،  
والغور ، والخطا ، والغز ، والدز ، والكرج . وقد بدأت هذه الصراعات

قبل مولد ابن الأثير بسنوات طويلة ، ثم استمرت حتى عصره . وكان محور هذه الأحداث ، هم الخوارزميون الذين قضوا على القوى الكبيرة واحدة اثراً أخرى ، كذلك قضوا على الامارات الصغرى ، حتى اذا كانت أيام علاء الدين خوارزم شاه ( ٥٩٦ - ٦١٧ ) ، كانت الأقاليم الواقعة شرق العراق : فارس وخراسان وما وراء النهر وغيرها ، خالصة له تقريرياً ، وأصبح هو المسيطر وحده على هذه الأقاليم ، ولكنه - في الوقت نفسه - كان محاطاً بأعداء كثيرين ، هم الملوك والأمراء الذين سلبهم ممالكهم وأماراتهم ، أما نتيجة تصرف علاء الدين هذا فقد ظهر أثرها السيئ عندما زحف التتر من حدود بلادهم ، الصين ، إلى المشرق بجحافلهم الجرارة سنة ٦١٦ ، فلم يستطع وقف زحفهم ، وإنما أخذ يفر منهم من أقليم إلى أقليم ومن مدينة إلى أخرى ، حتى انتهى في سنة ٦١٧ إلى جزيرة له في بحر قزوين حيث مات فيها . ولما خلفه ابنه جلال الدين منكيرتى ، لم يكن أسعده حظاً من أبيه ، وإن كان قد جاهد مدة أطول من مدة أبيه ، ولكن جهاده انتهى بالفشل ، فقد عجز عن رد التتر على أعقابهم أو الحد من تقدمهم ، بل كان ينهرم منهم ويفر ، حتى وصلوا إلى مشارف الموصل ، فاختفى عن الميدان وتوفي في منفاه في سنة ٦٢٨ ، ولم يتمتد بابن الأثير العمر حتى يشاهد أو يسمع بسقوط بغداد في أيدي التتر سنة ٦٥٦ هـ فقد توفي سنة ٦٣٠ .

أما أحداث القسم الغربي من العالم الإسلامي - افريقياً والأندلس - فلم تكن أقل اثارة وخطورة عن أحداث المشرق ، فقد كانت افريقياً مسرحاً للقتال بين المسلمين وبعضهم بعضاً ، فقد كان هناك : المرابطون ، والموحدون ، وبنو مررين ، وبنو حفص ، يدور القتال فيما بينهم على الملك والسلط ، فضلاً عن اغارات المسيحيين المتتالية على الساحل الافريقي . كذلك الأندلس ، كانت تمزقه المنافسات والأطماع بين المسلمين أنفسهم ، فضلاً عن حركة الاسترداد

التي قام بها الأسبان ، والتي بدأت من عهد سابق لعصر ابن الأثير ، حتى انه لم يبق في يد المسلمين - في عصر ابن الأثير - من مدن الأندلس الهامة الا القليل .

ولم يكن ما بين المشرق والمغرب - الشام ومصر - أحسن حالاً منهم ، فقد كان الصراع المريض بين المسلمين وبين الصليبيين على أشده ، وقد ولد ابن الأثير بعد دخول الصليبيين الشام واستقرارهم فيها بخمسة وستين عاماً ، ولكنه أخذ يسمع عنهم في صغره ، ثم أخذ يعرف الكثير عنهم ويتفهم وضعهم في الشام كلما تقدم في العمر ، حتى جاء الوقت الذي خرج فيه إلى ميادين القتال في الشام يشاهد بنفسه المعارك التي تدور بين صلاح الدين الأيوبى وبين الصليبيين ، وبينهم وبين خلفائه من الأيوبيين ، وقد توفي ابن الأثير ومازال الصليبيون يحتلون جزءاً كبيراً من الشام .

ومن الأحداث الهامة والمشيرة التي شاهدها ابن الأثير وكان لصيقاً بها ، سقوط الدولة الزنكية - التي عاش هو وأسرته تحت حكمها ورعايتها - كدولة حاكمة لمنطقة واسعة تضم الموصل ، وجزءاً كبيراً من الجزيرة والشام ، ومصر كلها ، وكان سقوطها على يد صلاح الدين الأيوبى الذي أخذ يكون دولته بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، فشاهد ابن الأثير مشاهدة عيان الحروب التي دارت بين صلاح الدين وخلفاء نور الدين ، والتي انتهت باستيلاء صلاح الدين على أقاليم الدولة كلها ما عدا الموصل التي خضع صاحبها له ، كذلك شاهد عن قرب ، الصراع بين بقايا الزنكيين وبين الأيوبيين خلفاء صلاح الدين في محاولاتهم لاسترداد ما أخذه صلاح الدين من بلادهم ، حتى اضم محل أمر الزنكيين في الموصل في سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) بموت ملكها القاهر مسعود واستخلاف ابنه الطفل ، ووضع الموصل تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذى استبد بالأمر وأصبح الحاكم الفعلى لها ، فبرز له عماد الدين زنكي - أخو الملك

القاهر - بتأييد من حميـه ( والـد زوجـته ) مظـفـر الدـين كـوـكـبـورـىـ  
أمير اـربـل ، يـنـاوـئـه عـلـى مـلـكـ المـوـصـل ، لأنـه كانـ يـرـىـ أـحـقـ منـ  
ابـنـ أـخـيـهـ الـمـلـكـ الـقـاـهـرـ بـالـمـلـكـ لـتـقـدـمـهـ فـيـ السـنـ ، وـأـحـقـ أـيـضاـ منـ  
بـدـرـ الـدـيـنـ الـذـىـ أـسـقـطـ اـسـمـ الزـنـكـيـنـ مـنـ المـوـصـلـ نـهـائـيـاـ حـوـالـىـ  
وـمـنـ ثـمـ قـامـتـ الـحـرـوبـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ بـدـرـ الـدـيـنـ التـىـ اـنـتـهـتـ بـاـنـتـصـارـ  
بـدـرـ الـدـيـنـ الـذـىـ أـسـقـطـ اـسـمـ الزـنـكـيـنـ مـنـ المـوـصـلـ نـهـائـيـاـ حـوـالـىـ  
سـنـةـ ٦٣١ـ .

كـذـلـكـ عـاـصـرـ اـبـنـ الـأـثـيرـ حـرـوبـ الـمـنـافـسـةـ الـأـسـرـيـةـ بـيـنـ الـأـيـوـبـيـيـنـ  
وـبـعـضـهـمـ بـعـضـاـ بـعـدـ وـفـاةـ صـلـاحـ الـدـيـنـ عـلـىـ النـفـوذـ وـالـتوـسـعـ الـاقـلـيمـيـ ،  
ذـلـكـ أـنـ صـلـاحـ الـدـيـنـ كـانـ يـنـيـبـ أـبـنـاءـهـ وـأـخـوـتـهـ فـيـ حـكـمـ الـمـدـنـ الـهـامـةـ  
فـيـ الشـامـ وـالـجـزـيرـةـ وـمـصـرـ ، فـلـمـ تـوـفـيـ اـسـتـقـلـ كـلـ نـائـبـ بـمـاـ فـيـ  
يـدـهـ وـاتـخـذـ لـنـفـسـهـ لـقـبـ الـمـلـكـ ، ثـمـ طـمـعـ كـلـ نـائـبـ بـمـاـ فـيـ يـدـ قـرـيبـهـ  
لـيـوـسـعـ دـائـرـةـ مـلـكـهـ ، فـكـانـ الـقـتـالـ يـدـورـ بـيـنـهـمـ باـسـتـمـارـ ، فـيـ الـوقـتـ  
الـذـىـ كـانـ الـصـلـيـبـيـوـنـ مـطـلـقـيـ الـأـيـدـىـ فـيـ الشـامـ يـفـعـلـونـ مـاـ يـرـيدـونـ .

وـقـدـ أـثـارـتـ هـذـهـ الـأـحـدـاـتـ اـبـنـ الـأـثـيرـ اـثـارـةـ بـالـفـةـ ، فـاـنـفـعـلـ اـنـفـعـالـاتـ  
سـاخـطـةـ ظـهـرـتـ فـيـ نـقـدـهـ الـمـرـ لـلـمـلـوـكـ الـمـسـلـمـيـنـ وـتـعـلـيقـاتـهـ الـلـاذـعـةـ عـلـىـ  
تـصـرـفـاتـهـ .

وـاـذـاـ كـنـاـ قـدـ أـوـجـزـنـاـ فـيـ وـصـفـ عـصـرـ اـبـنـ الـأـثـيرـ ، فـاـنـنـاـ فـصـلـنـاهـ بـشـئـ  
مـنـ التـوـسـعـ فـيـ الـفـصـلـ الـخـامـسـ مـنـ الـكـتـابـ فـيـ حـدـيـثـنـاـ عـنـ تـارـيـخـ  
ابـنـ الـأـثـيرـ لـأـحـدـاـتـ عـصـرـهـ .

وـقـدـ أـثـارـتـ أـحـدـاـتـ الـعـصـرـ اـهـتـمـامـ نـخـبـةـ مـنـ الـمـفـكـرـيـنـ الـمـعاـصـرـيـنـ ،  
فـعـكـفـرـاـ عـلـىـ تـدوـيـنـ أـخـبـارـهـ ، سـوـاءـ فـيـ تـوـارـيـخـ عـامـةـ أـوـ تـوـارـيـخـ خـاصـةـ ،  
فـمـنـ مـؤـرـخـيـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبـيـةـ :

ابـنـ الـقـلـانـسـىـ ( حـمـزةـ بـنـ أـبـىـ يـعـلـىـ الـأـسـدـىـ ) الـمـتـوـفـىـ سـنـةـ ٥٥٥ـ هـ  
( ١١٦٠ ) وـكـتـابـهـ « ذـيلـ تـارـيـخـ دـمـشـقـ » ، وـقـدـ دـوـنـ اـبـنـ الـقـلـانـسـىـ

أخبار الحروب الصليبية منذ بدايتها في سنة ٤٩١ هـ حتى السنة  
التي توفي فيها .

- العمام الكاتب ( عماد الدين محمد بن حامد الأصفهانى )  
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ( ١٢٠٠ م ) وكتابه « البرق الشامي » وقد  
دون فيه التاريخ السياسي لفترة طويلة من حكم نور الدين محمود ،  
والتاريخ السياسي لصلاح الدين الايوبي حتى وفاته ، وأفاض في  
أخبار حروبها مع الصليبيين منذ سنة ٥٥٢ حتى سنة ٥٨٩ ، وهى  
السنة التي توفي فيها صلاح الدين . ثم أفرد حروب صلاح الدين  
مع الصليبيين منذ سنة ٥٨٣ - وهى السنة التي فتح فيها  
صلاح الدين بيت المقدس واسترده من الصليبيين - حتى وفاته  
« كتاب خاص سماه « الفتح القسى في الفتح القدسى » .

- ابن أبي طوى الحلبي ( يحيى بن حميدة بن ظافر ) المتوفى  
سنة ٦٣٠ هـ ( ١٢٣٢ م ) وكتابه « كنز المؤمنين في سيرة  
صلاح الدين » ضمنه سيرة صلاح الدين الخاصة وال العامة ، وحربه  
مع الصليبيين حتى وفاته .

- ابن شداد ( يوسف بن رافع بن تميم ) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ  
( ١٢٣٤ م ) وكتابه « النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو  
صلاح الدين » ضمنه سيرة صلاح الدين الخاصة وال العامة ، وحربه  
مع الصليبيين حتى وفاته .

- سبط ابن الجوزي ( يوسف بن قز او غلى ) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ  
( ١٢٥٦ م ) وكتابه « مرآة الزمان » ، وهو كتاب في التاريخ العام ،  
جمع فيه أخبار الحروب الصليبية منذ بدايتها حتى السنة التي  
توفي فيها .

أما مؤرخو الغزو التترى من المعاصرین :

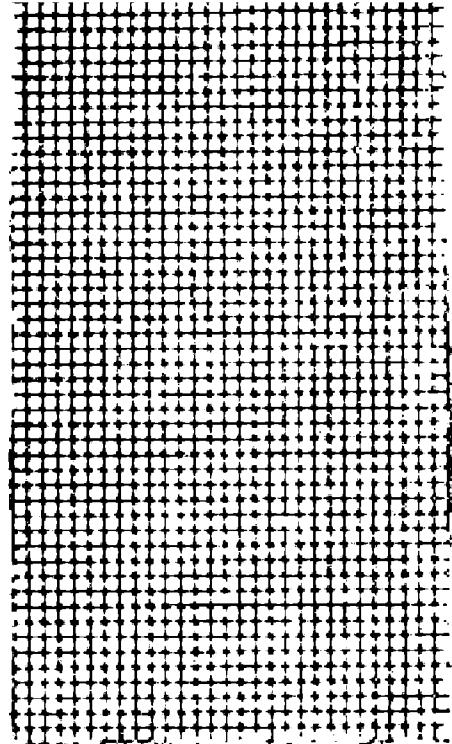
- الزيدري ( نور الدين محمد الزيدري الخراساني ) ( و تاريخ وفاته غير معروف ، الا أنه كان معاصرًا للنسوي المتوفى سنة ٦٤٧ ) وكتابه « نفحة المصدور في فتور زمان الصدور وزمان صدور الفتور » ، وضمنه أخبار الغزو عن مشاهدته ، فقد كان منشئ السلطان جلال الدين منكيرتى .

- النسوى ( محمد بن عبد الواحد ) المتوفى سنة ٦٤٧ هـ ( ١٢٤٩ م ) وكتابه « سيرة السلطان جلال الدين منكيرتى » ، وقد ضمنه أخبار الغزو عن مشاهدته أيضًا ، فقد كان منشئ السلطان جلال الدين ، كالزيدري .

#### وأما مؤرخو الدولتين الزنكية والأيوبيّة :

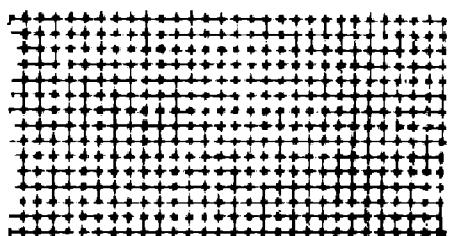
- أبو شامة ( عبد الرحمن بن إسماعيل ) المتوفى سنة ٦٦٠ هـ ( ١٢٦١ م ) وكتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » ، وهما الدولة الزنكية والأيوبيّة ، وقد ضمن المؤرخ التاريخ السياسي للزنكيين وحربهم مع الصليبيين في عهد عماد الدين ونور الدين ، وفي عهد خلفاء نور الدين حتى عصر صلاح الدين ، وضمن تأريخه للدولة الأيوبيّة ، تاريخ صلاح الدين السياسي وحربه مع الصليبيين ، مع الزنكيين خلفاء نور الدين محمود للاستيلاء على دولتهم منهم .

- ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم ) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ( ١٢٩٧ م ) وكتابه « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، والكتاب ، وإن كان يحمل عنواناً عن الأيوبيين ، إلا أن المؤلف بدأ كتابه بالدولة الزنكية ، منذ عهد مؤسسها عماد الدين زنكي حتى نهايتها ، فذكر أخبارها السياسية وحربها مع الصليبيين ، وحربها مع صلاح الدين ، ثم ثنى بدولة الأيوبيين وظهورها على يد صلاح الدين ، دون أخبارهم السياسية وحربهم مع الصليبيين حتى نهاية دولتهم سنة ٦٤٨ هـ .



## الفصل الثاني

### أسرة ابن الأثير - ترجمته



#### (١) أسرة ابن الأثير :

ينتمي ابن الأثير إلى أسرة اجتمعت لها خصائص الأسر العربية في الموصل ، فهي أسرة عربية الأصل من بنى شيبان أحد بطون بنى بكر بن وائل العربية ، وهي أيضاً أسرة غنية تمتلك عقارات واقطاعات ، وشغل أفرادها مناصب حكومية رفيعة ، ولها في البلات الموصلي مكانة ممتازة ، ثم هي كذلك أسرة علمية نبغ أبناؤها الثلاثة ، فكانوا من العلماء البارزين في مختلف العلوم ، وكانت لهم شهرة علمية دائمة في عصرهم وامتدت إلى ما بعد عصرهم ، إلى اليوم .

وقد شغل والد ابن الأثير وظائفه الحكومية في جزيرة ابن عمر التابعة للموصل فكان رئيس ديوانها ونائب وزير الموصل فيها ، ويبدو أن مكانة والده كانت كبيرة عند وزير الموصل ، بحيث كان الوزير ينزل في داره عند زيارته للجزيرة .

والأخبار عن مدى ثقافة والد ابن الأثير معروفة ، ولكن من

الراوح أن يكون قد حصل من العلم والثقافة ما يحصى به أمثاله ممن يتأهلون لشغل المناصب الحكومية . وخاصة وظيفة نائب الوزير ورئيس ديوان مدينة مثل جزيرة ابن عمر ، أو لحمل لقب هام كاللقب الذي يحمله وهو « أثير الدين » .

وكان والد ابن الأثير على جانب كبير من الشراء ، حيث يذكر المؤرخ ، أن والده كان يملك عدة بساتين بقرية العقيمية - احدى قرى جزيرة ابن عمر - كذلك كان يملك قرية جنوب الموصل يقال لها « قصر حرب » ويقول ابن الأثير ، انه جمع أكثر مادة كتابه « الكامل في التاريخ » في دار لهم بهذه القرية . كذلك كان والده يستغل بالتجارة إلى جانب وظيفته ، حيث يذكر خبر استيلاء الصليبيين - في سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧١ م ) على مراكب المسلمين كانت قادمة من مصر إلى الشام ، وكان لوالده فيها تجارة ، كذلك يذكر في أخبار سنة ٥٨٨ هـ ( ١١٩٢ م ) أن الصليبيين استولوا على قافلة برية وأما مؤرخنا ، وهو الأوسط هو عز الدين وقد ولد في سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) .

ومؤرخنا أخوان هو الأوسطهما ، فأخوه الأكبر هو مجد الدين أبو السعادات ، وكان مولده في سنة ٥٤٤ هـ ( ١١٤٩ م ) وأما أخيه الأصغر هو ضياء الدين نصر الله وولد في سنة ٥٥٨ هـ ( ١١٦٢ م ) وأما مؤرخنا ، وهو الأوسط ، هو عز الدين على وقد ولد في سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) .

وقد اتجه كل من مجد الدين وضياء الدين وجده أيهما في الالتحاق بالوظائف الحكومية ، وأما مؤرخنا فلم يشار كهما هذا الاتجاه . فاما مجد الدين فقد شغل عدة وظائف ، منها النظر على خزانة سيف الدين غازى صاحب الموصل ، ثم تولى ديوان جزيرة ابن عمر ، ثم عاد إلى الموصل فكان نائباً للوزير جلال الدين على ابن منصور الأصفهانى على ديوانها ، ثم عمل فيها كاتب الانشاء

لبعض ملوّكها ، وظل في وظيفته هذه حتى أقده المرض ، وقد أراد نور الدين أرسلان شاه ملك الموصل أن يعينه وزيرا له ولكنّه اعتذر لمرضه ، ثم توفي سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) .

أما ضياء الدين فيبدو أنه لم يلتحق بحكومة الموصل في أول أمره ، وإنما التحق بخدمة الأيوبيين ، فكان وزيرا للملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . ولما توفي صلاح الدين في سنة ٥٩٩ هـ (١١٩٣ م) استقل الأفضل بدمشق وضياء الدين وزيره ، فأساء ضياء الدين السيرة والحكم فيها حتى هدد بالقتل ، ففر منها إلى مصر متخفيا في صندوق مغلق وذلك نا انتقل الأفضل إلى مصر ، ولما استولى الملك العادل الأيوبى على مصر من الملك الأفضل - وكان العادل ساخطا على ضياء الدين لسوء سيرته - خرج ضياء الدين من مصر متخفيا أيضا ، ولازم الملك الأفضل بسميساط ، فظل معه مدة ، ثم انفصل عنه لغاصبة حدثت بينهما ، وعاد إلى الموصل ، ولكن لم تطب له الإقامة بها ، فرحل عنها إلى «أربيل» ولكنه سرعان ما بارحها لأنّه لم يجد هواء فيها ، فسار إلى مدينة سنجار ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الموصل واستقر بها نهائيا ، فالتحق بخدمة ملكها ناصر الدين محمود بوظيفة كاتب الانشاء وذلك في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) . ولما مات ناصر الدين التحق بخدمة بدر الدين لؤلؤ الوصي على عرش الموصل بوظيفة كاتب الانشاء أيضا وذلك في سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) فسرّه لؤلؤ رسولا منه إلى بغداد ، فمات بها في نفس السنة .

أما الاتجاه العلمي للأخوة الثلاثة ، فقد اتجه كل منهم اتجاهها خاصا في تخصصه العلمي ، حيث اختار مجد الدين العلوم الدينية واللغوية ، واختار عز الدين الحديث والتاريخ ، واختار ضياء الدين العلوم الأدبية ، فاشتهر كل منهم في ميدانه شهرة كبيرة في عصرهم ، وامتدت إلى ما بعد عصرهم . . . إلى اليوم .

وقد اشتهر مجد الدين كمحدث ومفسر ولغوی ، وله مصنفات في كل علم من هذه العلوم ، منها : « كتاب البدیع فی النحو » و « كتاب الانصاف فی تفسیر القرآن » و « كتاب غریب الحدیث » و « كتاب جامع الأصول فی حدیث الرسول » وغيرها .

وأما ضیاء الدين ، فقد اكتسب شهرته كأديب ، وله من المصنفات الأدبية : « المثل السائر فی أدب السکاتب والشاعر » و « الوشی المرقوم فی حل المنظوم » و « المعالی المخترعة فی صناعة الاشنا » .

واما عز الدين المؤرخ ، فله هنا حدیث طویل ، فهو موضوع هذا الكتاب .

\* \* \*

ويبدو أن مكانة أسرة ابن الأثير الاجتماعية في الموصل بعد انتقالهم إليها من الجزيرة ، لم تكن تقل عن مثيلاتها من الاسر الموصلية الكبيرة ، كأسرة بنى الشهير زورى ، وبنى بلده جى ، وبنى منعة ، وبنى المهاجر وغيرها ، وذلك نظراً لمكانة والد ابن الأثير وأخويه كموظفين كبار في حكومة الموصل وعلاقتهم بملوكها ، وقد أبرز ابن الأثير مكانة أسرته لدى ملوك الموصل وبخاصة في عهد الملك نور الدين أرسلان شاه ، وذلك في مقدمة كتابه « التاریخ الباهر » - وهو في تاریخ ملوك الموصل - فقال في معرض حدیثه عن سبب تأليفه الكتاب : « ... أما بعد ، والذى غمرنا من أنعام هذه الدولة العزيزة القاهرة ، والأيام الاتابکية الزاهرة ، وشملنا من احسانها ، وأنالتنا من عز سلطانها ، فقد اشتهر خبره ، وطاب مخبره ، وطار ذكره في الآفاق ، وتحدثت به الرفاق ، لم يخل من مبرة تسدیها ، ونعمۃ تولیها ، ودرجة في العلا ترفع بضبعنا إليها ، ومرتبة في الفخار تشرف بنا عليها ، وحالة من القرب تتضائل دونها درجات المقربين ، ومنزلة من الوثوق بنا تقاصر عنها منازل المخلصین » ، ثم ذكر مكانة أسرته لدى الملك نور الدين أرسلان شاه - والد الملك

القاهر الذي ألف ابن الأثير من أجله الكتاب فيقول : « و كان أكثر  
الموالي السعداء - قدس الله أرواحهم - انعاما علينا ، و احسانا علينا ،  
المولى السعيد ، الملك العادل نور الدين أرسلان شاه - رضي الله عنه  
وأرضاه ، وأكرم في الآخرة نزله ومشواه - فانه طالما أنعم علينا  
وأعطانا ، ووصلنا وحبانا ، وقربنا واصطفانا ، والى أعلى مراتب  
الكرامة أعلانا ، ما زال يوالينا الجميل ، ويولينا الجليل ، ويقربنا إلى  
حضرته العلية ، ويدنينا من سدته السننية ، وبأسراره يخصنا ،  
ولمشورته يستخلصنا . . . . . » . ويبدو أن والد ابن الأثير - بعد  
انتقاله من جزيرة ابن عمر إلى الموصل - جعل بيته منتدى يجتمع  
فيه كبار رجالات المدينة من أصحابه من علماء وأدباء وموظفين ،  
فكانت تدور في هذا المنتدى أحاديث متوعة ، وكان والد ابن الأثير  
يحدث ضيوفه عن ذكرياته عن ملوك الموصل الأوائل وسيرهم وأعمالهم  
الخاصة وال العامة ، وكان مؤرخنا يحضر هذه الأحاديث ويدونها ، فهو  
يصرح في مقدمة كتابه « التاريخ الباهر » أنه نقل أكثر مادة الكتاب  
عن والده الذي كان راوية حسنات الزنكيني و « عين الخبر بحر كاتبهم  
وسكتاتهم » وقد ذكر والده كمصدر له عن الزنكيني والأخبار أخرى  
أكثر من مرة في كتابيه « الباهر » و « الكامل » . ففي خبر ذكره  
ابن الأثير في « الكامل » عن الملك قطب الدين مودود نقله عن والده ،  
يفهم منه أن والده كان يوجه الحديث إلى جماعة من الناس - وإن  
كان ابن الأثير يورده وكان الخطاب موجه إليه بالذات ، حيث يقول :  
« حدثني والدي - رحمه الله - قال : كنت أتولى جزيرة ابن عمر  
لقطب الدين كما علمتم . . . . . » . ويورد نفس الخبر في « الباهر »  
ويبدأ بقوله : « فحسكي لي والدي ، قال : جاءنا كتاب فخر الدين  
عبد المسيح إلى الجزيرة وأنا أتولى ديوانها على ما شوهد . . . . . »  
فعبارة « كما علمتم » أو « على ما شوهد » يفهم منها أن الوالد كان  
يتحدث إلى جماعة من الناس وليس إلى ابنه وحده ، ولما توفي  
والد ابن الأثير ، حل محله في رئاسة الأسرة مجده الدين باعتباره

الآخر الأكبر وباعتبار مكانته ، واستمر البيت «يفتشاه الأكابر والعلماء» - كما يقول ابن خلkan - ولما توفي مجد الدين ، رئيس الأسرة عز الدين المؤرخ ، فكان البيت في أيامه «مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين إليها » فلما توفي عمل أخوه ضياء الدين على استمرار مكانة الأسرة الرفيعة حتى وفاته سنة ٦٣٧ هـ .

والواقع أن الأخوة ، قد صنعوا لأسرتهم شهرة واسعة ومجدًا كبيرا . يقول ابن خلkan في ترجمته لضياء الدين - أخي المؤرخ - « وقد تقدم ذكر أخيه مجد الدين أبي السعادات المبارك وأبي الحسن على الملقب عز الدين ، وكان الأخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء ، لكل واحد منهم تصانيف نافعة ، رحمهم الله » . ويدرك القزويني ( توفي سنة ٦٨٢ هـ ) في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » ، في تعريفه بجزيرة ابن عمر التي ولد بها المؤرخ وأخواه ، فيقول : « وينسب إليها بنو الأثير الجزريون ، كانوا ثلاثة أخوة فضلاء ، رأيت هنهم الضياء ( يقصد ضياء الدين ) كان شيخاً حسن الصورة ، فاضلاً ، حلو الحديث ، كريم الطبع ، له تصانيف كثيرة » .

### (ب) ترجمة ابن الأثير :

وأما مؤرخنا فهو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير الجزري .

ويلاحظ الباحث في ترجمة ابن الأثير قلة المعلومات عنه عند من ترجموه من المؤرخين برغم شهرته كمحدث ومؤرخ ، ومع كثرة من ترجموه ، فإن التراجم على كثرتها - يكرر بعضها بعضاً ينقل اللاحق عن السابق ، وقد كنا نتوقع أن يترجمه اثنان من معاصريه كانوا على صلة قريبة منه ، هما ياقوت الجموي والقسطني . فقد كان ياقوت صديقاً حمياً لابن الأثير بحيث عهد إليه بتوصيل كتبه التي أوقفها إلى بغداد بعد وفاته ، ومع ذلك فإنه ضمن عليه بترجمة في كتابه

« معجم الأدباء » مع أنه ترجم المقطفي ترجمة حافلة ، بالرغم من أن المقطفي كان على قيد الحياة كابن الأثير . وأما المقطفي ، فإنه كثيراً ما اجتمع بابن الأثير ، وقد أمدته ابن الأثير بمعلومات طيبة عن أخيه مجد الدين الذي ترجمه المقطفي في كتابه « انباه الرواة على انباه النحاة » ومع ذلك لم يترجمه ، وإن كان ذكره في موضوع طعن سند ذكره في حديثنا عن أخلاق ابن الأثير . أما معاصره الثالث المنذري فقد ترجمه ترجمة قصيرة في كتابه « التكملة لوفيات النقلة » . وكذلك ترجمة معاصره الرابع ابن خلكان ترجمة قصيرة في كتابه « وفيات الأعيان » بالرغم من أن صلته به كانت صلة وثيقة كما صرّح ابن خلكان نفسه بذلك . أما ابن الأثير نفسه ، فقد ضم بالحديث عن نفسه إلا في مناسبات قليلة ، وعلى ذلك ، فإن ترجمة ابن الأثير التي نقدمها ، فإنما نقدمها في ضوء ما عثرنا عليه من معلومات ، سواء ما ذكره هو عن نفسه ، أو ما ذكرته عنه المصادر التي تحدثت عنه .

هولده :

ولد ابن الأثير بجزيرة ابن عمر في اليوم الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) ونشأ بها . ويذكر ابن خلكان أن ابن الأثير انتقل إلى الموصل مع والده وأخويه وأقاموا بها ناقمة دائمة ، ولكنه لا يحدد – لا هو ولا غيره من المؤرخين – السنة التي انتقل بها الوالد بأولاده اليها ، ولكن اليونيني يترجم لأخيه الدين – أخي المؤرخ – فيقول : انه ولد بجزيرة ابن عمر « وانتقل إلى الموصل مع والده في رجب سنة تسعة وسبعين وخمسين » .

نشأته وتعليمه :

ولم تمنّنا المراجع بأية معلومات عن طفولة ابن الأثير وصباه ، وإن كان من المفروض ، أن يكون قد قضى طفولته وصباه في

الجزيرة كما يقضميهما أبناء الأسر البارزة ، وأن والده قد هيأ له ولأخويه أسباب الحياة الرغدة الميسرة . كما هيأ لهم سبل التعليم ، فألحقهم بأحد مكاتب الجزيرة على ما جرت عليه تقاليد أهل ذلك العصر في تعليم صبيانهم ، فحفظ القرآن ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، ولما شب عن الطوق التحق ببعض مدارس الجزيرة ، ثم نشط للتحصيل العلمي ، فأخذ يتنقل بين الجزيرة والموصل لتحصيل العلم عن شيوخهما . حتى انتقل إلى الموصل فأقام بها اقامة دائمة . وكان لهذا الانتقال أهميته ، فقد انتقل من حيز الجزيرة الضيق إلى فضاء الموصل الفسيح ، فقد كانت الموصل في ذلك الوقت تزخر بالأسر العلمية : كأسرة بنى منعة ، وبنى الشهزوري ، وبنى بلده جي ، وبنى المهاجر ، وبنى النقيب ، وبنى هبيل ، وكان في كل أسرة من هذه الأسر شيوخ علماء متخصصون في العلوم المختلفة ، وفيها شباب قرناء لابن الأثير في العمر يحصلون العلوم ، فضلاً عن علماء أجلاء من ذوى الأسر غير المعروفة من الفقهاء ، والمحاذين ، والمفسرين ، والأدباء ، والرياضيين . وإلى جانب هؤلاء العلماء ، كانت هناك المعاهد العلمية التي أنشأها ملوك بنى زنكى في الموصل ، كالمدارس والمساجد والرباطات ، وليس من شك في أن هذا الجو العلمي نشط ابن الأثير إلى مواصلة التحصيل ، فأخذ يتردد على مجالس العلم فيها ، كما كان ينتهز فرصة مسيره إلى الحج فكان يجتمع على شيوخ بغداد ويسمع منهم ، كذلك كان ينتهز فرصة تردداته إلى الشام فيجتمع على شيوخها . ففي الموصل سمع من : أبي الفضل خطيب الموصل ، وأبي الفرج يحيى الثقفى ، ومسلم بن علي السعدي . وفي بغداد سمع من : عبد المؤمن بن كلبي ، ويعيش ابن صدقة ، وعبد الوهاب بن سكينة ، وأبي أحمد عبد الوهاب

ابن على الصوفى . وسمع فى دمشق من : أبي القاسم بن صدرى ، وزين الأماناء ، وسمع من غير هولاء وأولئك من الشيوخ الذين ترجم لهم ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » فقد ترجم لشيخه ابن سويدة التكريتى المتوفى سنة ٥٨١ ، وكان ابن سويدة عالما بالحديث وله تصانيف حسنة ؛ وابن أفضل الزمان المتوفى سنة ٥٨٥ وكان عالما متبحرا فى علوم كثيرة كالفقه ، والأصول ، والحساب ، والفرائض ، والنجوم ، والهيئة والمنطق وغير ذلك ؛ وابن رواحة الذى قتل سنة ٥٨٥ فى وقعة عكا التى دارت بين صلاح الدين والصلبيين ، وكان ابن رواحة من أهل العلم وكان شاعرا أيضا ؛ وابن صدقة المتوفى سنة ٥٩٣ ، وكان اماما فى الفقه ومدرسا صالحا ، وقد سمع عليه ابن الأثير كثيرا ؛ وابن كلب الحرانى المتوفى سنة ٥٩٦ ، وكان عالى الاستناد فى الحديث ، وكان ثقة صحيح السماع ؛ وابن شبه النحوى المتوفى سنة ٦٠٣ ، وكان عارفا بال نحو واللغة القراءات والفقه والحساب ؛ وابن طبرزى المتوفى سنة ٦٠٧ . وكان عالى الاستناد .

ويحدثنا ابن الأثير فى مناسبات قليلة فى ثنايا بعض الأخبار وعن طريق ترجمة لشيخه عن العلوم التى درسها وهى : الحساب ، واللغة ، والفقه ، والحديث ، ولعله درس غيرها من العلوم : كالأصول ، والفرائض ، والمنطق ، والهيئة ، القراءات ، فان من شيوخه من كان يتقن أكثر من علم - كما رأينا من ترجمة لهن ترجم لهم من الشيوخ - . ودراساته لعلم الحساب ذكر فى كتابه الكامل فى خبر كسوف الشمس الذى حدث فى سنة ٥٧١ هـ ، ودراساته للحديث ذكره فى خبر الغلاء الذى حدث فى سنة ٥٧٤ واستمر حتى سنة ٥٧٥ . كذلك يذكر فى ترجمته لعبد الله بن محمد ابن عبد الله المعروف بابن هزار مرد الصرىفيى المتوفى سنة ٤٦٩ ، أنه « راوية أحاديث على بن الجعف وهو آخر من رواها ، وكان ثقة صالحها ، ومن طريقه سمعناها » .

## ثقافته :

وقد اهتم ابن الأثير بنوعين من الثقافة اختارهما لنفسه ، هما : الثقافة الدينية واختيار منها علم « الحديث » وتحصص فيه حتى أصبح كما يقول ابن خلkan وغيره - « اماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلّق به » ، والثقافة الأدبية واختيار منها « التاريخ » وتحصص فيه حتى أصبح - كما يقول ابن خلkan وغيره أيضا - « حافظا للتاريخ المتقدمة والمتأخرة » ، وخبريرا بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم » و « عارفا بالرجال وأنسابهم لا سيما الصحابة » . ولكن التاريخ جذبه إليه أكثر مما جذبه علم « الحديث » ، ويؤكد هذا تصرّيفه بذلك في قوله - في مقدمة كتابه « الكامل في التاريخ » وذلك في معرض حديثه عن سبب تأليفه الكتاب - : « أما بعد ؟ فانني لم أزل مهبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخفيفها ، مائلا إلى المعارف والأداب والتجارب المودعة في مطاوتها » ويؤكد أيضا اقتصاره على التأليف في التاريخ وحده دون « الحديث » ، كما يتبيّن ذلك من مؤلفاته التي سنتحدّث عنها في الفصل الرابع .

ويبدو أن قراءاته الأدبية من نثر وشعر كانت كثيرة وعميقة ، بحيث جعلت منه أديبا ذواقا ، وبحيث نصب نفسه حكما فيما يقرأه من المنشور والمنظوم فهو يذكر أن أبا نصر بن مشكان - كاتب الانشاء للسلطان محمود بن سبكتكين - كان « من الكتاب المفلقين » وانه رأى كتابة له « غاية في الجودة » ، ويقول عن مسعود ابن المحسن البياضي الشاعر أن « له شعر مطبوع » ، ويعجب أيضا بقصيدة قالها عامر بن الاطنايه في ( حرب فارع بسبب الغلام القضاعي ) - وال الحرب من أيام العرب في العاهليّة - فيذكر القصيدة برغم طولها وبرغم خلوها من ذكر الحرب ، ويعتذر عن اثباتها بقوله : « وإنما أثبتنا هذه الأبيات - وليس فيها ذكر

الوقة - لجودتها وحسنها » . هذا بالإضافة إلى اعجابه بحكم القدامي وبلاعتهم ، فقد دون نص رثاء حكماء اليونان للاسكندر ، ثم قال في نهاية الرثاء : « فهذا كلام الحكماء فيه مواضع وحكم حسنة ، ولهذا أثبتها » .

### مكانته في عصره :

ويتحضر نشاط ابن الأثير العلمي ، في علمي التاريخ والحديث كما ذكرنا ، وعن طريق هذين العلمين اشتهر ابن الأثير في عصره . ولكن يبدو أن شهرته في عصره كمؤرخ أكثر منه كمحدث ، يتبيّن هذا مما ذكره ابن الأثير نفسه في مقدمة كتاب « الكامل » - وذلك في معرض حديثه عن ظروف إخراجه الكتاب - حيث يقول إنه قرأ الكتاب على بعض أخوانه في مجالسه قبل أن يخرجه بل قبل أن يهدبه بطلب منهم ليروروه عنه ، كذلك يذكر أن الذي نشطه على الإسراع في إخراج الكتاب ، هو الأمر الذي أصدره إليه بدر الدين لؤلؤ مدبر مملكة الموصل باخراجه ، وامتدت هذه الشهرة إلى الشام أيضا ، حيث يذكر في مقدمة كتابه « أسد الغابة » ظروف تأليفه هذا الكتاب ، فقال : إنه ألفه في الشام بطلب من « جماعة من أعيان المحدثين ومن يعتنى بالحفظ والاتقان » فقد قالوا له : « إننا نرى كثيرا من العلماء الذين جمعوا أسماء الصحابة يختلفون في النسب والصحبة والمشاهدات التي شهدتها الصاحب ، إلى غير ذلك من أحوال الشخص ولا نعرف الحق فيه ، ثم حثوا عزمه على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة يستقصى فيه ما وصل إليه من أسمائهم ويبيّن الصواب فيما اختلف فيه المؤرخون السابقون عليه ، فاستجاب لهم وأخرج الكتاب ، وهذا لا يعني فقط شهرته كمؤرخ في الشام ، وإنما يعني أيضا الثقة به مؤرخا دقيقا عالما .

وأما شهرته كمحدث ، فإنها تبرز فيما ذكرته التراجم عنه ، فيذكر الذهبي ، أن ابن الأثير كان يسمع « الحديث » في الموصل

ودمشق وحلب ، ويذكر أيضاً أنه جعل بيته مأوى لطلبة العلم . ويذكر المنذري أن منزل ابن الأثير « كان مجتمع الفضلاء وأصحاب الحديث » . وقد ذكرت بعض المصادر أسماء تلاميذ ابن الأثير ومن روى عنه ، ويحتمل أن هذه المصادر لم تذكر كل تلاميذه ومن سمع منه ومن روى عنه وإنما اقتصرت على بعضهم . فيذكر السبكي منهم : الزينبي ، والشهاب القوصي ، والمجد بن أبي جرادة ، والشرف ابن عساكر ، وسنقير القضايعي ، ويزيد الذهبي على السبكي : ابن الدبيسي . ويذكر الذهبي أيضاً حديثاً سمعه من شيخه عن ابن الأثير : « أخبرنا أبو عبد الله ( أنا ) على بن أبي الكرم سنة خمس وعشرين وستمائة ٠٠٠ » ثم ذكر الحديث . ويذكر النووي حديثاً سمعه الشيخ تقى الدين صاحب المكابى من ابن الأثير : « أخبرنى بدمشق بقراءاتى الشيخ الأصيل المؤرخ عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ثم الموصلى ابن الأثير من أصل سماعه ، قال : ٠٠٠ » ثم ذكر الحديث . وقرأ على ابن الأثير أيضاً ، الشيخ عبد الله بن بلده جى « الأجزاء الراجيات » ، وقد مدح ابن بلده جى ، ابن الأثير ، فقال : انه « كان عالماً في السير وفنون الأداب والتاريخ ، صحبته كثيراً سفراً وحضرها ، وأجاز لى مراراً » . ويصرح ابن خلkan فى أكثر من مناسبة فى كتابه : ( وفيات الأعيان ) ، بأنه كان تلميذاً لابن الأثير فهو يذكر فى ترجمته لسهل بن عبد الله التسترى : « وذكر شيخنا ابن الأثير فى تاريخه ، أن مولده سنة مائتين ٠٠٠ » ويذكر أيضاً فى ترجمته لمظفر الدين كوكبورى : « قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن على المعروف بابن الأثير الجزرى ٠٠٠ » ثم نقل ما ذكره ابن الأثير عن مظفر الدين . ويذكر ابن الطقطقى فى مقدمة كتابه « الأحكام السلطانية » أن بدر الدين لؤلؤ - الذى سبق أن ذكرناه - « كان اذا دخل شهر رمضان ، أحضرت له كتب التاريخ والسير ، وجلس الزين الكاتب وعز الدين المحدث يقرآن عليه أحوال العالم » .

أما مكانته الاجتماعية ، فليس من شك ، في أن ابن الأثير كان يتمتع بمكانة رفيعة عند معاصريه ، وقد اكتسب هذه المكانة ، من مكانة أسرته ومن شخصيته كعضو فيها ، وليس عن طريق وظائفه في الحكومة الموصلية أو غيرها ، ذلك أنه لم يثبت أنه شغل وظيفة ما طول حياته ، بل إن بعض تعليقاته – في كتابه «الكامل» – على ما نال بعض الموظفين الكبار من اضطهاد على يد ملوكهم ، تعنى أنه كان عزوفاً عن المناصب الحكومية وكارها لها ، فهو يعلق على النكبة التي حلت بأبي الفضل وزير عز الدولة البويعي سنة ٣٦٠ بقوله : «نعود بالله من سوء الأقدار ، ونسأله أن يختتم بخير أعمالنا ، فإن الدنيا إلى زوال هي» . ويعلق بقوله على النكبة التي نزلت بيني جهير – وزراء الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة سنة ٤٩٥ – «وهذه عاقبة خدمة الملوك» كذلك يعلق على مقتل الوزير سعد الملك – وزير السلطان محمد السلجوقى سنة ٥٠٠ ، فيقول : «وهذا آخر خدمة الملوك» . هذا وإن كان المنذري يقول : إن ابن الأثير دخل بغداد حاجاً ورسولاً ، ويكرر ابن خلكان عبارة المنذري، كذلك يذكر الذهبي أن ابن الأثير «قدم الشام رسولاً» ، وهذا يعني أنه كان رسولاً عن ملوك الموصل إلى حكومة بغداد وإلى صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في الشام ، ولكن هذه الأقوال – فيما نرجح – لا تعنى شيئاً – لأنها لا تحدد الزمن الذي سار فيه ابن الأثير إلى بغداد والشام ، كذلك لا تذكر أسماء ملوك الموصل الذين أرسلوه ، ولا المناسبات أو المهام التي أرسل من أجلها . ويدرك ابن كثير ، أن ابن الأثير وزر لبعض ملوك الموصل ، ولكنه لم يسم هؤلاء الملوك . ونحسب أن الأمر قد التبس على هؤلاء المؤرخين ، فخلطوا بين ابن الأثير المؤرخ وبين أخيه ضياء الدين الأديب الذي وزر فعلما ملوك الموصل المتأخرین ، وسفر لبدر الدين كما ذكرنا ذلك في ترجمته .

ويذكر المنذري ، ويتفق معه ابن خلكان ، أن بيت ابن الأثير ،

كان مجتمع فضلاء أهل الموصل والواردين إليها وأصحاب الحديث ، فإذا أضفنا إلى هذا ما عرفناه عن أصحابه الذين ترجمهم في كتابه «الكامل» ، وأنهم كانوا من الأدباء ، والشعراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والصالحين ، عرفنا أن بيت ابن الأثير كان منتدى ثقافيا دينيا في الموصل ، فمن أصحابه : المعين أبو الفتوح الفقيه الشاعر ؛ وابن العجمي الحلبي وهو من مقدمي السنة في حلب ؛ وابن ظفر ، وهو من الأولياء أرباب الكرامات ؛ وابن عبدوس الشاعر ؛ وياقوت الموصلي الكاتب ؛ وابن النظروني الشاعر الأديب ، والنشو بن نفاذ الشاعر وغيرهم من أهم ترجمتهم من صدور الناس ، مثل : محمد بن إبراهيم – والد المؤرخ ابن خلkan – حيث يذكر ابن خلkan أنه كان بين والده وبين ابن الأثير « مؤانسة أكيدة » ، ومثل ياقوت بن عبد الله الرومي صاحب كتاب « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » .

وإذا كانت لا توجد أخبار تعطينا أي فكرة عما كان يدور في منتدى ابن الأثير من أحاديث ، فإنها على كل حال أحاديث منوعة : تاريخية وسياسية ، وأدبية ، ودينية ، فقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه « الكامل في التاريخ » أنه كان يقرأ كتابه « الكامل » – قبل إخراجه – على أصحابه . ويذكر في ترجمته لل الخليفة الظاهر بأمر الله في سنة ٦٢٣ – وكان ابن الأثير معجبا به لحسن سيرته ، وكانت مدة خلافته قصيرة – فيقول متأسفا لموته : « ولم أزل – علم الله سبحانه – مذ ولى الخلافة ، أخاف عليه قصر المدة لخيث الزمان وفساد أهله ، وأقول لكثير من أصحابنا : ما أخو فني أن تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته ، فكان كذلك ». ولا بد أن الواردين على الموصل من أصحابه كانوا يتحدثون عن أحداث بلادهم وأخبارها ، فكانوا مصادر هامة له ، فعن طريقهم كان يجمع أخبار بلادهم ، ولذلك كثيراً ما يذكر في أخباره مصادر

معما ، مثل قوله : « حکی لی » و « بلغنى » و « سمعت » ، فهو يدون بعض الأخبار عن القتال بين المسلمين وبين الهندوس معاً منهم ، حيث يذكر في سنة ٥٤٧ ، خبرين عن معركتين جرت بين المسلمين والهندوس ، ويقول في نهاية الخبر الثاني « وقد حدثني صديق لی من التجار بوقعتين تشبهان هاتين الواقعتين المذكورتين او فيهما بعض الخلاف ، وقد ذكرناهما سنة ثلاثة وثمانين وخمسين » . كذلك سمع بعض أخبار التتر من بعض المهاجرين من أهل بخارا ومراغة وذلك في الخبر الذي ذكره تحت عنوان ( ذكر مسیر التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته ) سنة ٦١٧ ، فيبعد أن ذكر الخبر قال : « هكذا ذكر لی بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم ووصل اليانا . وغير ذلك من الأخبار .

وقد كون ابن الأثير لنفسه مكانة ممتازة في الشام بسبب ترددہ عليها أكثر من مرة ، فقد تردد عليها في سنوات : ٥٩٠ و ٥٨٤ و ٦٢٥ و ٦٢٦ ، وكان يقضى في كل مرة مدة تطول وتقصر ، فقد ظل - مثلا - يتربدد بين حلب ودمشق بين سنتي ٦٢٦ و ٦٢٨ ، ولم يعد إلى الموصل إلا في أثناء سنة ٦٢٨ ، ويلاحظ أن سفره إلى الشام كان أيام الأيوبيين ، وقد نتج عن أسفاره هذه عقد صداقات مع علماء الشام ورجالها البارزين من أبناء الأسرة الأيوبية وكبار موظفي حكومتهم ، فنال فيها شهرة عريضة ، فقد اشتهر في الوسط العلمي كمحدث ومؤرخ ، وكان يدرس الحديث ويسمعه ، وقد سبق أن أشرنا إلى الحديث الذي سمعه شیخ الذهبی من ابن الأثير ، وأيضاً إلى الحديث الذي سمعه منه الشیخ تقی الدین بدمشق ، وكذلك أشرنا إلى ما ذكره ابن الأثير من أنه ألف كتابه « أسد الغابة » في الشام بطلب من بعض علمائها .

كذلك كان على صلات وثيقة بأبناء الأسرة الأيوبية وبكتاب رجالي

حكومتها ، ولكن ابن الأثير لا يذكر علاقته بواحد منهم صراحة ، حتى علاقته الوثيقة بظفريل مدبّر أمور حلب ، فإنه يخفّيها ، وحين يدون أخباره وحسن سيرته في الحكم ، يدونها وكأنه لا يعرفه معرفة شخصية وإنما كمن يسمع عنه فقط ، فيقول « فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل » هذا في الوقت الذي أبرز فيه ابن خلkan علاقه ابن الأثير بظفريل في ترجمته لابن الأثير ، فيقول : انه ( ابن خلkan ) لما وصل إلى حلب في أواخر سنة ٦٢٦ هـ « كان عز الدين المذكور ( يعني ابن الأثير ) مقیماً بها في صورة الضیف عند الطواشی شهاب الدين طفریل الخادم أتابک الملك العزيز بن الملك الظافر صاحب حلب ، وكان الطواشی كثير الاقبال عليه ، حسن الاعتقاد فيه مكرماً له » وأخفاء ابن الأثير أسماء الشخصيات البارزة التي له علاقة بها يدعو إلى التساؤل ، ولعل سبب ذلك عزوفه عن الحديث عن نفسه ، أو لأنه كان يستنقى الأخبار المثيرة عن الأيوبيين من أصدقائه الأيوبيين ومن لهم صلة بهم فلم يشاً احراجهم بالتصريح بأسمائهم . وعلى كل حال ، فإن مجالس طفریل التي كان يحضرها ابن الأثير لابد وأنها كانت حافلة برجال حلب البارزين من علماء وأدباء وموظفين وبمن يفد إليها من مدن الشام وغيرها ، فكان ابن الأثير يتعارف عليهم ، وتنعقد بينه وبينهم صلات وصداقات .

وكان ابن الأثير ينتهز فرصة وجوده في الشام أيام صلاح الدين ، فكان يخرج معه في غزواته لقتال الصليبيين – لا كمحارب – وإنما كشاهد ، وقد صرّح ابن الأثير أنه كان في الشام في سنة ٥٨٤ ، وأنه كان « في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة » ، كذلك يصرّح أنه حضر معه فتح « بربذية » وغيرها .

وقد أفادته رفقة صلاح الدين في غزواته ، فقد يسرت له هذه الرفقه وصف المعارك كما شاهدها ، فدونها في كتابه « الكامل » تدوين شاهد عيان ، كذلك أوقفته على بعض تصرفات صلاح الدين

الحربية الخاطئة فنقدتها ، كذلك أفادته علاقاته ببعض الشخصيات الأيوبية والمتصلين بالأيوبيين في الوقوف على كثير من أخبارهم الخاصة التي انفرد بها عن المؤرخين المعاصرين للأيوبيين .

### حياته الخاصة :

والمعلومات عن حياة ابن الأثير الخاصة قليلة ، وقد جمعناها من ثنايا بعض الأخبار العامة التي دونها بنفسه ، فهو - على سبيل المثال - قد ذكر أنه حج أكثر من مرة ، فذكر حجته الأولى في خبر مقتل عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة العباسى سنة ٥٧٣ هـ ، فقد دون حادث مقتله كما شاهده . وأما الحجة الثانية فكانت سنة ٥٧٦ ، وقد ذكرها في خبر خروج عرب « زعب » على الحجاج ونهبهم ايامهم في سنة ٥٤٥ ويلاحظ أن الحجتين كانتا وهو في مقتبل عمره ، أما الحجة الثالثة ، فقد كانت في سنة ٦٢٠ أو بعدها ، حيث يذكر في خبره ( ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى ) سنة ٦٢٠ ، أن صاحب اليمن لما وصل مكة نهبها عسكره إلى الفصر ، ثم يقول : « فحدثنى بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهם » . وكان ابن الأثير يسير إلى الحج برفقة أخيه الأكبر مجد الدين ، حيث يذكر في ترجمته لشيخه ابن صدقة المتوفي سنة ٥٩٣ ، أنه سمع على الشيخ ببغداد مع أخيه مجد الدين أثناء عودتهم من الحج ، ولكنه لم يحدد هل كان ذلك في سفرته الأولى أو الثانية ، ولم تكن في سفرته الثالثة ، لأن أخيه توفي سنة ٦٠٦ .

وكان ابن الأثير يعيش عيشة أرستقراطية ، فقد كان يقتني الجواري أنسوة بالأسر الأرستقراطية الموصلية ، فكان يشتري الجواري من جنسيات مختلفة ، فقد ذكر أنه اشتري جارية من السبايا الصليبيات عندما كان في الشام ، كذلك اشتري جارية من جواري الملك محمود الزنكى صاحب جزيرة ابن عمر ، وكان يستقى من

أولئى الجوارى الأخبار التى تهمه . كذلك لم يكن يتأثر - شراؤه - بما تسببه المجاعات أو الغلاء فى الموصل من ضيق وحرمان ، بل كان فى قدرته شراء ما يعز على الناس شراؤه - مثل اللحم - حيث يذكر في خبره عن الفلاء الذى حدث فى الموصل والجزيرة فى سنة ٦٢٣ هـ ، والذى بسببه أكل الناس أيمية والكلاب والسنانير حتى قل عددهم بعد أن كانوا كثيراً ، فيقول : ولقد دخلت يوماً الى دارى فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخوه ، فرأيت سنانير استكشرتها فعدها فكانت اثنى عشر سنوراً » . ولكن يبدو أن ابن الأثير واجهته بعض المضائق أو العسر المالى فى أواخر حياته ، حيث يقول في مقدمة كتابه « الكامل » انه بعد أن جمع مادة الكتاب ، أهمل أخراجه برغم الحاج أصحابه عليه ، لأن « العزم على اتمامه فائز ، والعجز ظاهر ، للاشتعال بما لا بد منه لعدم المعين والمظاهر ، أو لهموم توالى ، ونوابيب تتابعت » ثم اضطر إلى اخراج الكتاب ولم يوضح ابن الأثير نوع الهموم ( والنوابيب التي تتابعت عليه ، لا في المقدمة ولا في ثنايا الكتاب ) .

### أخلاقه :

يجمع من ترجم ابن الأثير على أنه كان يتحلى بالخلق الفاضل والصفات الحميدة ، يقول معاصره ابن خلkan ، انه اجتمع به فى حلب ، فوجده « رجلاً مكملاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع » . واداً كان كل من جاء بعد ابن خلkan يرددون قوله عن ابن الأثير ، الا أنه من الملاحظ ، أننا لم نقف على طعون أو مأخذ وجهت إلى أخلاقه ، سوى القبطى الذى يحمل عليه بسبب مكتبة ياقوت الحموى ، حيث يتهمه بسرقة المكتبة . يقول القبطى في ترجمته لياقوت : « وقبل موته أوصى بأوراقه ومجموعاته إلى العز بن الأثير الموصلى - وكان مقينا بحلب - وعهد إليه أن يسيرها إلى وقف الزيدى ببغداد أو يسلّمها إلى الناظر فيه الشیخ عبد العزیز بن دلف ، واحتاط

نواب الأيتام على ماله الى أن حضر ولد سيده من بغداد بكتاب حكمى وتسليم ما خلفه . وأما ابن الأثير فانه تصرف فى الكتبيات التى له ، والأوراق المجمعة التى بخطه تصرفًا غير مرضى ، ولم يوصلها - بعد أن حصل بالموصل - إلى الجهة المعينة برسيمها ، بل فرقها على جماعة أراد انتفاعه بهم وبها عندهم ، ولم ينفعه الله بشيء من ذلك ، ولم يتمل منها بأمل ولا مال ، وقطع الله أجله بعد أن قطع من الانتفاع بتفرقتها أمله ، فاكتسب خزى الدنيا وعداب الآخرة » . ثم يقول : « وبلغنى أن خبرها وصل الى بغداد ، وأنهم طالبوه من هناك بتسييرها الى محى وقفها ، فسير بعضها وأعرض عن بعض ، فنعود بالله من سوء القضاء والقدر » . فالقطبى يتهم ابن الأثير بأنه خان الأمانة ، وتصرف فى المكتبة وأعطى كتاباً منها لبعض الناس ليتحقق منفعة شخصية مادية وأدبية ، ويغمره غمراً جارحاً يتبيّن منه الحقد عليه ، ثم يشتم به لموته قبل أن يتحقق غرضه . والقطبى يختلف مع ابن خلkan في مصير المكتبة ، حيث يقول ابن خلkan في ترجمته لا ابن الأثير ، إن ابن الأثير سلم المكتبة إلى الوقف كاملاً . وقد حاولنا الفصل بين اتهام القطبى وما ذكره ابن خلkan عن طريق المصادر فلم نصل إلى شيء ، وذلك لأننا لم نجد اتهام القطبى عند غيره من ترجم لابن الأثير أو ياقوت . غير أنه يمكن تفسير حملة القطبى على ابن الأثير بوجود خصومة بين الرجلين ، فقد كان كل منهما على صلة بطفريل مدبر أمور حاب الذى ذكرنا علاقته ابن الأثير به ، فاما علاقه ابن الأثير به فكانت صداقة ، وأما صلة القطبى بطفريل فكانت صلة صداقة وعمل ، فقد كان القطبى رئيساً لديوان حلب أيام صاحبها الملك غازى الأيوبى حتى وفاة الملك سنة ٦١٣ ، ولما خلفه ابنه الملك العزيز اعتزل القطبى منصبه ، فأجرى عليه طفريل حتى سنة ٦١٦ ، ثم أللزمه فى هذه السنة بتولية رئاسة الديوان فظل به حتى سنة ٦٢٨ . وليس من شك فى أن كلاً من ابن الأثير والقطبى تعارفاً عند طفريل ، وكانا يحضران مجالسه ، فقد أمد ابن الأثير ، القطبى بمعلومات عن أخيه

مجد الدين لما ترجمه القبطى فى كتابه « ابن الروا » . والراجح أن الخصومة مصدرها أحد سببين أو كلاهما معا ؛ فاما السبب الأول ، فلعل طفرييل كان أكثر ميلا إلى ابن الأثير من القبطى ، فقد كان طفرييل كثير الاقبال على ابن الأثير حسن الاعتقاد به - كما يقول ابن خلkan - وهذا يعني أن ابن الأثير كان مشتهرا بالصلاح والتقوى ، وهذا ما حب طفرييل فى ابن الأثير ، فقدم كان طفرييل بيوره معروفا بالصلاح ، فلذلك كان يبره ويتميز عن غيره من أصحابه ، الأمر الذى أوجع صدر القبطى على ابن الأثير فناصبه العداء غيره منه وحسدا ، فاتهمه بما اتهمه به شفاء لغليله . أما السبب الآخر ، فهو تصرف ياقوت نفسه بوقفه مكتتبته ، و اختيار ابن الأثير لتوصيلها إلى محل الوقف ، ولعل القبطى كان يأمل فى أن يرث هو المكتبة

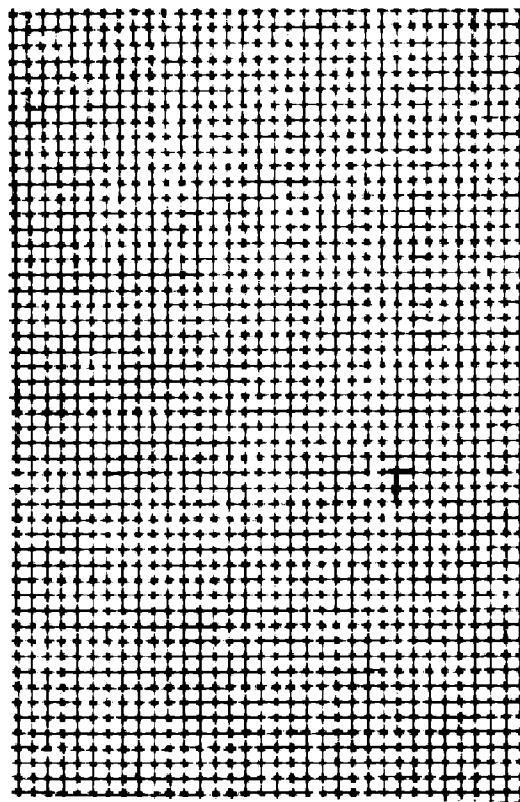
للصلة الروتينية التى كانت بينه وبين ياقوت ، فلما خاب أمله اغتاظ من ابن الأثير وياقوت ، فحمل على ياقوت أيضا فترجمة قادحة ، فطعنه في خلقه ، وصف شأنه ، وحرر مؤلفاته ، حيث يقول في ترجمته له ، انه عرف ياقوتا عن طريق عرض ياقوت عليه كتب للشراء لعلمه بغير امه بالكتب ، وأن ياقوتا عندما وصل إلى حلب للإقامة فيها ، كتب إلى القبطى : « قد أقيمت عصاى ببابك ، وخيم أصلى بجنباك » ، يقول القبطى : « فقلت في جوابه : أقسامك العيش ، سأله أن يرزقنى الثبات لا الطيش ، فان أخلاقه خلقه ، ومخاريقه منخرقة ، ولا أقع من دينه من حيث القاذورات . وأما من حيث تصرفه الموجب له التفرق والشلات ، فأقام مشاركا المعلوم ، باذلا كتب العلوم ، فلفق منها مجموعات لم يكملها ، ونسخ وباع في مدة سنين أقامها عندي محول الكلفة بحكمة اقتضاها حاله . . . » هذا في الوقت الذي مدح فيه ابن المستوفى مؤلفات ياقوت ، ومدح ابن خلkan خلقه فقال : « إن الناس كانوا عقيب وفاته يثنون عليه ، ويدكرون فضله وأدبه » ويأسف ابن خلkan لأنه لم يقدر له الاجتماع به .

وما ذكره القبطي عن ابن الأثير ينقضه ما عرفناه عن خلقه من ثنايا حملاته على ذوى الأخلاق المنحرفة وان كانوا من الخلفاء ، فمن ذلك انكاره على الخليفة الظاهر العباسى غشه وخداعه لنفعه الشخصى ، حيث يذكر فى أخبار سنة ٣٢١ ، أن الخليفة أمر بتحريم الخمر والغناء ، وأنه « أمر ببيع الجوارى المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشتري له كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منها ما أراد بأرخص الأثمان ، وكان الظاهر مشتهرًا بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طریقاً إلى تحصیل غرضه رخیصاً » فيتعلق ابن الأثير على تصرف الخليفة بقوله : « نعوذ بالله من هذه الأخلاق التي يرضها عامة الناس » .

وكان ابن الأثير يكره البخل والبخلاء ، فيذكر عن منصور ابن مروان — وكان صاحب ديار بكر فأقصى عن ملكه وحبس في بيت يهودي ومات فيه — أنه كان « شديد البخل وله في البخل حكايات عجيبة » ثم يعلق على ذلك بقوله : « فتعسنا لطالب الدنيا المعرض عن الآخرة ، إلا ينظر إلى فعلها بأبنائهما ، بينما هذا منصور ملك من بيت ملك آل أمره إلى أن مات في بيت يهودي ! نسأل الله تعالى أذ يحسن أعمالنا ، ويصلح عاقبة أمرنا في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه » . وكراهة ابن الأثير للبخال معناه أنه كان كريما ، ومن كرمه أنه جعل بيته مأوى للمطلبة ، ومعنى هذا أنه كان ينفق عليهم طوال مدة إقامتهم في بيته .

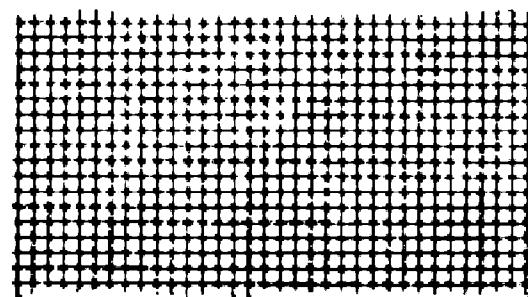
وفاته :

وقد توفي ابن الأثير - باجماع الثقات - في سنة ٦٣٠ ، مع اختلاف في الشهر الذي توفي فيه ، فابن خلkan يقول انه توفي في شهر شعبان ، وأما السبكي فيقول انه توفي في شهر رمضان . ويقول الذهبي ( في تذكرة الحفاظ ) أنه رأى خط ابن الأثير « تصحيحاً على طبقة سماع تاريختها في نصف شعبان من السنة » .



### الفصل الثالث

## ابن الأثير المؤرخ



### تخصص ابن الأثير في التاريخ :

ذكرنا في الفصل السابق ، أن ابن الأثير اشتهر في عصره كمحدث ومؤرخ ، ولكنه آثر التخصص في التأليف في التاريخ دون « الحديث » ، وذكرنا أيضا سبب تخصص ابن الأثير في التاريخ – كما ذكره هو – وهو حبه وميله إليه بطبيعته .

ومن الممكن أرجاع حب ابن الأثير للتاريخ إلى علم « الحديث » الذي كان يدرسه أثناء تحصيله العلمي ، حيث وقف على سيرة النبي أو سير الصحابة ، متفرقة في الأحاديث التي كان يسمعها من شيوخه في حلقات الدرس ، فاستهواه أخبار النبي وأخبار الصحابة ، ثم أراد التوسيع في معرفة سيرة النبي مجموعة ، والاستزادة من سير الصحابة ، فعكف على قراءة كتب السيرة

وترجم الصحاة ، ثم جرته هذه الكتب المحددة الموضوع الى قراءة كتب التاريخ المتنوعة ، كال تاريخ العام ، والترجم ، والفتح ، والأنساب ، حتى الم بتاريخ المشرق الاسلامي : العراق ، وفارس ، وخراسان ، وما وراء النهر ، وبتاريخ المغرب الاسلامي : افريقيا ، والأندلس ، وبتاريخ ما بين المشرق والمغرب : مصر ، والشام ، والجaz ، واليمن ، وكان جبه للتاريخ يزداد كلما ازداد قراءة وعمقا ، حتى اذا ما تكونت لديه ثقافة تاريخية ممتازة ، شجعه ثقافته هذه على التخصص في التاريخ علما وتأليفا ، بحيث اشتهر بأنه كان « حافظا للتواریخ المتقدمة والمتاخرة » ، وخيرا بانساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ». او يمكن أيضا اضافة سبب آخر حمس ابن الأثير على التخصص في التاريخ ، هو أحداث عصره المبكرة التي اشرنا اليها في الفصل الأول والتي عاشها في منطقته وهي : الحروب الصليبية ، والصراع الزنكي الايوبي ، بالإضافة الى أحداث المشرق الاسلامي القريبة منه ، فتحمس لتدوينها ، ثم رأى أن يتسع في التدوين وأن يكتب تاريخا عاما للعالم الاسلامي كله ، بعد قراءاته الواسعة ، فاستفرق جمع المادة التاريخية معظم حياته ، وهكذا قرر أن يتخصص في التاريخ والتأليف فيه : فأخرج كتبه التاريخية الأربع التي سنتحدث عنها بعد . وقد يكون تقديره للتاريخ من حيث فائدته دخل في تخصصه فيه ، فابن الأثير يرى – بحسب مفهومه ومفهوم المؤرخين المسلمين عامة – أن للتاريخ فوائد دنيوية وأخروية للمسلمين ، بما تضمنه من أحداث وأخبار الأمم السابقة ، فالتاريخ معلم التجارب والخبرات يتعظ الحاضر من السابق ، ويأخذ عنه تجاربه وخبراته ، وسوف نتحدث عن مفهوم ابن الأثير للتاريخ بعد قليل .

وتخصص ابن الأثير في التاريخ لا يجعله مؤرخا وحسب كغيره من المؤرخين ، وإنما يجعله « عالما » في التاريخ اذا أخذنا في

الاعتبار قول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم » ، وابن الأثير طلب فناً واحداً هو « التاريخ » ولم يستغله بغيره سوى « الحديث » .

ولا يعني تخصص ابن الأثير في التاريخ احترافه لهذا الفن ، وإنما الواضح من عنایته بالتاريخ في كتابه « الكامل » وطريقة عرضه للأخبار ، ومعالجته للأحداث ، ونقده وتعليقاته ، وكذلك من أسلوبه المطعم بالأمثال التي تجري على السنة العامة ، كل هذا يعني أن ابن الأثير كان « هاوياً » للتاريخ ولم يكن محترفاً أو متطفلاً عليه ، وهذا ما يميزه عن كثيرين من المؤرخين حتى المشهورين منهم .

وقد نوه المؤرخون القدماء بابن الأثير كمؤرخ أصيل ، فقال المنذري عنه ، انه كان « عارفاً بسير وأيام الناس » ، ويعرفه الذهبي بأنه « صاحب التاريخ ومعرفة الصحابة (كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة) والأنساب » . وقال عنه السبكي « الحافظ المؤرخ » ، أما ابن خلkan فإنه يقول عنه ، انه كان « حافظاً للتواریخ المتقدمة والمتاخرة ، وخبراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم » .

### مفهومه للتاريخ :

وقد قدم لنا ابن الأثير بنفسه مفهومه للتاريخ في مقدمة كتابه « الكامل في التاريخ » ، وذلك في ردّه اللاذع على المنكريين فائدة التاريخ والطاعنين فيه ، فيقول : « .. ولقد رأيت جماعةٍ من يدعى المعرفة والدرأية ، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية ، يحتقر التواریخ ويزدریها . ويعرض عنها ويلغیها . ظناً منه أن غاية فائدتها انما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحادیث والأسما .. » . وهذه حال من اقتصر على القشر دون

اللب نظره ، وأصبح مخليبا (١) جوهره ، ومن رزقه الله طبعا سليما ، وهداه صراطا مستقيما ، علم أن فوائدتها كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة ، وها نحن نذكر شيئا مما ظهر لنا فيها ، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها ». ثم يذكر فوائدتها الدنيوية والأخروية :

« فأما فوائد التوارييخ الدنيوية ، فمنها : أن الإنسان لا يخفى - أنه يحب البقاء ، ويرث أن يكون في زمرة الأحياء ، فياليت شعرى ، أى فرق بين ما رأه أمس أو سمعه وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين وحوادث المقدمين ؟ فاذا طالوها فكانه عاصرهم ، وإذا علمها فكانه حاضرهم .

« ومنها ، أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان وراؤها مدونة في الكتب يتناقها الناس فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقب من سوء الذكر وقبح الأحداث ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهب الأموال ، وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها وأطربوها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها درت ، استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركتوا ما ينافيها ، هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء ، وخلصوا بها من المهالك واستصانوا نفائس المدن وعظيم الملك ، ولو لم يكن فيها غير هذا لكتفى به فخرا .

« ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث

---

(١) المخليب : خرز يتخذ منه حلوي واحدته مخليبة . ( المخصص لابن سيده ) .

وما تشير إليه عواقبها ، فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم نظيره ، فيزداد بذلك عقلا ، ويصبح لأن يقتدي به أهلا .

« ومنها ما يتجمل به الإنسان في المجالس والمحافل ، من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريقة من طرائفها ، فترى الأسماع مصفية إليه ، والوجوه مقبلة عليه ، والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره » .

وأما فوائد التاريخ الأخروية ، فمنها : أن العاقل الليبب إذا تفكر فيها ، ورأى تقلب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، وأنها سببت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصغرهم وأكبرهم ، فلم تبق على جليل ولا حقير ، ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير ، زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص ، وسلم أهلها من هذه النعائص ، ولعل قائلا يقول : ما نرى ناظرا فيها زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ورغب في درجاتها العليا ، فياليت شعري ، كم رأى هذا القائل قارئا للقرآن العزيز – وهو سيد الماءعظ وأفصح الكلام – يطلب به اليسير من هذا الحطام ؟ فان القلوب مولعة بحب العاجل .

« ومنها التخلق بالصبر والتأسى ، وهما من محاسن الأخلاق ، فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم ، ولا ملك معظم ، بل ولا أحد من البشر ، علم أنه يصيبه ما أصابهم ، وينسبه ما نابهم ، ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن المجيد ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) فان ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات والأسمار فقد تمسك من أقوال الزيف بمحكم سببها ، حيث قالوا : هذه أساطير الأولين اكتتبها ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلبا عقولا ، ولسانا صادقا ، ويوفقنا للسداد ، في القول والعمل ،

وهو حسبنا ونعم الوكيل » . ومفهوم ابن الأثير للتاريخ ، هو نفس مفهوم المؤرخين المسلمين السابقين عليه واللاحقين له ، فهم جمیعاً یشتراكون في النظرة إلى التاريخ إلى أنه — من حيث فوائدہ الدینیویة — : ثقافة عامة ، ووجه سیاسی للحکام ، وأدأة الترویح عن النفس ، وسبیل معرفة الحاضر للماضی : ومعمل التجارب والخبرات ، وسبیل تنظیم الانسان لحیاته ، وحافز للهمم ؛ وأنه — من حيث فوائدہ الأخرویة — : عامل ملطف لمن تصیبه متاعب الدنيا ، وتدکرة وعبرة ، وأدأة الوصیول إلى الله » .

### تفکیره التاریخی :

يصف المهتمون بالتاریخ الاسلامی وبالمؤرخین المسلمين من الغربیین ویجاریهم فی الوصف الدارسون الشرقيون — یصفون المؤرخین المسلمين بالسطحیة ، ویتفضیلهم الکمية فی الاخبار على النوعیة ، وهذا الوصف فیه کثیر من المبالغة ، واذا كان هناك من المؤرخین من ینطبق عليهم هذا الوصف ، فان هناك أیضاً المؤرخین الأصلاء الذين یمتازون بعمق التفکیر ، ویتفضیلهم النوعیة فی الاخبار على الکمية ، وابن الأثير واحد من هؤلاء المؤرخین الأصلاء ، فقد أثبتت فی كتابه « الكامل فی التاریخ » أنه مؤرخ مفكر واع ، ودليل هذا أنه یربط الأحداث المتقاربة أو المشابهة بعضها ببعض ، ویعملل أسبابها ونتائجها ، مثل ربطه بين غارات المسيحيین على المسلمين فی الغرب والغزو الصليبي على الشام ، وأیضاً بين استیلاء المتفلبین على الحكم وبين حرمان أعقابهم منه ، وكذلك ربطه بين تصرفات الخوارزمیة السیئة وبين هزائمهم المتتالية من التتر ، وغيرها من الأحداث وهي کثیرة . وقد شهد « روزنشال » — وهو أحد الطاعنین في المؤرخین المسلمين — بهذه المیزة لابن الأثير حيث یقول فی معرض

حديثه عن كتاب «الكامل» : «وقد بذل ابن الأثير جهده  
 - على الأقل - لرعاة توافق معقول بين الأحداث في كافة أنحاء  
 العالم الإسلامي ، رغم أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح التام ،  
 أضف إلى ذلك أنه حاول انصاف الأحداث العجيبة وترجم  
 الشخصيات البارزة دون أن يبالغ فيها ، وعندما يقترب من  
 عصره ، يحاول تفصيل الأحداث التاريخية ولكن دون اخلال ،  
 كما يظهر لمحات من البصيرة التاريخية الحقة ، فهو مثلاً يعتبر  
 استيلاء الصليبيين على أنطاكية (١) في سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م)  
 جزءاً من هجوم ذي ثلات شعب يشنّه العالم المسيحي على الإسلام  
 من إسبانيا وصقلية وقلب الإسلام ، كما أنه يحاول تفسير  
 سبب عدم استخلاف منشئ الدول بأولادهم ؟ ويحاول في مكان  
 آخر أن يتذكر في شأن المؤرخين الآخرين (٢) في عظم كارثة الغزو  
 التتاري ، غير أن فهمه السيكولوجي في هذا المضمار يفوقه  
 فهم ابن أبي أصيبيعة الذي كان يعلم أنه : «ما من طامة إلا فوقها  
 طامة أعظم منها ، ولا حادثة ولا غيرها تكبر عنها». فروزنثال  
 - وإن كان يستقصى من ابن الأثير في بعض الجوانب - فإنه  
 يشهد له بأنه وازن بين أحداث العالم الإسلامي توافقاً معقولاً ،  
 وأنه أنصاف الأحداث والشخصيات التي أرخها ، وكذلك فصل  
 الأحداث التاريخية دون اخلال : وفوق هذا كله فإنه يملك  
 بصيرة تاريخية حقيقة ، وتكفى هذه الميزات عند أي مؤرخ  
 لتضعه في مصاف المؤرخين الممتازين المؤوثق بتواريختهم وبآرائهم .  
 وأما الأمثلة التي ذكرها روزنثال للتدليل على بصيرة ابن الأثير  
 التاريخية ، فشرحها كما يلى :

(١) في الأصل : غرة ، وهو خطأ .

(٢) الواقع ، أن ابن الأثير كان يتذكر فيما يقوله الناس - لا المؤرخين -  
 كما يتبيّن من نص ابن الأثير الذي سندكره بعد .

— ففيما يختص بالحروب الصليبية ، فإن ابن الأثير ربط بين الفزو الصليبي للشام في سنة ٤٩١ هـ ، وبين استيلاء الأسبان المسيحيين على مدينة طليطلة من المسلمين في سنة ٤٧٨ هـ ، واستيلاء المسيحيين على صقلية منهم في سنة ٤٨٤ هـ ، فاعتبر ابن الأثير الفزو الصليبي حلقة من سلسلة الحركات المسيحية المناهضة للمسلمين ، ولذلك استهل تدوينه للحروب الصليبية بقوله : « كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واستداد أمرهم وخروجهم الى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعين ميلادية ، فملكوها مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس — وقد تقدم ذكر ذلك — ، ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعين ميلادية جزيرة صقلية وملكوها — وقد ذكرته ايضاً — ، وتطرقوا الى اطراف افريقيا فملكوها منها شيئاً وأخذ منهم ثم ملقوها غيره على ما تراه ، فلما كان سنة تسعين وأربعين ميلادية خرجوا الى بلاد الشام .. » .

— وفيما يختص بعدم استخلاف منشئ الدول بأولادهم ، فإن روزنثال يشير الى ما لاحظه ابن الأثير وهو بدون اخبار الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين أن ملكه لم ينتقل الى ابنائه ، وإنما انتقل الى اخوته وأبنائهم ، وقد تنبه ابن الأثير ، الى أن هذه الظاهرة لم تكن الاولى من نوعها في التاريخ الاسلامي وإنما سبقتها حالات كثيرة ، ويدون ابن الأثير هذه الحالات فيقول : « قد اعتبرت التواريخ ، فرأيت كثيراً من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ، ورأيت كثيراً من ينتدء الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض أهله وأقاربه ، منهم : أول الاسلام معاوية بن أبي سفيان فهو أول من ملك من أهل بيته ، فتنقل الملك من أعقابه الىبني مروان من بنى عممه ؟ ثم من بعده السفاح وهو أول من ملك من بنى العباس ، انتقل الملك من أعقابه الى أخيه المنصور ، ثم السامانية وأول من استبد منهم نصر بن أحمد

فانتقل الملك عنه الى أخيه اسماعيل بن أحمد وأعقبه ، ثم يعقوب الصفار وهو أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك الى أخيه عمرو وأعقبه ، ثم عماد الدولة ابن بويه وهو أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه الى أخيه ركن الدولة وعز الدولة ، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ، ثم خلص في أعقاب ركن الدولة ؟ ثم الدولة السلجوقية وأول من ملك منهم طغرل بك انتقل الملك الى اولاد أخيه داود ؟ ثم هذا شير كوه (١) – كما ذكرناه – انتقل الملك الى أعقاب أخيه أيوب ، ثم ان صلاح الدين لما انشأ الدولة وعظمها وصار كأنه أول (ملك) لها انتقل الملك الى أعقاب أخيه العادل ، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب ، وهذه أعظم الدول الإسلامية . ولو لا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا » ثم يعلل ابن الأثير سبب هذا الحرمان فيقول : « والذى أظنه السبب فى ذلك ، أن الذى يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك ، وقاوب من كان فيه متعلقة به ، فلهذا يحرمه الله أعقابه ، ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له » . والمفهوم من تعليل ابن الأثير حرمان أعقاب مؤسس الدولة من الملك ، أن مؤسس الدولة يؤسس دولته اغتصاباً من أصحابها ، فيفضل أصحابها في حسرة على ما ضاع منهم ، فينتقم الله من المغتصب بحرمان أبنائه من الملك ، ويفك ابن الأثير رأيه هذا في سرده لمؤسس الدولة الذين حرمت أعقابهم من الملك ، فمعاوية – بحسب ما يفهم من تعليل ابن الأثير – اغتصب الخلافة من على بن أبي طالب وأسس الخلافة الأموية ، والسفاح العباسي اغتصب الخلافة من الأمويين وأسس الخلافة العباسية؟

(١) يعني ابن الأثير ، أسد الدين شير كوه – عم صلاح الدين – الذي فتح مصر باسم نور الدين محمود ، ووزر لل الخليفة العاشر الفاطمي . ولما توفي لم يخلفه أحد من أبنائه في الوزارة وإنما خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذي أنشأ الدولة الأيوبية بعد وفاة نور الدين .

و عماد الدولة بن بويه ، اغتصب السلطة والنفوذ السياسي من الخلفاء العباسيين وأسس الدولة البويمية ، و طغرل بك السلاجوقى قضى على الدولة البويمية وأسس الدولة السلجوقية ، وأخيراً صلاح الدين ، اغتصب - في رأى ابن الأثير - ملك بني زنكي بعد وفاة نور الدين محمود .

— أما فيما يختص بالغزو التترى ، فان روزنثال يشير الى قول ابن الأثير ، وهو يلخص زحف التتر على المشرق الاسلامى ووصولهم الى أرمينية والعراق مكتسبين قوى المسلمين التى حاولت صدهم ، ومخربي كل ما يقع فى أيديهم من البلاد ، فيقول : « وتأله لا أشك أن من يجئ بعده اذا بعدنا اذا بعد به العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها — والحق بيده — فمتى استبعد ذلك ، فلينظر اننا سطروا نحن وكل من جمع التاريخ فى ازماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة .. » وقد علل ابن الأثير سبب نجاح الغزو التترى ، فقال : ان السبب هو أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، كان قد طمع فى حكم المشرق كله ، فاستولى على ممالكه واماراته من أصحابها ، فلما زحف التتر لم يستطع وحده ولا ابنه جلال الدين منكربتى من بعده الصمود أمامهم ، فاكتسحوا قواتهما فكان نجاحهم السريع فى طى المشرق فى وقت قصير حتى وصلوا الى مشارف الموصل فى أقل من سنتين كما يقول ابن الأثير .

• 0.100

وقد أدى تفكير ابن الأثير التاريخي الوعي ، إلى تفهمه للأحداث وتحليلها وتقديرها والتعليق عليها ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى في كتابه «الكامل» ، نذكر بعضها على سبيل المثال - لا الحصر - :

## ومن نقده التاريخي :

— ينقل ابن الأثير خبر « حرب الفجار » ( من أيام العرب في الجاهلية ) من الطبرى ، — وقد انهزمت قريش في هذه الحرب — وفي خبر الطبرى ، أن الإمام الزهرى قال ، بأن النبي لم يحضر الحرب ، وأنه لو حضرها ما انهزمت قريش . فيرد ابن الأثير على الزهرى بقوله : « وهذه العلة ليست بشيء ، لأنها ( أي النبي ) كان بعد الوحي والرسالة ينهزم أصحابه ويقتلون ، فإذا كان جمع قبل الرسالة وانهزموا فغير بعيد ». .

## ومن نقده السياسي :

— ينقل من مصادره خبر قسوة الخليفة عثمان بن عفان على أبي ذر الغفارى الذى كان يدعو الأغنياء إلى التنازل عن أموالهم للفقراء حتى كادت تقوم فتنة ، فقبض الخليفة عليه ونفاه إلى « الريذة » ، وقد كثر العتب على عثمان واتهموه بالقسوة على أبي ذر ، فلم يعجب هذا ابن الأثير فيدافع عن عثمان — كحاكم — فيقول ، انه لو صح ما قيل عن قسوة عثمان على أبي ذر « لكان ينبغي أن يعتذر عن عثمان ، فإن للإمام أن يؤدب رعيته وغير ذلك من الأعذار ، لا أن يجعل ذلك سببا للطعن عليه كرها ». .

وفي سنة ٥٧٩ قبض الملك عز الدين مسعود صاحب الموصل على مجاهد الدين قايماز مدبـر أمور دولته بسبب وشایة ، وولى آخر مكانه ، وكان مجاهد الدين رجلا حازما ، فلما قبض عليه ، انتقض على الملك نوابه في البلاد التي تحت حكمه ، وخرجوا عن طاعته ، فيتعلق ابن الأثير على ما حدث بقوله : « وعلى الحقيقة ، ليس على الدولة شيء أضر من بيشكار ( وزير ) مدبـر لها واقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطبيب العاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه بما يوافقه ويؤديه ، ويكون الثاني — وإن كان

كافيا - بمنزلة الطبيب الذى لا يعرف مزاج الانسان وما يوافقه ويوذيه ، فالى ان يعرف حاله ينفشد أكثر مما ينصلح » .

### ومن نقده الحربي :

- في سنة ٦١٥ ، اشتباك كيكاووس بن خسرو - من سلاجقة الروم - في حرب مع الملك الأشرف الأيوبي ، فانهزمت مقدمة جيشه من جيش الأشرف ففر من المعركة وانهزم ، فيعلق ابن الأثير على فراره بقوله ، « انما فعل هذا لأنه صبي وغرس ، لا معرفة له بالحرب ، والا فالعساكر ما برأحت تقع مقدماتها بعضها على بعض » .

كذلك أحس ابن الأثير بدور الشخصيات البارزة كالحكام وغيرهم - سواء في العصر الاسلامي أو ما قبله - وأثرهم في حياة شعوبهم ، فينفعل ابن الأثير مع الأحداث - سواء كان انفعال رضا أو استنكار - ويعبر عن انفعالاته بالتعليق . فمن الشخصيات القديمة التي أعجب بها وامتدحها ، الملك الفارسي كسرى أنوشروان ، فقد أعجبه حكمه وعدالته ، ودون منهجه في الحكم كما أعلنـه كسرى بنفسه ، ثم علق عليه بقوله : « فانظر الى هذا الكلام الذى يدل على زيادة العلم ، وتوفر العقل ، والقدرة على منع النفس ، ومن كان هذا حاله استحق أن يضرب به المثل في العدل الى أن تقوم الساعة » .

- وكان الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله (توفي سنة ٥٧٥) حسن السيرة عادلا ، فيعجب ابن الأثير به ، ويقول عنه في ترجمته له : « ومات سعيدا - رضى الله عنه - فلقد كانت أيامه - كما قيل - :

كأن أيامه من حسن سيرته  
مواسم الحج والأعياد والجمع

— وكان الملك الظاهر غازى الايوبي صاحب حلب ( توفي سنة ٦١٦ ) سيء السيرة ، وكان يأخذ أموال الناس بغير حق ، ولما توفي خلفه ابنه محمد وكان صغيرا ، وكان الوصى عليه ومدبر أمور حلب رجلا روميا اسمه « طغرل » ؛ فأحسن طغرل السيرة ، وعدل في الحكم ، فيقارن ابن الأثير بين هذا الوصى وبين الملك غازى وغيره من الملوك فيقول : « وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية ، وأقرب إلى الخير منهم ، ولا أعلم اليوم في ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه ، فالله يبقيه ويدفع عنه ، فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل » .

أما الشخصيات التي استنكر ابن الأثير أعمالها ، فقد سبق أن ذكرنا استنكاره تصرف الخليفة القاهر بالله الذى أمر ببيع الجواري . ونضيف هنا مثيلين آخرين :

— كان الخليفة العباسى الناصر لدين الله ( توفي سنة ٦٢٢ ) قبيح السيرة سيء السمعة ، وفي عهده خرج التتر إلى المشرق الإسلامي ، وقد راجت شائعة في ذلك الوقت أن الخليفة هو الذى استدعى التتر ليتخلص من ضفت السلطان خوارزم شاه عليه ، وعندما يترجم ابن الأثير ، الخليفة ، يقول : « وان كان ( أي الخليفة ) سبب ما ينسبة العجم إليه صحيحًا ، من أنه هو الذى أطعم التتر في البلاد وراسلهم في ذلك ، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم » .

— ويتهاؤن أوزبك بن البهلوان — صاحب بلاد اذربيجان — في الدفاع عن بلاده عندما هاجمه التتر ، وانما آثر السلامة معهم صالحهم ، فينقده ابن الأثير مستنكرا فيقول : « فلم يخرج إليهم ، ولا حدث نفسه بقتالهم ، لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق ، وانما أرسل إليهم صالحهم

على مال وثياب ودواب » . ويصفه مرة أخرى بقوله ، « وكان أميراً متاخلاً ، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً ، يبقى الشهر والشهرين لا يظهر ، وإذا سمع هيبة طار مجفلاً منها ، وله جميع أذربيجان وأرأن ، وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها » .

### حياته في التاريخ :

وابن الأثير محайд في التاريخ للأحداث التي لها صلة وثيقة ب أصحابها ، مثل تأريخه للزنكيين وللأيوبيين ، فقد أرخهم في كتابه « الكامل » بحيدة تامة ، وقد سبق أن ذكرنا أن ابن الأثير وأسرته عاشوا في ظل الدولة الزنكية ورعايتها ، فلم يمنعه فضل الزنكين عليه وعلى أسرته من أن يدون أخبارهم تدويناً أميناً ، فمدح من استحق منهم المدح ، وذم من استحق منهم الذم ، ودون الأخبار التي ترفع من شأنهم أو الأخبار التي تجرحهم . فقد ذكر — على سبيل المثال — غدر عماد الدين زنكي بصاحب دمشق — بعد أن استأمنه صاحب دمشق على ولده نائبه في حماة — فقبض عماد الدين على ابنه وعلى قواده واعتقلهم — وهم في ضيافته — واستولى على حماة غدراً في سنة ٥٢٣ ، كذلك دون خبر غدر عماد الدين أيضاً بحمامية بعلبك سنة ٥٣٣ — وكانت لصاحب دمشق — وكان قد حاصرها عماد الدين وقاتلها ليستولى عليها ، فاستسلمت له الحاممية بعد أن أعطاها الأمان ، ولكنهم لما حصلوا بين يديه أمر بصلبهم فصلبوا إلا من استطاع منهم النجاة ، « فاستقبع الناس ذلك من فعله واستعظموه » كما يقول ابن الأثير :

وأما حيته في تاريخه لصلاح الدين ، فاتها جدير بالتقدير حقاً ، ذلك أن صلاح الدين هو الذي قضى على دولة الزنكين صاحبة الفضل على ابن الأثير وأسرته — كما ذكرنا — وبالرغم

من أن تصرف صلاح الدين هذا أحزن ابن الأثير وأدخل على نفسه الحسرة ، فان حزنه وحرسته لم يمنعاه من أن يؤرخ صلاح الدين تارياً خاصيناً ، وأن يمدحه ويشيد ببطولته في أكثر من مناسبة ، وأن يرافقه في بعض معاركه مع الصليبيين في الشام ، وفي الوقت نفسه نقد بعض تصرفاته الحربية وتصرفاته مع بعض الصليبيين أدت إلى نتائج سيئة ذكرها ابن الأثير ، مثل : سماحة المستأمنين الصليبيين في التجمع في مدينة « صور » فاستعصى عليه فتحها بعد ذلك . ومثل استبداله حامية عكا مما أدى إلى سقوطها في أيدي الصليبيين ، أى أن ابن الأثير ذكر ما لصلاح الدين وما عليه دون أن يسمح لحزنه أو حرسته أن يؤثرا على أمانته التاريخية وهو يؤرخه ، ولكن بعض الدارسين المحدثين ، قد فهموا من ميل ابن الأثير للزنكيين ونقده لصلاح الدين ، انه انحراف منه في تأريخه لكل من الزنكيين وصلاح الدين ، واعتبروا نقاده لصلاح الدين قداماً مفروضاً قصد به تجريحه والتشهير به ، كما اتهموه باتهامات أخرى ليشبع نوازع حقده على صلاح الدين وحسده له ، وهذا ما نفصله بعض الشيء في الفصل الخامس من الكتاب .

#### خصائصه :

ولابن الأثير خصائص مميزة تبرزه كمؤرخ ممتاز نذكر منها :

— اختياره المصادر ، فإنه يتبع من مراجعة المصادر التي اعتمد عليها في تأليف كتابه ، أنه كان يتخير الأصلية منها والموثوق بها ، كما تدل على حرصه على استقاء مادته من مصادر حظيت بشهرة كبيرة ، ثم أنها تؤكد أنه كان معنباً عنابة كبيرة في اخراج مواد مفيدة . وسوف نتحدث عن مصادر كل كتاب من كتبه في الفصل التالي .

- نقده لمصادره : فإنه بالرغم من ثقة ابن الأثير بمؤلفي مصادره ، فإنه لم يفهم من النقد اللاذع حين يعثر لهم على خطأ ، غير أنه يستبين من لهجته في النقد عزة العلماء واستعلاؤهم . فهو برغم اعجابه بالطبرى وبشقته المطلقة بعلمه و بتاريخه « تاريخ الأمم والملوك » بحيث يصفه بأنه « الإمام المتقن حقا ، الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقها » وأنه اعتمد على كتابه ، لأنه « الكتاب المعمول عند الكافية عليه ، والمرجوع عند الاختلاف إليه » ، ومع ذلك لم يمنعه تقديره للطبرى من أن ينقده تقدما لاذعا لخطئه في بعض أخباره ، فهو يرى أنه قد أخطأ في الحوادث التي حدثت أيام الملك الفارسي « قباد » ، فبعد أن نقل منه الخبر ووضعه تحت عنوان ( ذكر حوادث العرب أيام قباد ) قال مخطوط الطبرى : « هذا الذي ذكره أبو جعفر من قتل قباد بالری وملكه « تبع » البلاد من بعد قتله ، من النقل القبيح والفلط الفاحش ، وفي ساده أشهر من أن يذكر ، فلو لا أننا شرطنا ألا نترك ترجمة من تاريخه إلا وتأتى بمعناها من غير إخلال بشيء لكان الاعراض عنه أولى » ثم يذكر أخطاء أخرى للطبرى في الخبر ذاته ويصححها ، ويعلق على كل خطأ بتعليق لاذع ، مثل قوله : « هذا مما تأباه العقول وتمجه الأسماع » و « لو فكر أبو جعفر في ذلك لاستحينا من نقله » و « وأعجب من هذا أنه قال » ثم ينهى ابن الأثير الخبر بقوله : « وهذا القدر كاف في كشف الخطأ فيه » .

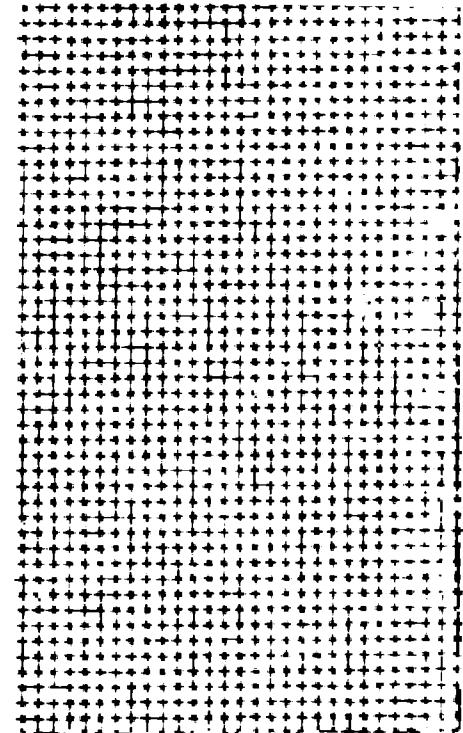
وفي كتابه « أسد الفابة في معرفة الصحابة » ينقد أصحاب مصادره الأساسية التي اعتمد عليها برغم اعجابه بهم وتقديره لعملهم وجهودهم التي بذلوها في كتبهم ، فهو يشيد بابن منده ، وأبي نعيم ، وأبن عبد البر ويدعو لهم بالخير ، « فتقد أحسنوا فيما جمعوا ، وبذلوا جهدهم » ، وبرغم هذا ، فإنه ينقد ابن منده وأبا نعيم لأنهما « قد أكثرا من « الحديث » ( في التراجم ) والكلام عليها ، وذكرا عللها ، ولم يكثرا من نسب الشخص

ولا ذكر شيء من أخباره وما يعرف به » مع أن « الأحاديث وعذلها وطرقها فهو بكتب الحديث أشبهه » ثم يتناولهم بالنقد في الترجم، فابن منه يعتبر « أبانا العبدى » غير « أبانا المحاربى » ، فيقول ابن الأثير « وهو وهم منه ، فان أبانا العبدى هو المحاربى » ، ويقول ابن عبد البر : « أن جعفى بن سعد العشيرة » وفد على النبي عليه الصلاة والسلام في وفد « جعف » ، فيقول ابن الأثير : « قلت ، وهذا اغرب ما يقوله عالم ، فان جعفى بن سعد العشيرة مات قبل النبي صلى الله عليه وسلم بدهر طويل » ؟ ويقول كل من ابن منه وأبى نعيم أن النبي أرسى جبار بن صخر ابن أمية مع جابر عينا له على المشركين ، فيقول ابن الأثير : « وليس كذلك ، انما بعثهما ليستقيا الماء كما ذكرناه في الحديث ، وهما أيضا ذكرًا ذلك في متن الحديث فنقضا على أنفسهما ما قالاه والله أعلم » .

وفي كتابه « الباب في تهذيب الأنساب » ، امتدح السمعانى مؤلف كتاب « الأنساب » الذى هذبه ، وأبدى اعجابه به ، وقدر مجده العلمى ، فالسمعانى قد أتى في كتابه « بما عجز عنـه الأوائل والأواخر » ، وأن الكتاب « فرد في فنه ، منقطع النظير في حسنه » ، ومع ذلك ، فإنه نقه فى أكثر من مناسبة ، فالسمعانى ينسب « البحرانى » إلى : البحر أو الجزائر أو استدامة ركوب البحار ، أو كان ملاح سفن ، فيعتبر ابن الأثير هذا التعريف خطأ ، فيقول : « قلت : قد تعسف السمعانى في هذه النسبة وخرج عن قاعدة النحوة ، فإنهم ينسبون إلى البحر : بحرى . وإنما البحرانى منسوب إلى البحرين » . ويختطىء السمعانى فيمن نسبته « الثورى » حيث يقول ، إن هذه النسبة إلى بطن من همدان وبطن من تميم . فيصف ابن الأثير السمعانى بالخلط : « وقد خلط في هذه الترجمة ، مما يدرى أي خثر أم يرب ، فمن تخليطه أنه جعل لتميم بطنا اسمه ثور ، وليس كذلك .. » . ومن

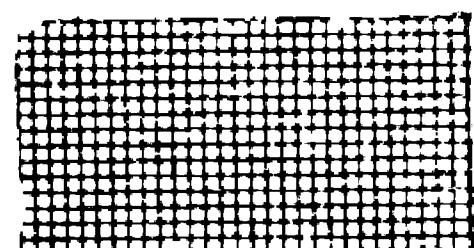
عباراته الناقدة للسمعاني أيضاً : « وهو من الخطأ الفاحش » فكيف خفى على مثله في علمه ومعرفته » و « هذا كلام من لا يعرف أصطلاح القوم » او « وهو تصحيف قبيح » .

- تلخيص الخبر : وقد عمد ابن الأثير إلى تلخيص الخبر المطول الذي ينقله من مصدره ، فيحذف منه المعلومات التي يرى أنها غير ضرورية بحسب تقديره ، ويكتفى باستخلاص المعلومات الأساسية التي يبني عليها الخبر . وقد استعمل هذا المنهج في مؤلفاته كثيرة . وقد وفق إلى حد كبير في تلخيص كثير من الأخبار ، ولكنه - في الوقت نفسه - لم يوفق في تلخيص بعضها أيضاً ، حيث حذف منها معلومات هامة تفيد القاريء والباحث في كل عصر فاضعف بذلك الخبر ، أعلاوة على أنه ترك أخباراً هامة لم ينقلها من مصادره ، وهذا التصرف من ابن الأثير قد يعزى إلى ضعف قدرته على اختيار الخبر و عن فهم قيمته وفائده ، وإلى ضعف ملكة التلخيص عنده ، وهذا ما نزه عنه ابن الأثير ، وتعليلنا لهذه الظاهرة أنه لم يقم وحده بجمع الأخبار ، وإنما استعان بمعاونين كلفهم بجمع بعض الأخبار من المصادر ، وفوضهم في الاختيار والتلخيص ، فلم يحسن المعاونون عملهم ، ولذلك فنحن نرجح أن الأخبار الهامة والملخصة تلخيصاً وافية هي من عمله هو ، وأن الأخبار المتروكة والملخصة تلخيصاً ناقصاً هي من عمل معاونيه ، لأن الأخبار المتروكة والملخصة تلخيصاً ناقصاً لا يمكن أن تفوت قيمتها على ابن الأثير .



## الفصل الرابع

# مؤلفات ابن الأثير



وكمما أن ابن الأثير مؤرخ ممتاز فإنه أيضاً مؤلف ممتاز ، ويشهد له منهجه في التأليف بذلك . وقد اكتسب ابن الأثير مميزاته في التأليف من استفادته من مناهج المؤرخين السابقين عليه ، ذلك أن ابن الأثير ظهر في عصر ، كانت صور الكتابة التاريخية فيه قد اكتملت على أيدي مؤرخين كبار ، ونهج كل مؤرخ في التأليف منهجاً يختلف عن منهج الآخر معايرة كبيرة أو صغيرة ، فأخذ ابن الأثير من كل منهج أحسن ما فيه ، ثم أضاف إليها من تجاربه وخبراته ، فأضاف بذلك مبادئ جديدة على ما أوجده السابقون . وتبرز ميزة كمؤلف ، أكثر ما تبرز ، في كتابه « الكامل في التاريخ » الذي سنعرف به بعد .

ومؤلفات ابن الأثير المعروفة كلها في التاريخ ، وهي :

١ - **الكامل في التاريخ** : وهو في التاريخ العام .

٢ - **التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية** ، وهو في تاريخ الدول (أو الأسر) .

٣ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة** : وهو في تراجم الصحابة .

٤ - **الباب في تهذيب الأنساب** : وهو في الأنساب .

وبذلك يكون ابن الأثير قد كتب في أربعة أنواع من الكتابة التاريخية ، وهى أنواع كانت معروفة قبل ابن الأثير . فالتاريخ العام يمثله كتاب « تاريخ الأمم والملوك » للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ؛ وتاريخ الدول (أو الأسر) يمثله كتاب « التاجى » لابراهيم بن هلال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ ، وهو في تاريخ أسرة بنى بويه ؛ وتراجم الصحابة تمثلها الكتب الرئيسية الأربع التى اعتمد عليها ابن الأثير فى تأليف كتابه « أسد الغابة » ؛ والأنساب يمثلها كتاب « الأنساب » للسمعانى المتوفى سنة ٥٦٤ ، والذى هذبه ابن الأثير باسم « الباب » . وإذا كان ابن الأثير لم يأت بجديد فى نوعية الكتابة التاريخية ، فإنه أتى بجديد فى الناحية الموضوعية . فكتاب « الكامل » يختلف عن كتاب الطبرى ، فى أن ابن الأثير جمع فيه أخبار العالم الإسلامى كله بأقاليمه المختلفة ، بينما أهمل الطبرى التأريخ لبعض الأقاليم فضلاً عن قلة الأخبار عن كل أقليم أرخه ، وأيضاً قلة المعلومات فى كثير من الأخبار . وكتاب « التاريخ الباهر » جيد أيضاً فى موضوعه ، بمعنى أنه لم يسبق ابن الأثير أحد فى الكتابة عن بنى زنكي كتابة شاملة منفردة . وكتاب « أسد الغابة » يعتبر كذلك جديداً باعتبار أن ابن الأثير جمع تراجم الصحابة من أربعة كتب هامة ، وأضاف إليها ما لم تذكره هذه الكتب من التراجم وصحح ما رأه خطأ فيها . وكتاب « الباب » يعتبر جديداً أيضاً باعتبار تهذيبه من الأخطاء التى وقع فيها السمعانى فى كتابه ، وبما أضافه من نسب أخرى لم يذكرها السمعانى .

وقد نسبت كتب أخرى لابن الأثير لا علاقة لها بالتاريخ ، ثبت لدينا خطأ نسبة بعضها إليه ولم تتحقق من صحة نسبة بعضها الآخر وإن كنا نرجح بطلان نسبتها إليه ، ذلك أن المؤرخين القدامى ومنهم المعاصرون لابن الأثير الذين أحصوا كتبه لم يذكروها ، وإنما الذي نسبها إليه هم المؤرخون المتأخرة ، مثل حاجي خليفة ، وأسماعيل سرهنوك وغيرهما .

فاما الكتب المثبتة خطأ نسبتها إليه :

- كتاب مختصر وفيات الأعيان .
- كتاب تحفة العجائب وظرفة الغرائب .
- كتاب المختار في مناقب الأخيار .

أما الكتب المشكوك في نسبتها إلى ابن الأثير :

- كتاب آداب السياسة .
- كتاب الجامع الكبير في علم البيان .
- كتاب الجهاد .

ونعرف بعد ذلك بكل كتاب من كتب ابن الأثير التاريخية .

### **أولاً : اللباب في تهذيب الأنساب**

اهتم المسلمون القدامى بالأنساب العربية اهتماماً كبيراً ، وذلك لعدة أسباب ، ذكرها مؤلفو كتب الأنساب .

ثم ظهرت كتب في الأنساب من نوع جديد ، لا تقتصر على النسب العربي وحده ، وإنما تشمل أيضاً النسبة إلى : الحرفة ، والعيوب الجسمية ، والمذهب ، والصناعة والبلد . والاهتمام بالنسب غير العربية يعني ضعف اهتمام المسلمين بالنسب العربي ، ويعزو حاجي خليفة هذا الضعف إلى « كثرة الشعوب غير العربية »

التي دخلت في الإسلام ، فاختلطت أنساب العرب بالأعجم ، فتعذر ضبطها بالأباء ، فانتسب كل مجهول النسب إلى بلده أو حرفته أو نحو ذلك ، حتى غلب هذا النوع ». أما « روزنثال » ، فإنه يعزى ضعف اهتمام المسلمين في التأليف في النسب العربي إلى اتساع رقعة العالم الإسلامي ، وظهور المؤلفات التاريخية الواسعة ، لذلك أصبحت كتب الأنساب « أداء غير ملائمة لكتابة تاريخ المدينة الإسلامية المعقدة ، ويرجع الفضل في اختفائها — بعد القرن التاسع الميلادي — إلى البحث العلمي الإسلامي ». ويفهم من قول روزنثال ، أن المسلمين كانوا يعتمدون في تدوين تاريخهم على كتب الأنساب حتى ما قبل القرن الثالث الهجري ، ولكنهم وجدوا بعد ذلك ، أن هذا النوع من الكتابة التاريخية لا يصلح للتاريخ أحذاث العالم الإسلامي الواسع الأرجاء ، فاستعملوا المطولات التاريخية في التاريخ ، وأهملوا التاريخ عن طريق الأنساب .

والاهتمام بالنسبة المنشورة بدأ — كما يبدو — في أواخر القرن الخامس الهجري أو ما قبله ، فهناك كتاب في النسب المنشورة ، ألفه أبو الفضل محمد بن طاهر بن على بن أحمد المقدسي المعروف بابن القيسراني المتوفى سنة ٥٠٧ ، وهو في النسبة إلى الأماكن والأجداد وغيرها ، ثم لدينا كتاب السمعانى المتوفى سنة ٥٦٢ ، ولعل السمعانى تأثر بابن القيسراني فأخرج كتابه على نسق كتابه ، وإن كان في مقدمة كتابه يذكر أن شيخه البسطامى هو الذى أشار عليه « نظم مجموع في الأنساب » ، وكل نسبة إلى قبيلة أو بطん أو ولاء أو بلدة أو قرية أو جد أو حرف أو لقب لبعض جداده ، فإن الأنساب لا تخلو عن واحد من هذه الأشياء » فشرع السمعانى في جمعه بمدينة سمرقند سنة ٥٥٠ هـ .

ويرجع اهتمام ابن الأثير بالتأليف في الأنساب — كما يقول في مقدمة كتابه — إلى قلة التأليف فيها حتى اندثر هذا العلم ،

برغم حاجة طالب العلم والأدب إليه ، حتى جهل الناس الأنساب ، بحيث كثيراً ما رأى «نسباً إلى قبيلة» ، أو بطن ، أو جد ، أو بلد ، أو صناعة ، أو مذهب أو غير ذلك ، وأكثرها مجهول عند العامة ، غير معلوم عند الخاصة ، فيقع «كثير من التصحيف» ، ويكثر الغلط والتحريف ». لذلك عزم على تأليف كتاب في الأنساب ، يجمع فيه كل هذه النسب ، فأخذ يبحث عما يفيده من مصنفات السابقين عليه ، فعثر على كتاب «الأنساب» للسمعاني (١) ، فحاجز اعجابه ونال رضاه ، لأنَّه وجد فيه ضالتَه المنشودة من حيث تصنيفه وترتيبه ومادته ، فقد جمَع السمعاني فيه – كما يقول ابن الأثير – الأنساب إلى القبائل والبطون : كالقرشى والهاشمى ؟ وإلى الآباء والأجداد كالسليمانى والعاصمى ؟ وإلى المذاهب فى الفروع والأصول : كالشافعى والحنفى والحنفى والأشعرى والشيعى والمعتزالى ؟ وإلى الامكنة : كالبغدادى والموصلى ؟ وإلى الصناعات : كالخياط والكمال والقصاب والبقال ؟ وذكر أيضاً الصفات والعيوب ، كالطويل والقصير ، والأعمش والضرير ؟ والألقاب : كجرة وكيلجة . ثم يقول : «فجاء الكتاب في غاية الملاحة ونهاية الجودة والفصاحة ، وقد أتى مصنفه بما عجز عنه الأوائل ولا يدركه الآخر ..» ثم يقول «فلما رأيته فرداً في فنه ، منقطع القرین في حسنه ، قلت : هذا موضع المثل ؟ أكرمت فارتبط ، وأمرعت فاختبط » ومن ثم ترك ما كان قد عزم عليه من تأليف كتاب في الأنساب واكتفى بكتابه نسخة من كتاب السمعانى ليحتفظ به لنفسه ، ولكن حين أمعن في مطالعته ، لاحظ في الكتاب بعض العيوب رأى ضرورة تهذيبه منها ، ومن ثم عزم على القيام بهذا

---

(١) هو عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزى ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ .

التهذيب ، وأخرج عزمه إلى حيز التنفيذ في صورة كتابه «الباب في تهذيب الأنساب».

كذلك ذكر في مقدمة الكتاب ، منهجه في النقل من السمعانى ، فقال : انه لم يلتزم بنص السمعانى في الترجمة ، وإنما أخذ معانى كلامه فيها ونقله لا يغير منها شيئاً ، حتى أنه إذا ذكر السمعانى الشيء على الشك ويعلمه ابن الأثير يقيناً ، فينقله ابن الأثير على الشك ثم يراجع فيه السمعانى ؟ ويدرك السمعانى الشيء متيقناً وابن الأثير يشك فيه فينقله ابن الأثير على يقينه ؟ ويدرك السمعانى في الترجمة إنساناً غيره أولى بالذكر - وربما كان هذا الإنسان معاصرًا لابن الأثير - فيترك ابن الأثير ما عنده عن هذا الشخص - ويدرك ما قاله السمعانى عنه . ويصرح أيضًا بأنه نقل جميع الترافق التي ذكرها السمعانى في كتابه لم يسقط ترجمة منها<sup>(١)</sup> ، الا أنه يختصر ترجمة السمعانى المطولة ، مثال ذلك إذا ذكر السمعانى في «النسبة» جماعة ممن ينتسبون إليها، فيقتصر ابن الأثير على ذكر شخص أو شخصين ، مثل النسبة إلى «الأسد» ، يقول ابن الأثير : « ولو أراد (السمعانى) أن يستقصى كلأسد لاحتاج إلى عدة مجلدات » ، ولأن ابن الأثير يرى «أن المقصود من النسب ليس تعداد الأشخاص إنما هو معرفة ما ينسب إليه لا غير » ، فلذلك اقتصر ابن الأثير «على الشخص أو الشخصين » .

(١) يلاحظ أنه يسقط من النسخة المطبوعة التي اعتمدنا عليها الثلاثة عشر فصلاً التي عقدها السمعانى كتمهيد لكتابه ، والفصول هي : فصل في الحديث على تعلم الأنساب ومعرفتها ، فصل في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصل في بنى هاشم ، فصل في نسب قريش ، فصل في نسب العرب وأصولهم ، فصل في نسب مصر ، فصل في العرب التي كانت باليمن ، فصل في نسب كهيلان وسبأ ، فصل في قضاعة ، فصل في نسب جماعة من القبائل المترفة وقبوها ، فصل في معرفة العرب بالأنساب وفيه ذكر عدة نسب من القبائل .

اما عيوب السمعانى التى ذكرها ابن الأثير ومنهجه فى تصويبها ، نذكر بعضها :

- أطال السمعانى او استقصى في الترجم حتي خرج عن حد الأنساب ، وأصبح كتابه أشبه بالتاريخ ، فجرد ابن الأثير الترجم من المعلومات ، واقتصر على اسم المنسوب وسنة مولده ووفاته - ان وجد - واسم الشيخ صاحب الترجمة والراوى عنه ان كان من العلماء .

- ويذكر السمعانى النسبة الى الأجداد والى الصفات او العيوب في خطط بينها ، فحدد ابن الأثير نسبة المنسوب الى جده ، فذكر كل « زيد » منسوب الى جده « عمرو » و « خالد » الى جده « عمرو » لأن « عمرو » جد « زيد » غير « عمرو » جد « خالد » وكذلك فعل في العيوب والصفات ، فان « زيد الأعمش » غير « عمرو الأعمش » ، وكذلك « زيد الطويل » غير « عمرو الطويل » .

- ويحدث أن يذكر السمعانى نسب المترجم الى بطن قبيلة . ولكن لا يصل نسب البطن الى قبيلته ، فرفع ابن الأثير النسب حتى أطلقه بالقبيلة .

- وفات السمعانى نسبا لم يذكرها ، فأضافها ابن الأثير وأشار الى اهمال السمعانى لها .

- وأخطأ السمعانى في تسمية المكان الواحد بأكثر من اسم ، فصحح ابن الأثير أخطاءه .

- وأخطأ أيضا في تعريف بعض الموضع ، مثل قوله ، ان افريقية « بلاد كبيرة معروفة من بلاد المغرب عند بلاد الأندلس » فصوب ابن الأثير خطأ السمعانى فقال : ان افريقية « اسم ولاية جميعها كالشام والعراق والجزيرة والأندلس وتحتوى على بلاد

كثيرة كانت قاعدتها وكرس مملكتها أولاً القيروان . . . » . وقد أبان ابن الأثير في هذا التصويب عن معرفة جغرافية صحيحة .

### مصادره :

وقد حرص ابن الأثير على أن يذكر أنه اعتمد عند تهذيب كتاب السمعانى على نسخة صحيحة موثوق بها منقوله عن نسخة المؤلف نفسه « وسموها الشيوخ بقراءة العلماء » ثم استعان بمصادر متخصصة لم يذكر منها في المقدمة سوى هشام الكلبى ، ويقول انه اعتمد عليه أكثر من غيره « لأنه أشهر علماء النسب وأحفظهم له وأقلهم وهما » وابن الأثير يعني أنه اعتمد على هشام في تراجم الأشخاص حتى عصره ( توفي ابن هشام سنة ٢٠٤ ) ، والا فان السمعانى ترجم أشخاصاً معاصرين له ، بل ان السمعانى ترجم لنفسه . أما مصادر ابن الأثير الأخرى فقد ذكرها خلال التراجم ، ولكن لم يسمها بأسمائها ، وإنما ذكرها باسم الشهرة لمؤلفينها ، فيما عدا « الحميدى » فإنه ذكر اسم كتابه « تاريخ الأندلس » وابن عساكر وذكر اسم كتابه « تاريخ دمشق » ، وأما غيرهما فقد رجع إلى كل من : خليفة بن خياط ( توفي سنة ٢٤٠ هـ ) وأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادى ( توفي سنة ٢٢٤ هـ ) وابن ماكولا ( توفي سنة ٤٨٧ هـ ) والدارقطنى ( توفي سنة ٣٨٥ هـ ) ومورج السدوسي ( توفي سنة ٣٨٤ هـ ) . وابن حبيب ( توفي سنة ٣٤٥ هـ ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى ( توفي سنة ٢١٠ هـ ) وغيرهم .

### تقييم الكتاب :

وقد حظى الكتاب باهتمام القدامى من المتخصصين فتناولوه بالمدح والنقد ، فممن نوه به ومدحه ، القاضى ابن خلakan - في كتابه وفيات الأعيان - ، فقال في ترجمته لابن الأثير : « واختصر كتاب الأنساب لأبي سعد عبد الكريم السمعانى واستدرك عليه

في مواضع ونبه على أغلاظ ، وزاد أشياء أهملها . وهو كتاب مفيد جدا ، وأكثر ما يوجد اليوم بآيدي الناس هذا المختصر ، وهو في ثلاثة مجلدات — والأصل في ثمان وهو عزيز الوجود ، ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب — ولم يصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور » .

وقد استفاد ابن حجر من الكتاب في بعض مؤلفاته ، وقد ذكره في ثبت مراجعه المسما « المعجم المفهرس » — في الباب الثالث منه في « فنون الحديث » — فقال : انه رجع الى « الأنساب » لأبي الحسن بن الأثير ، وهو مختصر كتاب السمعانى او زاد عليه » .

أما السيوطى ؛ فقد تناول الكتاب بالنقד ؛ ووجه إليه مأخذ دعته إلى تقييحة وتهذيبه وآخر اوجه في كتاب جديد من عمله سماه « لب الباب في تحرير الأنساب » . وقد ذكر السيوطى في مقدمة كتابه المأخذ الذى أخذها على ابن الأثير ، فقال : « هذا ما اشتدت إليه حاجة المحدث الليب من مختصر في الأنساب ، واف بالمقصود كاف عن التطلب ، خال عن التطويل مما يخرج عن ذا الباب ، نتحت فيه « الباب » لابن الأثير ، واستوفيت ضبط الفاظه مع مزيد عليه كثير ، وتتبعت فيه أشياء أهملها ، واستدركـت الفاظا أغفلها » . وهكذا نرى أن مأخذ السيوطى على الكتاب ، هي بعض مأخذ ابن الأثير على السمعانى . وقد اقتصر السيوطى في تهذيبه ، على ذكر النسبة وتعريفها ، دون أن يذكر أحدا من المشهورين بها ، مثال ذلك ، ذكر من نسبته « الطهرانى » هكذا : ( الطهرانى : بالكسر والسكون والراء ، نسبة إلى طهران ، قرية بأصبهان وبالرى أيضا ) . بينما ذكر ابن الأثير هذه النسبة وعرفها ، وذكر بعض المشهورين بها . والنسبة التي زادها السيوطى على ابن الأثير كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ، النسبة إلى سلوق ، فقال : ( السلوقي : إلى سلوق . قرية باليمن ، إليها الدروع والكلاب ) .

كذلك لشخص القاضي قطب الدين محمد بن محمد الحبستر الشافعى المتوفى سنة ٨٩٤ ، كتاب « الأنساب » للسمعانى ، وضم إليه ما عند ابن الأثير والرشاطى وغيرهما من الزيادات وسماه « الاكتساب » .

ونحن نرى ، أن كلا من السمعانى وابن الأثير خرج عن موضوع الكتاب ما دام الفرض من التأليف في الأنساب المتنوعة ، هو التعريف بالنسبة فقط . أما اخراجهما الكتابين بصورتهما الحالية ، فانهما لم يزيدا على هذا الفرض من ناحية ، وليس فيهما الفائدة التامة من ناحية أخرى ، لأن ذكر شخص أو شخصين لكل نسبة ليس كافيا ، لأنه توجد عشرات الشخصيات المشهورة التي تحمل نفس النسبة ، وكان الأوقع أن يقتصرا على التعريف بالنسبة كما فعل السيوطى ، وكان الأجدر بابن الأثير أن يتبع هذا المنهج ، وخاصة أنه يتفق مفهومه ومفهوم السيوطى ، وقد حدد ابن الأثير مفهومه في اعتراضه على السمعانى اطالته في الترجمة ، فقال : « إن الفرض ليس تعداد الأشخاص ، وإنما هو معرفة ما ينسب إليه لا غير » .

أما إذا عقدنا مقارنة تفصيل بين كتابى السمعانى وابن الأثير ، من حيث الفائدة للمهتمين بترجمات الأشخاص من الباحثين المحدثين ، فلا شك في أن كتاب السمعانى يفضل كتاب ابن الأثير من حيث وفرة المادة الخبرية التي غذى بها السمعانى ترجمته ، والتي تمد الباحث بالمعلومات التي يهمه أن يجدها أينما وجدت وفي أي كتاب كانت ، مثل ترجمته لنظام الملك ، وزير السلطان ملكشاه والسلجوقي ، فقد ذكر أصله ونشأته وتقلبه في الوظائف حتى دخل في خدمة ملكشاه وأصبح وزيرًا له ؛ بينما جرد ابن الأثير الشخصيات من المعلومات ، واقتصر على اسم الشخص وبعض من روى عنهم ورووا عنه وسنته وفاته ، دون ذكر أية معلومات

عنه ، ومع ذلك فان قيمة كتاب ابن الأثير ترجع الى النسب التي أضافها الى نسب السمعاتى ، والى تصويب أخطائه .

وهناك ملاحظة جديرة بالتسجيل ، وهى ، أن في نهاية النسخة المطبوعة لكتاب « الباب » والتى استعملناها في هذه الدراسة ، ما نصه من كلام ابن الأثير : « .. وهذا ما أردنا تهذيبه من كتاب النسب ، وقد أتينا على آخره حسبما شرطنا ، و كنت عازما على استقصاء ما فاته ، فاتفق أن الكتاب نسخ وسار في البلاد فلم أرد أن أفسده ، فاقتصرت على هذا القدر . ثم ان فسح الله في العمر ، ووفق للعمل ، أجمع كتابا ذيلا عليه وأضيف إليه من الأنساب ما حدث بعده ، وأجعله كتابا منفردا ان شاء الله تعالى » . ومعنى هذا ، أن هذه الاشارة كتبها ابن الأثير على نسخته الخاصة بعد أن انتشر كتابه بين أيدي الناس ، وعلى ذلك ، فان هذه الاشارة لا توجد الا في نسخة ابن الأثير الخاصة ، وأن كل نسخة عليها هذه الاشارة انما تكون منقوله عن نسخته .

### ثانياً : أسد الغابة في معرفة الصحابة

والصحابة هم الذين أسلمو - رجالاً ونساء - في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، على اختلاف بين القدامى في التعريف المحدد للصحابى ، أى فيمن يطلق عليه اسم الصحبة .

وقد اهتم المسلمون بالتأليف لاصحابة منذ عهد مبكر ، وكان المفسرون والمحدثون هم أول من اهتموا بسيرهم باعتبارهم أول رواة حديث النبي ، والمصدر الأول لأحداث عصر الرسول ومن ثم كان الاهتمام في التأليف في تراجمهم ، ثم انضاف سبب آخر بعد ذلك للاستمرار في التأليف عنهم ، هو اعتبار سيرهم سبل هداية يجب أن يقتدى بهم المسلمون .

### وتراجم الصحابة ضرورية للمهتمين بدراسة الصدر الأول

من التاريخ الإسلامي من المحدثين باعتبارهم المصدر الأول للأحداث هذه الفترة ، ولأن سيرتهم مادة دسمة للتاريخ نفتقد لها في كتب التاريخ العام وغيره من التواريخ ، ذلك لأن سيرة الصحابي - وهي حياته الخاصة وال العامة - تشتمل على معلومات هامة عن الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شارك فيها ، وهذه المعلومات تفتقد لها كتب التاريخ الأخرى كالتاريخ العام بسبب المنهج الذي يلتزم به المؤرخ وهو الإيجاز في السرد أو تجنب التفاصيل الكثيرة ، فإذا تعرض المؤرخ للصحابة في كتابه ، فإنه يقتصر على الصحابي الذي شارك في السرايا والغزوات مع النبي فيذكر دوره فيها ، أما حياته الخاصة فلا يعني بها ، برغم ما فيها من معلومات هامة تفيد في النواحي التي أشرنا إليها . أما مؤلف تراجم الصحابة ، فإنه يعني بالصحابية جميعا سواء الذين اشتراكوا في السرايا والغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم أو لم يشتركوا فيها ، فمن سير الصحابة تجمع أخبار العصر الذي عاشوا فيه ، وهكذا تسد مؤلفات تراجم الصحابة النقص الذي يشوب كتب التاريخ الأخرى ومنها كتب التاريخ العام . ودليل هذا ما نجد في كثير من التراجم ، ومنها - على سبيل المثال - ترجمة خديجة بنت الزبير بن العوام - فلم ترد الترجمة إلا في كتب تراجم الصحابة - فقد جاء في كتاب الاصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر قصة عن أمها أسماء بنت أبي بكر . قالت أسماء : « كنت مرة في أرض أقطعها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولنا جار من اليهود ، فذبح شاة فطبخت ، فوجدت ريحها فدخلني ما لم يدخلني شيء قط - وأنا حامل بابنتي خديجة - فلم أصبر ، فانطقت فدخلت على امرأة يهودي أقتبس منها نارا لعلها تطعمني - وما بي حاجة إلى النار - فلما شمت الريح ورأيته أزدلت شرها ، فأطفيته ( أي أطفأت النار ) ثم جئت ثانية أقتبس ثم ثالثة ، ثم قعدت أبكي وأدعوا الله ، فجاء زوج اليهودية فقال

( لزوجته ) : أدخل عليكم أحد ؟ قالت ، العربية تقتبس نارا . قال : فلا آكل منها أبدا أو ترسلي اليها منها ، فأرسل الى بقدحه - يعني غرفة - فلم يكن شيء في الأرض أعجب الى من تلك الأكلة » . وهذه القصة تعطينا فكرة واضحة عن المجتمع الاسلامي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلاقة طوائفه المختلفة بعضها ببعض ، وكيف كان حسن الجوار سائدا بين المسلمين واليهود برغم الصراع الخفي والظاهر الدائر بينهم .

ومثال آخر يوضح لنا ما كان عليه المجتمع الاسلامي في عصر النبي صلى الله عليه وسلم حيث يترجم ابن حجر أيضا لزينب الانصارية المفنية فيذكر في ترجمتها أن أحد الانصار تزوج احدى قريبات السيدة عائشة ، فآهادتها السيدة عائشة قباء ، فسألها النبي صلى الله عليه وسلم : « أهديت عروسك ؟ » قالت : نعم . قال : « فأرسلت معها بفناء فان الانصار يحبونه ؟ » قالت : لا . قال : « فأدركها بزينب » ، وزينب امرأة كانت تفني بالمدينة .

ومثال ثالث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ترجمة الزبير بن العوام ، فقد جاء في ترجمته في « أسد الغابة » ، انه « كان للزبير ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، مما يدخل الى بيته منها درهما واحدا ، كان يتصدق بذلك كله » . وجاء في ترجمته في كتاب « الاستيعاب » : « وكان الزبير تاجرا محدودا في التجارة . وقيل له يوما : بهم أدركت في التجارة ما أدركت ؟ فقال : لأنى لم أشتري غبنا ، ولم أرد ربحا ، والله يبارك من يشاء » .

فما ذكره ابن الأثير عن الزبير يصور التكافل الاجتماعي والموازنة

يدين الفتنى والفقر فى الفصر الاسلامى المبكر ، وما ذكره ابن عبد البر يصور النشاط الاقتصادى والحركة التجارية لنفس الفصر ، بالإضافة الى الدرس الأخلاقى الذى يقدمه الزبير للأغنياء من المسلمين ببر الفقراء ، وللتجار المسلمين باتباع الأمانة فى تجارتهم يبعا وشراء ، ونخرج من هذه الأمثلة ، بأن كتب تراجم الصحابة لا يمكن الاستفادة عنها لدارسى الصدر الأول للإسلام من جوانبه المختلفة .

### ضرورة معرفة المسلمين للصحابية :

ويرى ابن الأثير أن معرفة الصحابة ضرورية للمسلمين ، لأن « معرفتهم او معرفة أمورهم وأحوالهم وأنسابهم وسيرتهم مهم في الدين » ، لأن « السنة التي عليها مدار تفصيل الأحكام ومعرفة الحلال والحرام إلى غير ذلك من أمور الدين ، إنما ثبتت بعد معرفة رجال أسانيدها ورواتها ، وأولئم والمقدم عليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا جهلهم الإنسان كان بغيرهم أشد جهلا وأعظم انكارا ، فينبغي أن يعرفوا بأنسابهم وأحوالهم هم وغيرهم من الرواية ، حتى يصح العمل بما رواه الثقات منهم ، وتقوم به الحججة ، فإن المجهول لا تصح روایته ، ولا ينبغي العمل بما رواه ». فالضرورة عند ابن الأثير ، ضرورة تحتاج إليها طبقة خاصة من الناس ، هم المفسرون والمحدثون ليطمئنوا على صحة الرواية أو الحديث الذي يكون مصدرها الصحابي ، وهذه الضرورة – كما سبق أن قلنا – احتاج لها المفسرون والمحدثون الأوائل ، فابن الأثير ظل يحصر الضرورة في هذا النطاق برغم ظهور مؤلفات كثيرة قبله ، عرفت المفسرين والمحدثين بالصحابية تعريفا واسعا ، وقد تنبه لهذا مؤلفو تراجم ظهروا قبل ابن الأثير ، فوجهوا اهتمامهم للتاليف في تراجم الصحابة باعتبار سيرهم مثلا طيبة يجب أن يقتدى بها المسلمون ، ومن هؤلاء المؤلفين

— على سبيل المثال — ابن عبد البر القرطبي — صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وكتابه أحد مصادر ابن الأثير الرئيسية — حيث يقول : « ونحن — وان كان الصحابة رضي الله عنهم قد كفينا البحث عن أحوالهم لاجماع أهل الحق من المسلمين ، وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول — فواجب الوقوف على أسمائهم والبحث عن سيرهم وأحوالهم ليهتدى بهديهم ، فهم خير من سلك سبيلهم ، واقتدى بهم » . فالهدف من معرفة الصحابة عند ابن عبد البر ، أوقع من هدف ابن الأثير من حيث الفائدة العامة من معرفتهم .

### تعريف ابن الأثير للصحابي :

وقد اختلف المؤرخون القدماء في تعريف الصحابي ، فسعيد بن المسيب يقول : ان الصحابي ، هو الذى « أقام مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين » ؟ والواقدى يعرفه بأنه « كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أدرك الحلم فأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا من صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار ، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقديرهم في الإسلام » ؟ أما الإمام ابن حنبل ، فإنه يقول : ان الصحابي هو « كل من صحبه شهراً أو يوماً أو ساعة أو رأه » ؟ وأما الصحابي عند البخاري ، هو « من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رأه من المسلمين فهو من الصحابة » ؟ وأما عند الفزالي ، فهو « من حيث الوضع ، الصحبة ولو ساعة ، ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته » ؟ وبهذا التعريف تقريراً يأخذ ابن الأثير الذي يرى أن الصحابي هو الذى كان وثيق الصلة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول بعد أن استعرض التعريف السابقة : « قلت : وأصحاب رسول الله — صلى الله

عليه وسلم - على ما شرطوه كثيرون ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد حنينا و معه اثنا عشر ألفا سوی الأتباع والنساء، وجاء اليه هؤازن مسامين فاستنقذوا حر يهم وأولادهم . وترك مكة مملوءة ناسا وكذلك المدينة أيضا ، وكل من اجتاز به من قبائل العرب كانوا مسلمين ، فهو لاء كلهم لهم صحبة ، وقد شهد معه « تبوك » من الخلق الكثير ما لا يحصيهم ديوان ، وكذلك حجة الوداع وكلهم له صحبة ولم يذكروا ( اي مؤلفو التراجم ) الا هذا القدر ، مع ان كثيرا منهم ليست لهم صحبة ، وقد ذكر الشخص الواحد في عدة تراجم ولكنهم معدورون ، فان لم يرو ولا يأتي ذكره في رواية ، كيف السبيل الى معرفته ؟ ». فالصحابي عند ابن الأثير ، هو الذي صحب النبي صلى الله عليه وسلم مدة طويلة ، سواء غزا معه او لم يغز ، او روى عنه او لم يرو .

كذلك يستنكر ابن الأثير صحبة المرتد ، وهو يعترض على مؤلفي التراجم اعتبارهم « اكيدر بن عبد الله » من الصحابة ب رغم انهم يقولون ، انه أسلم ثم ارتد ، فيقول ابن الأثير : « والا فيذكر كل من أسلم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد ». كذلك يرفض اعتبار ( الجن المسلمين ) من الصحابة ، وقد سبب انكاره صحبة الجن تقدا عليه من ابن حجر العسقلاني كما سيأتي .

### **سبب تأليف الكتاب :**

وسبب تأليف الكتاب - كما يقول ابن الأثير - ان كثيرا من الناس قد جمعوا في أسماء الصحابة كتابا كثيرة ، وأن منهم من ذكر كثيرا من أسمائهم في كتب الأنساب والمغازي وغيرها ، وأن كلها منهم « اختلف مقصده من ذكرهم عن الآخر » ولكنها ميز منها خمسة كتب - لم يسمها وإنما سمي أصحابها - وهم :

الحافظ أبو عبد الله محمد بن مندة الأصفهانى ، والامام أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي ، والحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر ابن أبي عيسى الأصفهانى ، وأبو الحسين بن محمد الجياني الفساني . وقد شاد ابن الأثير بابن مندة وأبى نعيم وابن عبد البر اشادة خاصة ودعا لهم بالخير ، فلقد أحسنوا فيما جمعوا ، وبذلوا جهدهم » ولكن برغم هذا الاعجاب الخاص بهم وتنويعه بالآخرين ، فإنه وجد في كتبهم جميعاً مأخذ ، فقد رأى أن ابن مندة وأبى نعيم وأبى موسى « عندهم أسماء ليست عند ابن عبد البر ، وعند ابن عبد البر أسماء ليست عندهم » ، كذلك رأى أن ابن مندة وأبى نعيم « قد أكثرا من الأحاديث والكلام عليها ، وذكرا عللها ولم يكثرا من ذكر نسب الشخص ولا ذكر شيء من أخباره وما يعرف به » مع أن الأحاديث وعللها وطرقها « فهو بكتب الحديث أشبهه » لذلك عزم على تأليف كتاب في تراجم الصحابة ، يجمع فيه تراجم الكتب الخمسة على أن يجرد تراجم ابن مندة وأبى نعيم مما فيها من الأحاديث الكثيرة ، ولكنه توقف عما عزم عليه لأن « كانت العوائق تمنع ، والأعذار تصد عنه .. فلم يتيسر ذلك لصراع الدنيا وشواغلها » . هذا ما كان من أمر عزمه على تأليف الكتاب ثم توقفه عن تأليفه . أما عن الظروف التي اضطرته إلى تأليفه بعد ذلك ، فإنه يقول ، إنه في أحدى سفرياته إلى الشام لزيارة بيت المقدس - ولم يذكر متى كان ذلك - اجتمع عليه « جماعة من أعيان المحدثين ، وممن يعتنى بالحفظ والاتقان » وقالوا له : « إننا نرى كثيراً من العلماء الذين جمعوا أسماء الصحابة يختلفون في النسب والصحبة والمشاهد التي شهدتها الصاحب ، إلى غير ذلك من أحوال الشخص ولا نعرف الحق فيه » ثم حثوا عزمه على جمع كتاب لهم في أسماء الصحابة ، يستقصى فيه ما وصل إليه من أسمائهم ويبيان الحق فيما اختلف فيه المؤرخون السابقون عليه ، ولكنه اعتذر لهم

— كما يقول — « بتعذر وصولى الى كتبى وأصولى ، واننى بعيد الدار عنها ولا ارى النقل الا منها » ولكنهم أحوالا عليه فى الطلب فاستجاب لهم ، وأخذ يجمع مادة الكتاب من جماعة كانوا قد سمعوا عليه فى الموصل ثم ساروا الى الشام ، يقول : « واتفق أن جماعة كانوا قد سمعوا على أشياء بالموصل وساروا الى الشام فنقلت منها أحاديث مسندة وغير ذلك » ثم يقول : « ثم اننى عدت الى الوطن بعد الفراغ منه ، وأردت أن أذكر الأسانيد وأخرج الأحاديث التى فيه بأسانيدها » فرأيت ذلك متعبا ، احتاج أن أنقض كل ما جمعت ، فحملتى الكسل وحب الدعة والميل الى الراحة الى أن نقلت ما تدعو الضرورة اليه ، مما لا يخل بترتيب ولا يكثرا الى حد الاضمار والاملال » . ومبالفة ابن الأثير فى تأليف كتابه فى الشام ممن سمع عليه فقط واضحة ، لأن نقله ممن سمع عليه — مهما كان كثيرا — لا يكفى لجمع مادة كتاب ضخم ، ويركز المبالغة المصادر المتنوعة التى رجع اليها والتى ذكرها فى كل ترجمة ، واننا نرى أن ابن الأثير كان قد بدأ فى تأليف الكتاب فى الموصل وجمع أكثر مادته قبل سفره الى الشام ، ثم حمله معه عندما سافر اليها لكي يستكمله أو يراجع ما جمعه فأهمله ، فلما طلب منه أصحابه تأليف كتاب فى تراجم الصحابة تحمس لاخراجه . وقد أراد ابن الأثير بما ذكره من ظروف اخراج الكتاب تزكية نفسه ، أسوة بالسابقين عليه ، فكثير من العلماء ، ومنهم المؤرخون ، يصنفون نفس السبب الذى ذكره ابن الأثير فى مصنفاتهم ، نذكر منهم على سبيل المثال : الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ صاحب كتاب « جذوة المقتبس فى ذكر ولادة الأندلس » ، فإنه يذكر فى مقدمة الكتاب ، أنه ألفه فى بغداد — في احدى زياراته لها — بطلب من أصحابه ، بالرغم من بعده عن كتبه ومصادره . ويبدو أن انتقال هذا السبب أصبح تقليدا جاريا عند العلماء لا يجدون فيه غضاضة .

## مصادره :

والكتب الخمسة التي اعتمد عليها أساساً ، هي :

١ - كتاب معرفة الصحابة عليهم السلام : لابن مندة الأصفهانى .

٢ - كتاب معرفة الصحابة : لأبي نعيم الأصفهانى .

٣ - كتاب معرفة الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لابن عبد البر القرطبي .

٤ - كتاب تقييد المهمل وتمييز المشكل في رجال الصحيحين : لأبي على الغساني .

٥ - أما كتاب أبي موسى فلم تقف على اسمه ، وهو ذيل على كتاب ابن مندة ، كما يذكر حاجى خليفة . أما مصادره المساعدة فقد زادت على ثلاثة كتاباً ، منها ما ذكره في فصل خاص ، ومنها ما ذكره في التراجم ، وهى في التفسير ، والحديث ، والطبقات ، والتاريخ ، واللغة ، والأنساب ، والفتوح (١) ، فممن ذكرهم من مصادره ، في التراجم : البلاذري ، وهشام الكلبى ، وابن الدباغ الأندلسى ، والعدوى ، وابن ماكولا ، والمدائنى ، وأبو أحمد العسكرى ، وأبو القاسم بن عساeker ، والدارقطنى ، وعبد الفتى ، والطبرى ، والقاضى أبو أحمد ، وسيف ( كتاب الفتوح ) والأثيرى ، كما رجع الى كتابه « الكامل في التاريخ » . كذلك استعمل سمعااته من شيوخه ، وقد استعمل المصادر المساعدة ،

(١) جمع ابن الأثير ، كتب التفسير والحديث في فصل خاص ، وأما المصادر التي ذكرها في التراجم ، فقد ذكر أسماء مؤلفيهما فقط ، ومنهم النسابون كالبلاذرى ، والترجمون كابن عساeker ، واللغويون كابن ماكولا .

لتصحيح أخطاء مصادره الرئيسية ولإضافة معلومات جديدة على معلوماتهم في الترجمة التي ينقلها عنهم كذلك ، ولإضافة ترجم كاملة لم يذكروها . وتدل هذه المصادر الكثيرة المنوعة التي رجع إليها ابن الأثير على حرصه على إخراج كتاب في ترجم الصحابة يفوق ما سبقه من الكتب ، من حيث الدقة ، ومن حيث استكمال الترجم .

### منهجه في النقل :

وقد حدد ابن الأثير منهجه في النقل من مصادره الرئيسية في مقدمة كتابه ، فقال : انه نقل جميع الترجم الموجودة فيها . فيما عدا الترجم المكررة في كل كتاب ، فلم يترك ترجمة منها . حتى الترجمة المغلوطة فإنه ينقلها ثم يصحح خطأها ، قال : « ولم أخل بترجمة واحدة من كتبهم جمیعا ، بل أذكر الجميع حتى أني أخرج الفاط كما ذكره المخرج له وأبين الحق والصواب فيه ان علمته ، الا أن يكون أحدهم قد أعاد الترجمة بعينها فأتركها وأذكر ترجمة واحدة » . كذلك حذف بعض الأحاديث « والكلام عليها وعلالها » من الترجم التي نقلها من ابن مندة وأبي نعيم .  
وأما الترجمة ذاتها فإنه يكونها من المعلومات الواردة في مصادره ، يأخذ من كل مصدر المعلومات التي لا توجد في غيره ، ويؤلف منها الترجمة ، ليس هذا فقط وإنما يضيف إليها أيضاً معلومات أخرى من المصادر المساعدة ، وهكذا يخرج الترجمة وافية المعلومات .

### ميزات ابن الأثير :

وقد عمل ابن الأثير على تيسير القراءة لقراء كتابه ، وذلك بأنه :

- رتب الترجم على حروف الهجائية ، وبذلك يسهل على القارئ أو الباحث استخراج اسم الشخص بحسب الحرف الهجائي الذي يبدأ به اسمه .

- وضبط بالحروف الأسماء المشابهة في الرسم المختلفة في النطق لئلا تلتبس على القارئ ، فمثلاً ، الاسم « سليمة » - في الانصار - ( بكسر اللام ) ، والسبة اليه « سلمى » ( بفتح اللام والسين ) .

- وشرح الألفاظ الصعبة التي ترد في بعض الترجم ، مثال ذلك ، ما ورد في ترجمة « حذيفة بن اليمان » ، أن حذيفة قال : « حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام نومة فتقبض الأمانة فيظل أثرها من أثر المجل كجمير دحرجته على رجلك فنفطرت فتراه منبترًا وليس فيه شيء . . . » وفي نهاية الترجمة ، شرح ابن الأثير الألفاظ الغريبة الواردة فيها ، هكذا :

الجذر : الأصل . وجذر كل شيء أصله ( وتفتح الجيم وتنكسر ) .

المجل : يقال : مجلت يده تمجل ميلاً ، ومجلت تمجل ميلاً ، اذا سخن جلدها وتعجر حتى يظل أثرها مثل المجل .

المنبتر المنتفط : المرتفع ، وكل شيء رفع شيئاً فقد نبره .

الوكت : الأثر اليسير ، وجمعه : وكت ( بالتحريك ) . وقيل للبس اذا وقعت فيه نكتة من الارطاب فقد وكت ( بالتشديد ) .

وشرح ابن الأثير للألفاظ الصعبة الواردہ في الأحادیث لفتة صائبة منه ، حيث يسر الشرح للقارئ فهم الحديث ، وقد غاب عن مؤلفى مصادر ابن الأثير الرئيسية ما تنبه هو اليه .

### تصویب أخطاء مصادره :

وقد قام ابن الأثير بتصحیح الأخطاء التي رأی أن مصادره الرئيسية قد وقعت فيها ، وطريقته في التصویب أنه يذكر الخطأ كما جاء في المصدر ثم يصححه ، وقد ذكرنا بعض الأمثلة لتصویباته في حديثنا عن نقده لأصحاب مصادره .

### بعض المآخذ :

وبرغم مميزات ابن الأثير وجهوده في اخراج الكتاب اخراجا طيبا ، فإن هناك بعض المآخذ التي لا يخلو منها أي كتاب قديم ، نذكر أهمها :

— يؤخذ على ابن الأثير أنه اقتفى أثر مصادره : ابن مندة ، وأبي نعيم ، وأبي موسى ، فنقل منهم الأشخاص الذين روی كل منهم عن أبيه وعن أخيه وجده وخاله وعمه ، وإن كان الراوى ومن يروی عنهم مجهولين ، مثل : ( رجل من بلی عن أبيه ، قال : . . . ) و ( رجل من أهل الشام عن أبيه ، قال : . . . ) ثم يذكر الحديث الذي رواه الرجل الذي من بلی والرجل الذي من الشام ، دون أن يذكر شيئاً عن الرجلين ، أو ابن الأثير يختلف في هذا مع نفسه حيث يقول أن الفرض من الترجمة هو معرفة الصحابي راوی الحديث للاطمئنان على صحة الحديث .

— وما يؤخذ عليه أيضاً ، أنه ذكر في مقدمة كتابه ، انه اذا كرر أحد مصادره الرئيسية ترجمة الشخص ، فإنه ينقل ترجمة واحدة ، وينبه الى أنه قد أخرجها فلان في موضوعين من كتابه ،

وإذا كان ابن الأثير قد أسقط التكرار للترجمة ، إلا أنه فعل ما يشبه التكرار أيضا ، ذلك أنه ترجم بعض الأشخاص مرتين ، مرة باسمه ومرة أخرى بكتابته في فصل «الكتاب» ، ويذكر في كل ترجمة معلومات لا توجد في الترجمة الأخرى . مثال ذلك ترجمته من اسمه «جندب بن جنادة بن سفيان» وهو أبو ذر الغفارى الصحابى المشهور ، فترجمه ابن الأثير باسمه ترجمة طويلة ، ثم قال في نهايتها «وسنذكر باقى أخباره في الكتاب ان شاء الله تعالى» ، وقد ذكر ابن الأثير فعلا ترجمة أخرى لأبى ذر في فصل «الكتاب» ، وفي كل من الترجمتين معلومات لا توجد في الأخرى ، وكان الأجدر به أن يجمع الترجمتين في ترجمة واحدة باسمه كاملا ، ثم يذكره في فصل «الكتاب» ويشير إلى أنه ترجمه باسمه كاملا في حرف (الجيم) .

### **مكانة الكتاب عند المؤرخين القدامى :**

وقد استقبل المؤرخون القدامى الكتاب بين المدح والنقد . فقال ابن خلkan في ترجمته لابن الأثير : «وله كتاب أخبار الصحابة - رضوان الله عليهم - في ست مجلدات كبار» . وقال ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» أن ابن الأثير «صنف كتابا حافلا في معرفة الصحابة ، جمع فيه كتاب ابن مندة ، وكتاب أبي نعيم ، وكتاب ابن عبد البر ، وكتاب أبي موسى ، وزاد وأفاد ، وسماه أسد الغابة في معرفة الصحابة» . وأما الذهبي ، فإنه برغم اعجابه بالكتاب ، إلا أنه وجد فيه اطالة فاختصره وأخرجه في كتاب سماه «تجريد أسماء الصحابة» ، وقال في مقدمته : «وبعد ؟ فهذا تجريد أسماء الصحابة ، مختصر أسد الغابة الذي صنفه العلامة عز الدين أبو الحسن على بن أثير الدين محمد بن محمد ابن عبد الكريم الجزارى - رحمه الله ورضي عنه - فإنه كتاب نفيس مستقصى لأسماء الصحابة - رضي الله عنهم - الذين ذكروا في

الكتب الأربع المصنفة في معرفة الصحابة : كتاب أبي عبد الله بن مندة ، وكتاب أبي نعيم ، وكتاب أبي موسى الأصبهانيين – وهو ذيل على كتاب ابن مندة – وكتاب أبي عمر بن عبد البر ، وما زاده أيضاً المصنف عز الدين ». وقد جرد الذهبى تراجم ابن الأثير من المعلومات ، وان كان أضاف شخصيات أخرى لم يذكرها ابن الأثير ، الا أن كتاب ابن الأثير يفضل كتاب الذهبى وأكثر منه فائدة للأبحاث والقارئ ، لتغذية ابن الأثير الشخصيات بالمعلومات المفيدة .

وأما ابن حجر العسقلانى ، فبالرغم من أنه استعان بكتاب ابن الأثير عند تأليف كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » ، فإنه جرّه وجّرّح كتابه في مقدمة كتابه – في معرض ذكره أسماء من ألف في تراجم الصحابة قبله حتى وصل إلى ابن الأثير ، فقال : « .. إلى أن كان في أوائل القرن السابع ، فجمع عز الدين بن الأثير كتاباً حافلاً سماه « أسد الغابة » وجمع فيه كثيراً من التصانيف المتقدمة ، الا أنه تبع من قبله ، فخالط من ليس صحابياً بهم ، وأغفل كثيراً من التنبيه على كثير من الأوهام الواقعة في كتبهم ». كذلك أخذ عليه انكاره صحبة الجن ، كما أخذ عليه الأخطاء التي وقع فيها في بعض التراجم ، فقد انكر على ابن الأثير اعتباره « أزهر بن قيس » صحابياً ، فقال ابن حجر : « وهو وهم لم يتشبه له أحد فيما علمت ». وأنكر عليه أيضاً اعتباره « الجحاف بن حكيم بن عاصم » صحابياً ، فقال : « وقد وجدت لابن الأثير سلفاً ، لكن تولى رده من هو أعلم منه ». وعن انكار ابن الأثير صحبة الجن ، يقول ابن حجر في نهاية ترجمته لزوبعة الجنى ، « ولا معنى لأنكاره ( ابن الأثير ) لأنهم ( الجن ) مكلفوون ، وقد أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فآمن منهم به من آمن ، فمن عرف اسمه ولقبه للنبي صلى الله عليه وسلم فهو

صحابي لا محالة . وأما قوله ، كان الأولى أن يذكر جبرائيل ، ففيه نظر ، لأن الخلاف في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل أرسل إلى الملائكة مشهور بخلاف الجن والله أعلم » .

أما الأخطاء الأخرى التي أخذها ابن حجر على ابن الأثير ، منها ، ما ذكره في ترجمة « بشر بن عاصم بن عبد الله » ، فيقول « وفي كلام ابن الأثير ما ينافي ذلك ، وخطوه فيه يظهر بالتأمل فيما حررته والله المرشد » . ويعتبر ابن الأثير « حنظلة بن قيس الحنفي الإمامي » من الأنصار فينكر عليه ابن حجر ذلك ويقول : انه « وهم من ابن الأثير » . ويدرك ابن الأثير أيضا « حنبيل بن خارجة » فيقول ابن حجر ، ان ابن الأثير « صحف الاسم تصحيفا قبيحا » ، وإنما هو « حسبل » ( بكسر المهملتين ) . ولكن الحق ، أن ابن حجر لم يغط حق ابن الأثير في بعض تصويباته ، وقد أشار في أكثر من ترجمة إلى صوابها ، من ذلك ما ذكره في ترجمة « الحجاج ابن قيس بن عدى السهمي » فقال : « فرق ابن مندة بينه وبين الحجاج بن الحارث بن قيس ، وهو هو ، سقط ذكر أبيه من بعض الروايات ، ونبه عليه ابن الأثير » . وما ذكره أيضا في ترجمة « خالد بن نافع الخزاعي » ، فقال : « ذكره أبو عمر مفرقا بينه وبين خالد الخزاعي المتقدم ذكره فوهم ، نبه عليه ابن الأثير » . وممن نقل من كتاب ابن الأثير أيضا ، محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، وقد ذكره كمصدر له في مقدمة كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » .

### ثالثا : التاريخ الباهري في الدولة الأتابيكية (١)

والمقصود بالدولة الأتابيكية ، الدولة التي أسسها عماد الدين زنكي في الموصل سنة ٥٢١ هـ (١١٣٧ م) وهي الدولة التي عاش

(١) انظر ما يلى ، التعريف بكتاب الكامل في التاريخ .

ابن الأثير وأسرته في ظلها كما سبق أن ذكرنا . ولفظ الاتابكية ، نسبة إلى اللقب التركي « أتابك » ( ومعناه الوالد الكبير ) الذي أطلق على عماد الدين بعد أن ولى امرة الموصل .

فالكتاب اذن في تاريخ الدول أو الأسر ، والدولة الزنكية - أو الاتابكية كما يسميها ابن الأثير - احدى الأسر الحاكمة في الاسلام التي ظهرت في العصر العباسي (١) . وتاريخ الأسر لا يقل أهمية عن التاريخ العام ، بل انه يمتاز عنه في تخصصه الموضوعي ، هذا التخصص الذي يتبع الفرصة للمؤلف لكي يتسع في أخبار الأسرة الحاكمة العامة والخاصة ، كما يتبع له الاكثار من تفاصيل الخبر والحدث بحيث تكون أكثر وضوحا مما هي في كتاب في التاريخ العام ، كذلك يتبع له عرض شخصيات الأسرة من حيث حياتها الخاصة وال العامة بتوسيع مما يتبع له التاريخ الععام ، ومقارنة بسيطة بين تاريخ أسرة حاكمة في كتاب في التاريخ العام وتاريخها في كتاب خاص ، يتبع الفرق بين التاریخین ، حيث نجد في التاريخ العام أخبارا موجزة تنصب كلها تقريبا على الناحيتين السياسية والحربيه ، بينما نجد في تاريخ الأسرة أخبارا منوعة ومفصلة تفصيلا واسعا ، عن الحالة الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية فضلا عن الناحيتين السياسية والحربية . ولدينا الدليل على ذلك ، فقد أرخ ابن الأثير الأسرة في كتابه هذا « التاريخ الباهري » وأرخها أيضا في كتابه الكبير « الكامل في التاريخ » - وهو في التاريخ العام - فإذا ما قابلنا - مثلا - ما ذكره ابن الأثير عن جهود عماد الدين زنكي في تأسيس دولته في الموصل في « الباهري » وما ذكره في « الكامل » ، وكذلك ما ذكره عن سياسة نور الدين محمود العامة ، يظهر الفارق الكبير بين الكتابين من

(١) حق المؤلف الكتاب ، ونشر في سنة ١٩٦٢ .

حيث اتساع المادة الخبرية في الكتاب الأول ، وقلتها في الكتاب الثاني .

وإذا كان لتاريخ الدول - أو الأسر - هذه الميزات ، فإن له مساوىء خطيرة حين ينحرف المؤرخ عن الأمانة الواجبة في التاريخ ، سواء كان الانحراف بضفت خارجي عليه . كما حدث لابراهيم بن هلال الصابى ، الذى كلف من الملك عضد الدولة البويهى ، أن يؤلف له كتاب « التاجى » في أسرته البويهية ، فاضطر تحت تأثير عضد الدولة أن يحرف الأخبار (١) ، أو كان الانحراف من المؤرخ نفسه مجاملة منه للأسرة كما فعل ابن الأثير في كتابه « التاريخ الباهري » - كما سيأتي - ففى الحالتين يضطر المؤلف إلى الانحراف ، الأمر الذى يسبب مشقة كبيرة للباحث الحديث للوصول إلى الحقيقة .

### سبب تأليفه الكتاب :

وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة الكتاب سبب تأليفه له ، فقال ، انه الفه لاظهار الدور العظيم الذى أداه الزنكيون في المجال الصليبي وفي السياسة الداخلية ، وذلك وفاء منه لهم ، ولکى تكون سيرتهم دستوراً يهتدى به الملك القاهر مسعود الذى خلف أباه على ملك الموصل سنة ٦٠٧ ، فيسير على نهج أسلافه في عدالة الحكم وحسناته . غير أننا نرجح ، أن الدافع لتأليفه الكتاب ، هو وفاة ملك الموصل نور الدين أرسلان شاه ستة ٦٠٧ ، الذى كان أكثر ملوك الموصل براً به وبأسرته

(١) يروى أن أحد أصحاب الصابى سأله عما يفعل - وكان عاكفاً على تأليف الكتاب - فقال : « أباطيل أنمقها وأكاذيب الفقها » ، وقد بلغت كلمته عضد الدولة ، فقضب عليه حتى كاد أن يهلكه . ( شدرات الذهب : ١٠٦/٣ ) - ترجمة الصابى سنة ٣٨٤ .

وعطفا عليهم ، وولايته ابنه الشاب القاهر مسعود برعاية بدر الدين لؤلؤ ، ويبدو أن علاقة ابن الأثير بالملك الشاب وبراعييه لم تكن وثيقة الأمر الذي يهدد مكانته بالبلاط الموصلى ، فعزم على استمرار مكانته في البلاط وتوثيقها ، فرأى أن خير وسيلة لذلك ، هو أن يؤلف كتاباً عن أسرة الملك القاهر ويقدمه له ، وأن ينوه به وبراعييه ، ويشيد بهما ، فألف الكتاب في سنة ٦٠٨ ، أي بعد اعتلاء الملك القاهر ملك الموصل بسنة واحدة ، واقتصر فيه على تسجيل محسناته وأسلافه والأخبار الطيبة عنهم . وقد نجح ابن الأثير في استمرار علاقته بالبلاط وتوثيقها ، فقربه بدر الدين لؤلؤ إليه ، وجعله من رواد مجالسه ، وبخاصة في شهر رمضان كما سبق أن ذكرنا . وحرص ابن الأثير على استمرار علاقته بالبلاط الموصلى لا يتعارض وكراهيته للوظائف الحكومية فإن الغرض الذي كان يهدف إليه من علاقته بالبلاط هو الاحتفاظ بمكانة الأدبية فيه ، أسوة بالعلماء المقربين إلى البلاط .

### موضوع الكتاب :

ويتضمن الكتاب ، تاريخ ملوك الموصل منذ أن أسس عماد الدين دولته في سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٠٧ ، وهي السنة التي توفي فيها الملك نور الدين أرسلان شاه ، وخلفه بعده ابنه الملك القاهر مسعود .

وقد قدم ابن الأثير كتابه بمقدمة أظهر فيها علاقته أسرته الوثيقة بملوك الموصل ، ولخص فيها جهادهم الصليبيين وأشاد بعادتهم في حكمهم ، ثم ذكر سبب تأليفه الكتاب .

ثم بدأ بسرد أخبار قسم الدولة آق سنقر الحاجب – والد عماد الدين زنكي – فذكر صلته بالسلطان السلوقي في ملوكشاه ، وولايته على حلب من قبله ، واشتراكه في مشاكل الأسرة

السلجوقية بسبب التنافس على السلطنة بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥، ثم ذكر مقتل قسيم الدولة في سنة ٤٨٧ في حرب منافسة بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقي صاحب دمشق، وختم ابن الأثير أخبار الدولة بترجمة له، ذكر فيها حسن سياسته وعدالة حكمه.

ثم تناول بعد ذلك أخبار عماد الدين زنكي - الابن الوحيد لقسيم الدولة - منذ مقتل والده حتى وفاته سنة ٥٤١، فذكر رعاية أصحاب أبيه له ونشائه تحت رعايتهم، فقد كان عماد الدين في نحو العاشرة من عمره حين توفي أبوه، ثم استقلاله بنفسه بعد أن اشتغل ساعده، والتحاقه بجيوش أمراء الموصل وأشترأكه معه في حروبهم المحلية وحروبهم ضد الصليبيين، ثم انتقاله إلى خدمة السلطان محمود السلجوقي، وولايته شحنكية (محافظة) واسط والبصرة وبغداد. ثم بعد ذلك ولايته على الموصل سنة ٥٢١، وهنا يأخذ ابن الأثير في سرد الخطوات التي اتبعها عماد الدين لتكوين دولة تحمل اسمه، تضم بعض امارات الجزيرة والشام. كذلك ذكر أخبار التي تشير إلى الصعوبات التي صادفته أثناء تكوين دولته، التي تتمثل في الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي، وأمراء الجزيرة والشام المسلمين ثم الصليبيين وكيف تغلب عليها. وقد أفاد ابن الأثير في سرد حروب عماد الدين ضد الصليبيين وجهوده في استرداد كثير من البلاد التي استولوا عليها، سواء في الجزيرة أو في الشام.

ثم تناول ابن الأثير، انقسام الدولة بعد وفاة عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذى استقل بحلب وتواطأها بالشام. فدون أخبار سيف الدين، أو كان عهده قصيرا (٥٤١ - ٥٤٤ هـ)، ومن أبرز أعماله، أنه تحاشى وقوع خلاف خطير بينه وبين

أخيه نور الدين ، كذلك حافظ على أملاك الدولة بالجزيرة من الطامعين بها من أمرائها ، ثم كان له أثر في منع سقوط دمشق في يد إمبراطور الروم الذي حاصرها مع الصليبيين في سنة ٥٤٣ .

ثم سرد ابن الأثير أخبار قطب الدين مودود ، الذي خلف أخيه سيف الدين على الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥ هـ) فذكر الخلاف الذي حدث بينه وبين أخيه نور الدين بسبب مدينة سنحار والذى انتهى بالصلح بينهما . ثم ذكر مشروع سلطنة سليمان شاه السلاجقى على همدان وتعيين قطب الدين أتابكا (مدبرا) له لادارة سلطنته وفشل المشروع ، كذلك سرد أخبار النزاع على ملك الموصل بين ولدى قطب الدين أثناء مرضه ، وأثر نفوذ رجال الدولة في هذا النزاع ، الذي انتهى بملك ابنه سيف الدين غازى (الثانى) .

كذلك تناول أخبار نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩) ، ذكر استيلاءه على حلب بعد وفاة أبيه ، وجهاده للصليبيين ، واسترداده بعض البلاد منهم ، كذلك ذكر استيلاءه على دمشق سنة ٥٤٩ ، وعلى مصر سنة ٥٦٤ ، وعلى الموصل سنة ٥٦٦ . كذلك تحدث عن الخلاف الذي حدث بين نور الدين وصلاح الدين الأيوبي ، بعد أن حل صلاح الدين محل عمه أسد الدين شير كوه في مصر .

كذلك ذكر أزمة الاستخلاف التي حادثت في البيت الزنكي بعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ ، بسبب صغر سن الصالح اسماعيل ، الابن الوحيد لنور الدين ، والتي آلت الدولة بسببها إلى صلاح الدين ، ما عدا الموصل وسنحار وجزيرة ابن عمر .

وفي الفترة ما بين سنتي ٥٦٩ و ٦٠٧ ، أرخ ابن الأثير ملوك الموصل تأريخا مختصرا لافتصار أخبارهم على الاخبار المحلية ، ذكر فيه اخبار سيف الدين غازى ( الثاني ) ابن قطب الدين مودود الذى استمر حكمه حتى سنة ٥٧٦ هـ ؛ وأخبار عن الدين مسعود بن قطب الدين مودود الذى خلف أخيه سيف الدين حتى سنة ٥٨٩ ، وكذلك اخبار نور الدين ارسلان شاه بن عن الدين مسعود ودام حكمه الى سنة ٦٠٧ ، فدون أخبارا قليلة عن علاقاتهم بصلاح الدين وخلفائه ، وكانت علاقات تأرجح بين الود والخصومة ، ثم ذكر ملك القاهر مسعود بن نور الدين ارسلان شاه سنة ٦٠٧ ، دون أن يذكر أخبارا عنه . وختم ابن الأثير اخبار كل ملك بترجمة له ، وصف فيها أخلاقه وما ثر ، وذكر ما أفادته الموصل في عهده . كذلك ترجم لبعض كبار رجال الدولة من الوزراء والقواد ، وأبرز في هذه التراجم ، أثر بعضهم في نشأة الدولة وارتقائها ، وأثر بعضهم الآخر في اضعافها .

وقد تجنب ابن الأثير التوسيع في اخبار الصراع بين الزنكيين - خلفاء نور الدين - وبين صلاح الدين وخلفائه ، وسبب ذلك أن اخبار الصراع ، تظهر ضعف الزنكيين أمام صلاح الدين وخلفائه ، وهزائمهم في حروبهم معهم ، كذلك ثبتت اخبار الصراع خضوع الزنكيين لصلاح الدين وخلفائه خضوعا تاما ، فتجنب ابن الأثير اثبات هذه الاخبار التي تجرح أصحابها ، لئلا يخدش كبرياء الملك القاهر الذى ألف له الكتاب ، ولكنه في الوقت نفسه ، أحال القارئ أكثر من مرة الى كتابه الآخر « الكامل في التاريخ » للاستزادة من الاخبار والتفاصيل ، حيث دونها بحرية تامة .

كذلك خرج في بعض الحوادث عن مبدأ الحيدة الذى اتبعه في كتابه « الكامل » ، ففى هذا الكتاب فسر هذه الحوادث من واقعها وعلى وجهها الصحيح ، بينما فسرها في « الباهر »

تفسيرًا مخالفًا لرأي الملك القاهر ، مثال ذلك ، خبر حصار عز الدين مسعود — جد الملك القاهر — جزيرة ابن عمر ، وخبر حصار الملك العادل الأيوبي مدينة سنجرار سنة ٦٠٦ .

كذلك ضفت بعض الأخبار ضفطاً كبيراً ، وبخاصة تلك التي تجرح عماد الدين زنكي ، فحذف منها الأخبار التي تدينه ، مثل خبر استيلائه على حماه سنة ٥٢٣ ، وعلى بعلبك سنة ٥٣٤ ، بينما ذكرها في «الكامل» كاملاً مفصلاً . ومع ذلك يلاحظ أن ابن الأثير لم يستطع التغلب على طبيعته الناقصة ، فتناول بعض ملوك الموصل بالنقد ، مثال ذلك تقاده المشوب بالتأنيب لعز الدين مسعود لقبضته على نائبه مجاهد الدين قايماز ، وما تسبب عنه من أضرار على الدولة ، فقد عصى كثير من نوابه في البلاد التابعة للموصل عليه استضاعافاً له — وكانوا يخشون مجاهد الدين لقوته وحزمه — فقال : « وعلى الحقيقة ، فليس على الدولة شيء أضر من إزالة بيشكار (وزير) مدبر لها واقامة غيره ، فإن الأول يكون كالطيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه وما يوافقه ويؤذيه . ويكون الثاني — وإن كان كافياً — بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الإنسان وما يوافقه ويؤذيه ، فالى أن يعرف حاليه ينسد أكثر مما ينصلح » . فهذا النقد القاسي يدل على رغبة ابن الأثير في نقد ملوك الموصل ، ولكن الفرض الذي هدف إليه من تأليف الكتاب حال بيته أو بين الانطلاق في النقد .

والجدير بالذكر أن ابن الأثير قد ذكر في كتابه هذا معلومات قيمة لم يذكرها في «الكامل» ، مثل المعلومات عن مصر عماد الدين بعد مقتل والده وتنقله في خدمة أمراء الموصل واشتراكه معهم في حروبهم منذ صغره ، ومن ذلك عرفنا سر نجاحه الحربي والمدني ، كذلك أمدنا بمعلومات عن كيفية نجاحه في تكوين دولته وسياساته الحازمة في حكمه .

كذلك في الكتاب معلومات قيمة عن حياة نور الدين الخاصة وال العامة لم يذكرها في «الكامل» بحيث أصبحت شخصية نور الدين واضحة المعالم للباحث والدارس الحديث .

كذلك تخللت ترجم الزنكيين وكبار رجال دولتهم ، معلومات عن النظم الزنكية ، وعن جهودهم في تحسين أحوال الموصل الداخلية ، في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلمية .

كذلك أبدع في وصفه المعارك التي دارت بين الصليبيين وبين كل من عماد الدين ونور الدين ، وفي ابراز الجهد الضخم الذي كان يبذلها كل من الزنكيين والصليبيين من حيث الاستعداد للعمليات الحربية ، واستماتة المسلمين والصليبيين في القتال . ونورد هنا نماذج لبعض الأخبار التي ذكرها عن عماد الدين ونور الدين ، بعد الاشارة الى مصادره .

#### مصادره :

وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه أنه اعتمد في جمع الأخبار على ما كان قد سمعه من والده ، ولم يكن يدون ما يسمعه في حينه ، غير أنه في الواقع رجع إلى مصادر كثيرة ، هي نفس مصادره عن الزنكيين في كتابه «الكامل» ، وذلك لأن ابن الأثير عندما بدأ يجمع مادته التاريخية ، ومنها أخبار الزنكيين ليخرجها في كتاب ، لم يكن يتوقع أنه سيخرج كتاب «التاريخ الباهري» ، فلما جاءته المناسبة لاخراج كتابه هذا ، جمع أخبار الزنكيين من المادة المجموعة عنده ، ومن المصادر التي رجع إليها وذكرها في «الباهري» تاريخ دمشق لابن عساeker ، وأخبار حلب لابن العديم ، و«البرق الشامي» للعماد الكاتب ، كذلك نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة .

## مكانة الكتاب عند القدامى :

وقد لقى الكتاب ترحيباً كبيراً من المؤرخين القدامى ، فقد نقل منه واعتمد عليه كثيرون . نذكر منهم على سبيل المثال : أبو شامة في كتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » ؛ وابن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » ؛ وابن قاضى شهبة في كتابه « الكواكب الدرية في السيرة النورية » ؛ وسبط ابن الجوزى في كتابه « مرآة الزمان » ؛ وابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » .

### نماذج

- يصف ابن الأثير الوضع الالاسلامي الصليبي في الشام والجزيرة في سنة ٥٢١ هـ والتحول الذي أجراه عماد الدين زنكي لما ولى امرة الموصل في تلك السنة ، وذلك تحت عنوان :

#### ( ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكي الموصل )

« نبتدئ قبل ذكر ملكه للبلاد ، بذكر الحال التي كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيئتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سلطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الاسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عاديتهم ، وتنابت غزواتهم ، وساموا المسلمين سواء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار في البلاد شر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدرة ، وسماء عزهم منفطرة ، وشمس أقبالهم مكورة ، ورأيات المشركين خلال ديار الاسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الایمان منصورة .

« وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وشبعختان الى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماء ، ودمشق . وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين . وأما الرقة وحران ، فقد كان أهلها معهم في ذل وصفار ، واستضعفوا واقتصر ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكنى القبور . وانقطعت الطريق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف ، اوركوب المفازة تعباً ومشقة ونصبا ، ٠٠٠

« فلما نظر الله تعالى الى ملوك البلاد الاسلامية ، وأمراء الملة الحنفية ، وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين ، والوهن في حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، ارتاح (؟) للاسلام وأهله ، وأنف لهم من اذلال عدوهم لهم وأسره وقتله ، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصليبان رجوما منه تهلكها وتغتصبها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوى الرأى والنجدة والشهامة من أصحابه ، فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من المؤمن الشهيد عماد الدين زنكي ولا أثبت جنانا ، ولا أمضى عزما ولا أنفذ سنانا ، فولاه التغور ، ورعايه الجمهور ٠٠٠ فغزوا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذوا للموحدين منهم بشارهم ، فأصبحت أهلة الاسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وما س المسلمون في حل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل من الظفر فياغية ، واستنقذوا من اهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوا بهم بما أسليفو من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية

والشامية جرانه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزر ، فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمّت التوحيد وأهله ، ونقطة مزقت من الشرك شمله ، وسترى ما أجملناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا » .

### ( ذكر بعض سيرة الملك الشهيد - عماد الدين - رضي الله عنه )

« كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزما وضيّطا للأمور ، كانت رعيته في أمن شامل لعجز القوى عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وانصافه وشجاعته وغير ذلك ، ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به . . . . . »

« فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سيما دركاه ( بلاط ) السلاطين ، وكان يخسر على ذلك المال الجزيل ، وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك ، فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين » .

\* \* \*

« ومن جملة رأيه الحسن ، أنه كان يتنهّى أصحابه ( موظفيه ) ويتحنّهم ، فلا يرفع أحدا فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه ، ويشق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه . . . . . »

\* \* \*

« ومن آرائه : أنه كان لا يمكن أحدا من خدمه من مفارقة بلاده ، وكان يقول : إن البلاد كستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج

يَهَابُ الدُّخُولَ ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْهَا مَنْ يَدْلُ عَلَى عُورَتِهَا وَيُطْمِعُ الْعَدُوَّ  
فِيهَا زَالَتِ الْهَبَّةُ وَتَطَرَّقَ الْخَصُومُ إِلَيْهَا . . . »

\* \* \*

« وكان ديوانه يقاس بدوابين السلاطين السلجوقية لكثره التجمل ونفاذ الأمر وعظم العاشية والخرج . قال والدى ( أى والد المؤرخ ) : كان الانسان اذا قدم عسكره لم يكن غريبا ، فان كان جنديا اشتمل عليه الأجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج اليه لكثره أموالهم باوان كان القايد صاحب ديوان ، قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ، ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله ، وان كان عالما ، فيقصد خيام القضاة بنى الشهير زورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون اليه ، ويؤنسون غربته فيعود أهلا ؟ وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوى الهمم العالية ، والأراء الصائبة ، والأنفس الأبية ، ويتوسّع عليهم فيأزاقهم ، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف » .

ومن أخبار نور الدين بن عماد الدين ، ما ذكره تحت عنوان :

( في ذكر بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود رضي الله عنه )

«قد طالعت توارييخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا ، فلم ار فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمربن عبد العزيز ، ملكا احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريرا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجihad يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرناه ونحن نذكر هنا ما تعلم به محله في أمر دنياه وأخراء ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف في بيت واحد ؟ » .

« فَإِمَّا زَهْدُهُ وَعِبَادَتُهُ وَعِلْمُهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ مَعَ سُعَةِ مُلْكِهِ وَكُشْرَةِ ذَخَائِرِ بَلَادِهِ وَأَمْوَالِهَا ، لَا يَأْكُلُ وَلَا يَلْبِسُ وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيمَا لَا يَخْصُهُ إِلَّا مِنْ مُلْكٍ كَانَ لَهُ قَدْ اشْتَرَاهُ مِنْ سَهْمِهِ مِنَ الْغَنِيَّةِ وَمِنَ الْأَمْوَالِ الْمَرْصُدَةِ لِمُصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ . أَحْضَرَ الْفَقَهَاءِ وَاسْتَفْتَاهُمْ فِي أَخْذِ مَا يَحْلُّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَخْذَ مَا أَفْتَوْهُ بِحُلْمِهِ وَلَمْ يَتَعَدَّهُ إِلَى غَيْرِهِ الْبَيْتَةِ ، وَلَمْ يَلْبِسْ قُطًّا مَا حَرَمَهُ الشَّرْعُ مِنْ حَرَيرٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ فَضَّةٍ ، وَمَنْعَ شَرْبِ الْخَمْرِ وَبِيعَهَا فِي جَمِيعِ بَلَادِهِ ، وَمَنْ أَدْخَالَهَا إِلَى بَلَدِهِ مَا ، وَكَانَ يَحْدُثُ شَارِبَهَا الْحَدُّ الشَّرْعِيُّ ، وَكَانَ النَّاسُ عِنْدَهُ فِيهِ سَوَاءً » .

\* \* \*

« وَمِنْ عَدْلِهِ – قَدْسَ اللَّهُ رُوحُهُ وَنُورُ ضَرِيحِهِ مِنْ نُورِ فَسِيْحَهُ – أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْاقِبُ الْعَقُوبَةِ الَّتِي جَرَتْ بِهَا عَادَةُ الْمُلُوكِ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ عَلَى الْفَطَنَةِ وَالْتَّهْمَةِ ، بَلْ يَطْلُبُ الشَّهُودَ عَلَى الْمُتَهَمِ ، فَإِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيْنَةُ الشَّرْعِيَّةُ ، عَاقِبَهُ الْعَقُوبَةُ الشَّرْعِيَّةُ مِنْ غَيْرِ تَعْدُدٍ ، فَدَفَعَ اللَّهُ بِهَذَا الْفَعْلِ عَنِ النَّاسِ مِنَ الشَّرِّ مَا يُوجَدُ فِي غَيْرِ وَلَايَتِهِ مَعَ شَدَّةِ الْسِيَاسَةِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْعَقُوبَةِ وَالْأَخْذِ بِالظَّنَنَةِ وَأَمْنَتْ بَلَادَهُ مَعَ سُعْتِهَا ، وَقَلَّ الْمُفْسِدُونَ بِبَرَكَةِ الْعَدْلِ وَاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمَطْهُرِ » .

\* \* \*

« وَأَمَّا شَجَاعَتُهُ وَحَسْنَ رَأْيِهِ فَقَدْ كَانَتِ النَّهَايَةُ إِلَيْهِ فِيهِمَا ، فَإِنَّهُ كَانَ أَصْبَرَ النَّاسَ فِي الْحَرْبِ وَأَحْسَنَهُمْ مَكِيدَةً وَرَأْيَا ، وَأَجْوَدَهُمْ مَعْرِفَةً بِأَمْرِ الْأَجْنَادِ وَأَحْوَالِهِمْ ، وَبِهِ كَانَ يَضْرِبُ الْمُثُلَ فِي ذَلِكَ . سَمِعْتُ جَمِيعًا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا أَحْصِيَهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُمْ لَمْ يَرُوا عَلَى ظَهَرِ الْفَرْسِ أَحْسَنَ مِنْهُ ، كَانَهُ خَلْقٌ مِنْهُ لَا يَتَحْرِكُ وَلَا يَتَزَلَّ » .

\* \* \*

« وَمِنْ أَحْسَنِ الْآرَاءِ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ مَعَ أَجْنَادِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَفَّ أَحَدُهُمْ وَخَلَفَ وَلَدًا ، أَقْرَأَ اقْطَاعَهُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ كَبِيرًا اسْتَبَدَ

بنفسه ، وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يشق اليه فيتولى أمره الى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب . وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه ، وسلامتهم ودوابهم ، خوفا من أن حرص بعض الأمراء وشحه يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ويقول : نحن كل وقت بصد بالنفير ، فإذا لم يكن أجناد كافية الأمراء كاملي العدد والعدد ، دخل الوهن على الإسلام ، ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال ، وأصاب فيما فعل ، فلقد رأينا ما خافه عيانا » .

### ( وأما ما فعله من المصالح )

« الذي فعله من المصالح في بلاد الإسلام مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم » .

\* \* \*

« وبنى أيضا الخانات في الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر » .

\* \* \*

« وبنى بدمشق أيضا دارا للحديث ، ووقف عليها وعلى من بها من المستغلين بعلم الحديث وقوفا كثيرة ، وهو أول من بني دارا للحديث فيما علمناه » .

\* \* \*

« وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرایات الوافرة . وبنى أيضا مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن . ووقف على الأيتام الذين يقرؤون

بها القرآن . وهذا فعل لم يسبق إليه . بلغنى من عارف بأعمال الشام ، أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا – وهو سنة ثمان وستمائة – كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها ملك غير صحيح شرعى ظاهراً وباطناً » .

– ومن أخبار حروب نور الدين مع الصليبيين :

### ( في ذكر حصر نور الدين قلعة حارم )

« في هذه السنة ( سنة ٥٥١ ) سار الملك العادل نور الدين محمود إلى قلعة حارم ، وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب أنطاكية فحصرها . وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون وأحصنهما في نحو المسلمين ، فاجتمعت الفرنج – من قرب منها ومن بعد – وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون إلى قوله ، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم ، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء ، وقال لهم : إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقتنا الامتناع عليه ، ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من أعمال حارم ، فأبى أن يجيئهم إلا على مناصفة الولاية ، فأجابوه إلى ذلك ، فصالحهم وعاد » . ثم يذكر ابن الأثير ، شعراً مدح به بعض الشعراء نور الدين لهذه المناسبة .

### ( ذكر فتح المنطرة على يد الشهيد رحمه الله )

« في سنة احدى وستين وخمسين ، سار نور الدين إلى حصن المنطرة – وهو أيضاً للفرنج – ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما

سار اليه على غرة من الفرنج ، وعلم أنه ان جمع العساكر حذروا  
وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار الى المنطرة وحصرها ، وجد في قتالها  
وأخذها عنوة وقهرها ، وقتل من بها ، وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن  
من بها ، فأخذتهم خيل الله بعثة وهم لا يشعرون . ولم يقدر الفرنج  
على أن يجتمعوا لدفعه الا وقد ملكه ، ولو علموا أنه جريدة (١) لأسرعوا  
اليه ، إنما لم يظنووا الا أنه في جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا  
 منه » .

#### رابعا : الكامل في التاريخ

يعتبر ابن الأثير - حقيقة - في مقدمة مؤرخي العالم الإسلامي ،  
مشرقه ومغربه وما بينهما ، ويمتاز عمن سبقه من مشهورى المؤرخين  
السابقين عليه ، كالطبرى ، ومسكويه ، وابن الجوزى ، فالطبرى ،  
بالرغم من أنه سبق ابن الأثير في التاريخ للعالم الإسلامي ، إلا أنه  
أغفل تاريخ بعض المناطق والأقاليم ، وأخبار عن بعض المناطق التي  
أرخها قليلة التفاصيل كأخباره عند الهند والسندي والأندلس ؛  
وأما مسکویه وابن الجوزی ، فالبرغم من أنهما أرضا للعالم الإسلامي  
أيضا ، إلا أن تاريخهما أضيق بكثير من تاريخ الطبرى وابن الأثير ،  
ويكاد كل منهما يحصر تاريخه بأخبار المشرق ، أما أخبارهما عن  
المغرب - افريقية والأندلس - وما بين المغرب والمشرق - كالشام  
ومصر - فانها قليلة جدا . أما « تاريخ الدول المنقطعة » لابن ظافر  
الأزدي - وهو شبيه بتاريخ الطبرى وابن الأثير ، ومؤلفه معاصر  
لابن الأثير حيث توفي سنة ٦٢٣ - فإنه لا يصل بحال إلى مرتبة  
تاريخ ابن الأثير بالرغم من أنه في التاريخ الإسلامي العام . وقد رتب

(١) الجريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجاله فيها . ( محيط  
المحيط ) .

ابن ظافر تاريخه ترتيباً دولياً ، والقطعة الموجودة منه (١) ، تشمل أخبار الدول : الحمدانية بحلب ، والساجية بالجibal ، والطولونية بمصر والشام ، والأخشيدية بمصر والشام أيضاً ، والعلوية بأفريقية ، والصنهاجية بأفريقية والأندلس ، والعباسية حتى ولاية الخليفة الناصر لدين الله الخلافة سنة ٥٧٥ ، الا أن أخباره عن كل دولة قليلة جداً ، وأخبار ذاتها قليلة التفاصيل إلى حد كبير ، والواقع أنه لا وجه للمقارنة بين أخبار ابن ظافر وأخبار ابن الأثير الذي أرخ للعالم الإسلامي كلها ، وأخباره عن كل اقليم كثيرة ، وتفاصيلها مشبعة إلى حد لا بأس به .

وإذا نحن ارتفعنا بابن الأثير إلى هذه المرتبة الممتازة ، فاننا لا نعني أنه استوفى تأريخه للعالم الإسلامي استيفاءً كاملاً من حيث الأخبار وتفاصيلها ، وإنما نرتفع به مقارنة بغيره من مؤرخي العالم الإسلامي ، فإن عليه مأخذ مثل ضغطه بعض الأخبار التي نقلها من مصادره للفترة التي لم يعاصرها ضغطاً مخلاً ، كذلك أهمل نقل بعض الأخبار الهامة منها ، ولكنه ، برغم هذه المأخذ ، فهو المؤرخ المتفوق على غيره من المؤرخين بلا جدال .

وقد عقد ابن الأثير مقدمة لكتابه ، ذكر فيها : سبب تأليفه الكتاب ، وموضوعه ، ومصادره ، ومنهجه في التأليف ، وعنوان الكتاب ، ورده على من يحتقر التوارييخ ويزدريها .

### **سبب تأليف الكتاب :**

فاما سبب تأليفه الكتاب ، فهو حبه للتاريخ : « .. فاني لم أزل محبًا لمطالعة كتب التوارييخ ومعرفة ما فيها ، مؤثراً الاطلاع على الجل من حوادثها وخفيفها ، مائلاً إلى المعارف والأداب والتجارب المودعة .

(١) مصور : بدار الكتب ، رقم ٨٩٠ تاريخ .

في مطاويها ». ثم انه بعد ما اطلع على كتب التوارييخ ، وجد فيها  
عيوبا أربعة :

أولها : وجد منها المطول الممل والمختصر المخل « فلما تأملتها  
رأيتها متباعدة في تحصيل الغرض ، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل  
إلى العرض ، فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات ، ومختصر  
قد أخل بما هو آت » .

وثانيها : أن المؤرخين الذين قرأ لهم قد شغلوه كتبهم بصفاير  
الأمور دون الأحداث الهامة ، « ومع ذلك ، فقد ترك كلهم العظيم  
من الحادثات ، والمشهور من الكائنات ، وسود كثير منهم الأوراق  
بصفاير الأمور التي الاعراض عنها أولى ، وترك تسطيرها أخرى ،  
كقولهم : خلع فلان الذمي صاحب العيار ، وزاد رطلا في الأسعار ،  
واكرم فلان وأهين فلان » .

وثالثها : « قد أرخ كل منهم إلى زمانه ، وجاء بعده من ذيل  
عليه ، وأضاف المتعددات بعد تاريخه إليه » .

ورابعها : أن المؤرخ الشرقي افتقر على التاريخ للشرق .  
والغربي اقتصر على التاريخ للغرب ، « والشرقي منهم قد أخل بذلك  
أخبار الغرب ، والغربي قد أهمل أحوال الشرق » . ثم يقول ،  
« فكان الطالب اذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة  
وكتب متعددة ، مع ما فيها من الاخلال واللامبال » لذلك رأى  
ابن الأثير ، أن يجمع التاريخ الإسلامي كله ، المتفرق في الكتب  
العديدة في كتاب واحد ، « فلما رأيت الأمر كذلك ، شرعت في  
تأليف جامع لأنباء ملوك الشرق والغرب وما بينهما ، ليكون تذكرة  
لأرجاعه خوف النسيان ، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول  
الزمان ، متابعة يتلو بعضها ببعضها إلى وقتنا هذا » .

وقد أحسن ابن الأثير بما ذكره عن نفسه من حبه للتاريخ ، فمنه عرفنا سبب تخصصه فيه ؛ ولكنه لم يحسن في تعريضه بتواريخ من سبقه ، فإنه قد غالى في التهويين من شأنها ، ولو أنه اكتفى بالقول بأنه أراد أن يجمع أخبار العالم الإسلامي المتفرقة في الكتب لكان السبب مقبولا ، أما أنه يستهين بأعمال استفاده هو منها كل الفائدة ، فهذا ما يعاتب عليه ، وهو على كل حال قد نقض على نفسه عندما ذكر مصادره فقال ، انه اعتمد على الطبرى أساسا ، ثم قال : « فلما فرغت منه أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها ، وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبرى ما ليس فيه » وبعد أن يمدح الطبرى مرة أخرى يقول : « على أنى لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ، من يعلم بصدقهم فيما نقلوه ، وصححة ما دونوه » ، بالإضافة إلى أنه أشار في متن الكتاب ، إلى بعض المصادر التي رجع إليها اشارة خاصة ، ونبه إلى السنة التي انتهى بها كلامه مصدر ، فقد ذكر في سنة ٣٦٣ ، أن في هذه السنة انتهى كتابه ثابت بن سنان ؛ وذكر في سنة ٣٦٩ ، أن في هذه السنة انتهى كتاب ابن مسكونيه ؛ وذكر في سنة ٣٨٩ ، أن في هذه السنة انتهى كتاب الوزير أبي شجاع ، فضلاً عن المصادر الأخرى التي استعان بها بعد سنة ٣٨٩ ، سواء تلك التي ذكرها في ثنايا أخباره أو التي لم يذكرها . ولا ندرى لماذا حاد عن انصافه للمؤرخين السابقين عليه في هذا الكتاب بينما أنصفهم وأشاد بهم في كتابيه « أسد الغابة » و « الباب » ، فإنه أشاد بمصادره الرئيسية في « أسد الغابة » وقدر جهود مؤلفيها ، ثم أشار إلى عيوبها التي دعنته إلى تأليف الكتاب ، كذلك أشاد في « الباب » بكتاب « الأنساب » ومؤلفه ثم ذكر عيوب الكتاب التي دفعته إلى تهذيبه . وقد أشرنا إلى ذلك في تعريفنا بالكتابين .

ومؤاخذة ابن الأثير ، المؤرخين المشرقين والمغاربيين ، لاقتصار كل منهم على التاريخ لناحيته ، مؤاخذة لها اعتبارها ، لأنه في الحقيقة

لم يظهر - سواء في المشرق أو المغرب - مؤرخ عالمي بعد الطبرى . ولهذا فنحن نرجح أن هذا السبب هو الذى حمس ابن الأثير إلى تأليف كتاب يجمع فيه أخبار العالم الإسلامي مشرقه ومغربه وما بينهما - على حد تعبيره - ويمكن اضافة سبب آخر إلى هذا السبب وهو أن ابن الأثير وجد أن الطبرى نفسه لم يؤرخ للعالم الإسلامي حتى عصره ، تاريخاً شاملاً ، فأراد أن يستكمل تاريخه ثم يصله إلى عصره .

### منهجه :

وقد رتب ابن الأثير أخبار العالم الإسلامي على السنين وقد أشار إلى منهجه في تدوين الخبر ، فقال : « ورأيتهم ( أصحاب مصادره ) يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ، ويدكرون منها في كل شهر أشياء ، فتتأتى الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم الا بعد امعان النظر ، فجمعت أنا الحادثة في موضوع واحد ، وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت ، فأدت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض .

« وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها . فاما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فائنة او فردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة فأقول ( ذكر عدة حوادث ) .

« اذا ذكرت بعض من تبع وملك في قطر من البلاد ولم تطل أيامه ، فاني اذكر جميع حاله من أوله الى آخره عند ابتداء أمره ، لأنه اذا تفرق خبره لم يعرف للجهل به .

« وذكرت في آخر كل سنة من توفي فيها من مشهورى العلماء والأعيان والفضلاء .

« وضيّبت الأسماء المشتبهة المؤتلة في الخط المختلقة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطاً يزيل الأشكال ، ويعنى عن الانقاض والأشكال » .

وقد التزم ابن الأثير بهذا المنهج ، فيما عدا الحالة الأولى ، فانه لم يلتزمها دائماً ، مثل ثورة الزنج التي استمرت أربع عشرة سنة ، فانه ذكرها مقطعة على السنين كما ذكرها مصدره الطبرى ، ولكنه عمد في الحادثة التي تستمر سنة واحدة ، وذكرها مصدره مقطعة على الشهور ، عمد إلى جمعها في سياق واحد ، مثال ذلك ، حادث اغارة « حبasse » على مصر في سنة ٣٠٢ ، الذى نقله من الطبرى ، فقد ذكره الطبرى مقطعاً على ست مراحل ، دون كل مرحلة في الشهر الذى وقعت فيه ، وأدخل بين كل مرحلة وأخرى أخباراً غريبة عن الحادث ، ولتقريب المثال ، نورد الحادث كما دونه الطبرى مقطعاً ، والحادث نفسه كما دونه ابن الأثير متسقاً :

خبر الطبرى : « وفيها دخل حبasse صاحب ابن البصرى الاسكندرية وغلب عليها ، وذكر أنه وردها في مائتى مركب فى البحر .

« وفيها ، وفى حبasse صاحب ابن البصرى موضوعاً من فسطاط مصر ، على مرحلة يقال لها « سقط » ثم رجع منه إلى وراء ذلك ، فنزل منزلة بين الفسطاط والاسكندرية .

« وفيها شخص مؤنس الخادم إلى مصر لحرب حبasse ، وقوى بالرجال والسلاح والمال .

« وفيها كانت وقعة بمصر بين أصحاب السلطان وحبasse لست بقوتين من جمادى الأولى منها ، فقتل من الفريقين جماعة ، وجرحت منهم جماعة ؛ ثم أخرى بعد ذلك بيوم نحو التى كانت في هذه ؛ ثم ثلاثة بعد ذلك في جمادى الآخرة منها . ولأربع عشرة بقيت من جمادى

الآخرة منها ، ورد كتاب بوقعة كانت بينهم ، هزم أصحاب السلطان فيها المغاربة .

« واحدى عشرة بقىت من رجب ، ورد الخبر من مصر أن أصحاب السلطان لقوا حبasse وأهل المغرب يقاتلونهم ، فكانت الهزيمة على المغاربة فقتلوا منهم وأسروا سبعة آلاف رجل وهرب الباقيون مغلوبين . وكانت الواقعة يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة .

« وفيها انصرف حبasse ومن معه من المغاربة عن الاسكندرية راجعين الى المغرب بعدهما ناظر - فيما ذكر - حبasse عامل السلطان بمصر على الدخول اليه بالأمان وجرت بينهما في ذلك كتب . وكان انصرافه - فيما ذكر - لاختلاف حدث بين أصحابه في الموضع الذي شخص منه » .

خبر ابن الأثير : « وفيها ، أنفذ أبو محمد عبد الله العلوى الملقب بالمهدى ، جيئا من افريقيا مع قائد من قواده يقال له « حبasse » الى الاسكندرية ، فغلب عليها ؛ وكان مسيره في البحر ، ثم سار منها الى مصر ، فنزل بين مصر والاسكندرية ، فبلغ ذلك المقتدر ، فأرسل مؤنسا الخادم في عسكر الى مصر لمحاربة حبasse وأمده بالسلاح والمال ، فسار اليها ، فالتحقى العسكران في جمادى الأولى فاقتتاوا قتالا شديدا ، فقتل من الفريقيين جمع كثير وجراح مثلهم ؟ ثم كان بينهم وقعة أخرى بنحوها ، فكان مبلغ القتلى سبعة آلاف مع الأسرى وهرب الباقيون ، وكانت هذه الواقعة سلخ جمادى الآخرة ، وعادوا الى المغرب . فلما وصلوا الى المغرب ، قتل المهدى حبasse » . وهكذا صاغ ابن الأثير حادث الطبرى المقطع فى صيغة واحدة ، فأصبح الخبر سياقا واحدا مقبولا لدى القراء ؟ ثم نلاحظ أن ابن الأثير أهمل بعض المعلومات من خبر الطبرى وزاد عليه معلومات أخرى .

أما الترجمة لكل حادثة ، فإن ابن الأثير يعني أنه وضع عنواناً لكل حادثة يفصح عن مضمونها ، والواقع أن هذه ميزة كبيرة من مميزات ابن الأثير يفضل بها من سبقه من المؤرخين الذين جرى بعضهم على تدوين الأحداث بدون وضع عنوانين لها ، بل بدون ترتيب موضوعى ، وإنما يدونون أخبار السياسة والحروب والظواهر الجوية والأرضية ، والأمراض والأوبئة والوفيات مختلطة بعضها بعض ، الأمر الذي يتطلب من الباحث قراءة أخبار السنة كلها حتى يصل إلى الخبر الذي يطلبه ، فالدينوري وابن الجوزي - على سبيل المثال - أهلاً وضع عنوانين لأخبارها ، وابن الجوزي يخلط أحداث السنة بعضها بعض ، فيما عدا الوفيات ، فإنه يفردها في آخر أخبار السنة .

وأما الحوادث الصغار التي يعنيها ابن الأثير ، والتي وضعها تحت عنوان ( ذكر عدة حوادث ) فهي الأخبار الفرعية للأحداث هامة سبق أن ذكرها بتوسيع ، وكذلك الأخبار الصغيرة التي لا تحتمل عنواناً ، مثل مصادرات الخليفة أو السلطان للمغضوب عليهم من كبار الموظفين ، كذلك الأخبار المحلية ، مثل الصدام بين السنة والشيعة في بغداد ، وأخبار الظواهر الجوية ، والأرضية ، وأخبار الغلاء والأوبئة والأمراض . وفي نهاية هذه الأخبار - وتحت نفس العنوان - يترجم للمشاهير الذين توفوا في السنة .

### موضوع الكتاب :

وقد نص ابن الأثير في مقدمة الكتاب على موضوعه ، فقال : أنه جمع فيه « أخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما » متضمنة « الحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً إلى وقتنا هذا » . فموضوع الكتاب أذن ، هو تاريخ العالم القديم منذ بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام ، وتاريخ العالم الإسلامي منذ

ظهور الاسلام حتى عصر المؤلف ، اى الى سنة ٦٢٨ - وهي السنة التي أنهى بها ابن الأثير كتابه - اى أن الكتاب يغطي فترة زمنية من التاريخ الاسلامي طولها أكثر من ستة قرون وربع القرن .

ففي الزمن القديم ، أرخ ابن الأثير بدء الخليقة ، فذكر أول المخلوقات ، كالارض والسماء ، والشمس والقمر والبحار والجبال والرياح والليل والنهار وقصة ابليس وما كان له من الملك ، وخلق آدم وحواء واخبارهما في الجنة وحبوطهما منها إلى الأرض ، وقصة قابيل وهاابيل ، وولادة شيث ، ثم وفاة آدم وأخبار ذريته بعد وفاته ، كذلك أرخ للأنبياء والرسل فذكر حوادثهم مع أقوامهم ، حتى وصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، فذكر مولده وتاريخ حياته ودعوته في مكة إلى ما قبل الهجرة . وأرخ أيضاً الأمم السابقة: الفرس ، والروم ، واليونان ، وبني اسرائيل ، والعرب ، فذكر أصل كل أمه ونسبها وحروبها وعلاقتها بعضها ببعض . فذكر في تاريخ الفرس سير ملوكهم منذ ملوكهم الأول « طهمورث » حتى الملك يزدجرد الذي غزا المسلمين بلاد العراق وفارس في عهده أيام الخليفة الأول أبي بكر ، فذكر أسماء ملوكهم ، وظروف ولاية كل ملك و مدح حكمه والأحداث التي حدثت في عهده ، مثل: الحروب مع الترك ، والروم ، واليهود ، والآشوريين والعرب ، وغزو الاسكندر المقدوني لبلادهم ، كذلك ذكر أخبار حكمهم وسياساتهم لشعوبهم ، ونظمهم العربية والإدارية والمالية . وذكر في تاريخ بنى اسرائيل ، أخبارهم مع أنبيائهم منذ أن كانوا في مصر وبعد خروجهم منها إلى فلسطين ، وذكر ما أصابهم على يد الفرس والروم من الاضطهاد والحروب والتخييب . وذكر في تاريخ ( الروم )<sup>(١)</sup> صراعهم مع

(١) يلاحظ أن ابن الأثير أطلق اسم « الروم » على سكان آسيا الصغرى منذ القدم ، وهم الأفريقيون ، ولم يطلق عليهم اسم « الروم » إلا بعد تأسيس القسطنطينية .

الفرس وغزو الاسكندر لبلادهم ، وظهور عيسى عليه السلام ، وقصة أصحاب الكهف ، ثم يصل بأخبارهم حتى ظهور الاسلام . وذكر في تاريخ اليونان ظهور الاسكندر ، فذكر نسبة وخروجه من بلاده « مقدونيا » غازيا واستيلاه على الشام ومصر والجزيره والعراق وبلاط ( الروم ) والترك والصين ، وبناءه السد ( سد ياجوج وماجوج ) ، ثم ذكر وفاته ، وانقسام امبراطوريته بين خلفائه ، فذكر أسماء البطالمه الذين حكموا مصر ، وفي تاريخه للمغرب ذكر صراعهم مع الفرس ، وحدث الفيل ، وملائكتي الحيرة وغسان ، وأيام العرب في الجاهلية . وفي تاريخه للعرب ، ذكر مولد النبي عليه الصلاة والسلام ، ووفاة أبيه ، وطفولته وشبابه ، وزواجه من السيدة خديجة ، والنبوات عن ظهوره كنبي قبل مولده ( والمعجزات ) التي مهدت لنبوته ثم بعثته وتبشيره بالدعوة في مكة وعارضه قريش له ، واستجابة العدد القليل من أبناء مكة للدعوة ، وما لقيه النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون الأوائل من عنت قريش واضطهادها ، ثم هجرة المسلمين إلى الحبشة وعودتهم منها إلى مكة .

وأما تاريخه للعالم الاسلامي فقد بدأه بالسنة الأولى للهجرة ، هي السنة التي هاجر فيها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى المدينة ، والأخبار من السنة الأولى حتى السنة الحادية عشرة - وهي السنة التي توفي فيها النبي عليه الصلاة والسلام - كلها عن الأحداث في عصر النبوة لم يخرج عن نطاقه ، فدون أخبار السرايا والغزوات ، وعلاقة المسلمين بأعدائهم قريش واليهود ، وانتهاء الصراع بين النبي عليه الصلاة والسلام وقريش بفتح مكة ، وانتهى تاريخ السيرة بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام .

وبوفاة النبي ظهرت الخلافة ، فدون ظروف استخلاف الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، والأحداث التي حدثت في

عهدهم ، مثل حروب البردة أيام أبي بكر الأولى ، ومقتل الخليفة عمر ، والثورة ضد الخليفة عثمان التي أدت إلى مقتله ، والخصومة بين علي بن أبي طالب من ناحية وبين الزبير وطلحة والسيدة عائشة من ناحية أخرى والتي نتج عنها موقعة الجمل ، وكذلك الخصومة بين على من جانب ومعاوية بن أبي سفيان من جانب آخر والتي نتج عنها موقعة صفين ، ومقتل علي ، وانفراد معاوية بالخلافة . كذلك دون أخبار الفتوحات الإسلامية في عهد الراشدین والأمويین والعباسيین . ففي المشرق ذكر فتوح العراق وما يقع شرقه من الأقاليم : كفارس ، وتركستان ، وطبرستان ، واقليم ما وراء النهر ، والهند والسندي وغيرها . وفي المغرب ، ذكر فتوح افريقيا والأندلس ، وجزر البحر المتوسط : قبرص ، وصقلية ، وكريت ، وازواد . وفيما بين المشرق والمغرب ، ذكر فتوح الشام ومصر وآسيا الصغرى واليمن والبحرين وغيرها .

وفي تاريخه للخلافة الأموية ، دون الأحداث التي واجهها الخلفاء الأموييون ، كثورة الحسين بن علي التي انتهت بقتله سنة ٦١ هـ ، وثورات العلویین بعده ، وثورة الخوارج ، ومناسبة عبد الله بن الزبير بن العوام للأمويین على الخلافة التي انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ . كذلك دون أخبار مؤامرات العباسیین والعلویین لاسقاط الخلافة الأموية التي بدأت من سنة مائة للهجرة حتى نجحوا وقضوا عليها في سنة ١٣٢ هـ ، فاستأثر العباسیون بالخلافة دون العلویین ، فدون الأثير أخبار الأحداث الكبرى أيام الخلافة العباسية ، كالثورات ضدها وهي كثيرة ، كان بعضها خطيراً ، وأهمها : خروج العلویین أكثر من مرة ، مثل خروج عبد الله بن علي سنة ١٣٧ ، وخروج الرواندية سنة ١٤١ ، والحرمية سنة ٢٠١ ، والزط سنة ٢١٩ ، والزنج سنة ٢٥٥ ، والقراطمة سنة ٢٨٦ ؛ كذلك ظهرت في عصرها – في المشرق – الأسرات الحاكمة المتغلبة

على الخلافة ، وقد استبدت كل أسرة بالإقليم الذي كانت تحكمه باسم الخلافة واستقلت به ، والأسر التي ظهرت ، ودون ابن الأثير أخبارا كثيرة ، أهمها : الأسرة الطاهرية سنة ١٩٥ ، والسامانية سنة ٢٠٤ ، والصفارية سنة ٢٥٣ ، والبوهيمية سنة ٣٢١ ، والسلجوقية سنة ٣٢٤ ، وقد بسط البوهيميون والسلجوقيون نفوذهم التام على الخلافة والخلفاء ، واستبدوا بادارة البلاد سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، ولم يبقوا للخلفاء الا السلطة الروحية . وفي المغرب انفصل الأندلس عن الخلافة العباسية في سنة ١٣٩ هـ بزعامة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بعبد الرحمن الداخل ، كذلك انفصلت افريقية عن الخلافة العباسية نهائيا بظهور الفاطميين فيها في سنة ٢٩٦ . أما ما بين المشرق والمغرب ، أي مصر والشام ، فظهرت الأسرة الطولونية في سنة (٢٩٢ - ٢٥٤ هـ) والاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨) والحمدانية بحاب سنة ٢٩٣ وبالموصل سنة ٣٣٣ ، ثم جاء الفاطميون من افريقية واستولوا على مصر والشام (٣٥٨ - ٥٦٧) ، وظلتا منفصلتين عن الخلافة العباسية حتى أعيدتا إليها - اسميا - بعد القضاء على الخلافة الفاطمية . هذا وقد دون ابن الأثير أخبار الصراع والحروب بين المتنافسين من الأسر الحاكمة في المشرق على النفوذ والتوسيع الإقليمي ، إلى أن ظرت الأسرة الخوارزمية سنة ٤٩٠ ، فدون ابن الأثير أخبار الحروب التي أثارها ملوك الأسرة ، ضد ملوك وأمراء الأقاليم المجاورة لهم ، واستيلائهم على اماراتهم حتى استنفدوها قوتهم وقوة المشرق كله حتى كان خروج التتر إلى المشرق في سنة ٦١٦ ، فلم يستطع الخوارزميون صد زحفهم ، فانتشروا في الإقليم كله ، وأعملوا فيه التخريب والتدمير والقتل . كذلك دون ابن الأثير أخبار الشعوب الأخرى التي ظهرت على المسرح السياسي والحربي ، مثل : الخطأ ، والغور ، والغز ، والكرج ، والحروب

التي دارت فيما بينهم من ناحية وبينهم وبين السلطات الحاكمة من ناحية أخرى .

وفي المغرب تتبع ابن الأثير أخبار افريقيا والأندلس منذ أن فتحهما المسلمون ، فذكر أهم الأحداث التي حدثت في افريقيا في عصر ولادة الخلفاء الراشدين والأمويين بدون أخبار محاولات الولاة في التوسع ، والمنافسات على الحكم ، وظهور الأسر المختلفة فيها ، وأهمها : الأدارسة ، والأغالبة ، والفاتميون ، والزيريون ، والمرابطون ، والموحدون ، بدون الأحداث التي حدثت في عصر كل أسرة ، كاستيلاء الفاطميين على مصر ، وتدخل المرابطين والموحدين في شئون الأندلس عندما ظهرت الحركة الاسبانية القومية .

كذلك تتبع أخبار الأندلس منذ أن فتحها المسلمون ، فذكر محاولات المسلمين التوسعية على حساب بلاد غالطة (فرنسا الحالية) في عصر الولاة ، وأخبار المنافسات التي قامت بين القبائل العربية والبربر ، وبين القبائل العربية وبعضها على السلطة والنفوذ حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية الأموي وأسس فيها الدولة الأموية ، بدون أخبارها في عصر الأمويين حتى أصابهم الضعف ، فظهر ملوك الطوائف ، وظهرت في الوقت نفسه حركات الاسترداد الاسبانية ونجاح الاسبان في استرداد كثير من البلاد من المسلمين ، وتدخل حكام افريقيا كالمرابطين والموحدين في شئون الأندلس ومحاولتهم الحفاظ على البلاد وفشلهم حتى أدى الأمر إلى استرداد الاسبان بلادهم من المسلمين .

غير أنه يلاحظ أن أخبار ابن الأثير عن افريقيا والأندلس أخذت تقل تدريجياً منذ سنة ٥٦٩ حتى انقطعت عنده تماماً في سنة ٥٩٥ ، ولعل سبب ذلك هو عدم حصوله على مصادر مكتوبة . ولعده بسبب فقدان المصادر الخبرية عن افريقيا والأندلس ، جمع

المستشرق « فانيان » أخبارهما من ابن الأثير ، وترجمها إلى اللغة الفرنسية ونشرها في الجزائر في سنة ١٩١٠ .

وأما ما بين المشرق والمغرب ، الشام ومصر ، فقد تتبع ابن الأثير أحداثهما منذ أن فتحهما المسلمون ، فذكر أحداث مصر الداخلية والخارجية في عصر الولاة وفي عصر الطولونيين والأخشيديين والفااطميين والأيوبيين حتى سنة ٦٢٨ هـ . ومن أهم أحداث مصر الخارجية علاقاتها بالامبراطورية البيزنطية، وتهديد الصليبيين لها منذ دخواهم الشام سنة ٤٩٠ هـ . كذلك تتبع أحداث الشام ، فذكر أخباره منذ أن فتحه المسلمون حتى سنة ٦٢٨ ، فذكر الأحداث التي مرت بالبلاد في عصر الولاة وفي عصر العباسيين واقتطاع الفاطميين لها من الخلافة العباسية ، ثم ذكر الغزو الصليبي لها في نهاية القرن الخامس الهجري ، فدون أخبار الحروب التي قامت بينهم وبين المسلمين . وقد توفي ابن الأثير في سنة ٦٣٠ ، وما زال الصليبيون يحتلون جزءاً كبيراً من البلاد .

وذكر ابن الأثير أيضاً ، احتكاك المسلمين بالشعوب البعيدة عنهم ، كالهنود ، والصينيين ، والروس ، وهي أخبار على قلتها ، تعنى اهتمام ابن الأثير باستيفاء أخباره عن العالم الإسلامي بحيث لا يفوته شيء منها .

وبالإضافة إلى ما دونه ابن الأثير من الأخبار السياسية والحربية ، فإنه عنى أيضاً بتدوين أخبار الحوادث المحلية في كل إقليم ، فدون - على سبيل المثال - أخبار الصراع بين السنة والشيعة في بغداد ، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية فيها وفي غيرها من الأقاليم الإسلامية وأثرها في الحياة المعيشية من رخص وغلاء ، وقطع ورقاء ، كذلك ذكر أخبار الأمراض والأوبئة . وترجم أيضاً بعض المشهورين في كل سنة في المناطق المختلفة من العالم الإسلامي .

وبعد هذا التعريف بكتاب الكامل ، لابد من تقييم أخباره ، وسوف نقيمها هنا بايجاز محيلين القاريء الى دراستنا المفصلة الواسعة المزمع نشرها قريبا .

فتاريخ ابن الأثير لبدء الخليقة والأنبياء يبدو عليه السطحية وعدم الدقة فمحاراة الطبرى فى تفصيل الأحداث الواردات فى القرآن بتتفاصيل أسطورية لا تقوم على سند تاريخى ، وانما تقوم على أحاديث مدخلولة لا يمكن صدورها عن النبى ، أو عن روايات يتناقلها المؤرخون القدامى ، وعلى كل حال ، فابن الأثير اعتمد اعتمادا كليا على الطبرى ، والطبرى طويل النفس فى تدوين الأخبار التى يحصل عليها فيدونها دون تمحيص أو تحقيق ، فأطال ابن الأثير نفسه مع الطبرى ، وان كان يتمتاز عنه فى أنه استنكر بعض الأخبار وناقشها مناقشة موضوعية تدل على بصيرة واعية ، ولذلك يستغرب من ابن الأثير عدم ثقته بأخبار بدء الخليقة والأنبياء ومع ذلك يصر على تذرعها ، والأغرب من هذا أن يشق بأخبار أخرى غير موثوق بها لشقتها بالسند لا لمعقولية الخبر . فمن الأخبار التى ناقشها بوعى ، ما ذكره الطبرى من أن سعيد بن المسيب كان يحلف بالله « ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ، ولكن سقطه حواء من الخمر حتى سكر ، فلما سكر قادته إليها فأكل منها » ، فيتعلق ابن الأثير على قول سعيد بقوله : « قلت : والعجب من سعيد كيف يقول هذا ، والله يقول في صفة خمر الجنة ( لا غول فيها ) » . ولكنه يقف موقفا متناقضا عن الخبر الذى ذكره الطبرى في حديثه عن النبي عليه الصلاة والسلام عن ( القول في الليل والنهار أيهما خلق قبل صاحبه ) حيث يقول ابن الأثير في نهاية الخبر : « قلت : وروى أبو جعفر ه هنا ، حديثا طويلا عدة أوراق عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الشمس والقمر وسيرهما ، فانهما على عجلتين ، لكل عجلة ثلاثة وستون عروة ، يجرها بعدها من الملائكة ، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض فذلك كسوفهم ،

ثم ان الملائكة يخرجونهما فذلك تجليهما من الكسوف ، وذكر الكواكب وسيرها وطلع الشمس من مغربها ، ثم يذكر مدينة بالمغرب تسمى « جابرسا » وأخرى بالشرق تسمى « جابرقا » ، ولكل واحدة منها عشرة آلاف باب ، يحرس كل باب منها عشرة آلاف رجل لا يعود الحراسة اليهم الى يوم القيمة ؛ وذكر ياجوج وماجوج ومنست وثاريس ، الى أشياء أخرى لا حاجة لذكرها » ثم يقول : « فأعرضت عنها ملنافاتها العقول ، ولو صح اسنادها لذكرناها وقلنا به ، ولكن الحديث غير صحيح ، ومثل هذا الأمر العظيم لا يجوز أن يسطر في الكتب بمثل هذا الاسناد الضعيف » . ومن هذا التعليق يتبيّن موقف ابن الأثير المضطرب من الخبر ، فبينما هو يرفضه لأنّه ينافي العقول – وهو هنا استعمل عقله – اذ به يذكر سببا آخر للرفض وهو عدم صحة الاسناد ، ومعنى هذا أنه لو اطمأن الى صحة الاسناد لقبل الخبر برغم ثقته ببطلانه لأنّه ينافي العقول ، فالمقياس عنده في الفصل بين صحة الخبر وكذبه ، هو الاسناد دون الاعتماد على العقل ، ومن هنا يتبيّن تأثر ابن الأثير بمنهج المحدثين في النقل والتدوين ، وهو منهج السند وليس نقد الحديث .

أما تاريخه للأمم السابقة ، فان فيه من الأخبار الغث والسمين ، وبخاصة أخبار الفروس ، حيث تتخللها أيضاً الخرافات أو الأساطير والمبالغات ، فقد أكثر من الأساطير المنسوبة لسلوك الفرس وخرافاتهم ، وهو وإن كان قد اعتذر أكثر من مرة لتدوينها ليشنع على الفرس لأنّهم كثيراً ما يشنعون على العرب ، ولكنه نسي أنه دون إلى جانب أساطيرهم وخرافاتهم أخبار سياسة ملوكهم ، وصلاحية حكمهم ، وأنه أبدى اعجابه أكثر من مرة بهؤلاء الملوك ، وكأنه بهذا الاعجاب وما ذكره من الأخبار المقبولة ، قد أفسد عليه غرضه من التشنيع على الفرس ، فقد ذكر بعض نظمهم السياسية والحربية والاقتصادية ، وهي نظم استفادت منها شعوب أخرى كال المسلمين ، فمن نظم الفرس الاقتصادية ، ما ذكره عن نظام الخراج والجزية الذي

وضعه كسرى أتوشروان ، والذى عمل به الخليفة الثانى عمر بن الخطاب مع تعديل بسيط . يقول ابن الأثير تحت عنوان ( ذكر ما فعله كسرى فى أمر الخراج والجزية ) : « كان ملوك الفرس يأخذون من غلات كورهم قبل ملك كسرى أتو شروان خراجها : من بعضها الثالث ، ومن بعضها الرابع ، وكذلك الخامس والسادس على قدر شربها وعمارتها ، ومن الجزية شيئاً معلوماً ، فأمر الملك قباد بمسمى الأرضين ليصبح الخراج عليها ، فمات قبل الفراع من ذلك ، فلما ملك أتو شروان ، أمر باستتمام ذلك ، ووضع الخراج على الحنطة والشعير والكرم والرطب والتخل والزيتون والأرز ، على كل نوع من هذه الأنواع شيئاً معلوماً ، ويؤخذ في السنة في ثلاثة أنجم ، وهي الوسائل التي اقتدى بها عمر بن الخطاب - وكتب كسرى إلى القضاة في البلاد نسخة بالخراج ليتمكن العمال من الزيادة عليه ، وأمر أن يوضع عن أصابع غلته جائحة ، وألزموا الناس جزية ما خلا : العظاماء ، وأهل البيوتات ، والجند ، والهراطقة ، والكتاب ، ومن في خدمة الملك ، كل إنسان على قدره : اثنى عشر درهما ، وثمانية دراهم ، وستة دراهم ، وأربعة دراهم ، وأربع قطعها عمر ابن الخطاب « عن لم يبلغ عشرين سنة أو جاوز خمسين سنة » . ومثل هذا الخبر وغيره يفيد الباحثين المحدثين في معرفة المصادر الأساسية للنظم الإسلامية .

وفي أخباره عن الأسد كندر المقدوني ، يعتبره ابن الأثير أنه « ذو الغرذين » الوارد ذكره في القرآن ، ولعله تأثر باليعقوبي الذي يقول بهذا القول ، ومن ثم أخذ يطبق أعماله على ما ورد في القرآن عن « ذي القرنيين » .

وأضيبط تواريخ ابن الأثير عن الأمم السابقة ، هو تاريخه لبطالمة مصر ، فهو يتفق والدراسات الحديثة في أسمائهم ومدة حكم كل بطلمى . وكذلك تأريخيه للروم ، فإنه يتفق المؤرخ الإنجليزى

«رنسان» في أسماء تسعه عشر ملكا - من أصل واحد وعشرين ملكا - من ملوك القسطنطينية المسيحيين الذين يبدعون بقسطنطين وبنتهون بفوقاوس ، كذلك يتتفقان في مدة حكم كل ملك ، فيما عدا بعض اختلافات بسيطة . كذلك يتتفقان في عدد المجامع الدينية المسيحية التي عقدت في بيزنطة وأسباب انعقادها وقراراتها .

وأما تاريخه للسيرة ( سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ) ، فإنه محدث وأيضا بالخرافات والمبالغات ؛ وهي التنبؤات عن مولد النبي ، وقبل بعثته وبعدها ، ويوردها ابن الأثير على أنها معجزات للنبي ، والواقع أنها أخبار يظهر فيها الصنعة والتتكلف من رواتها الأول ، مثال ذلك ما ذكره من أن زرادشت نصح أتباعه في كتاب « بازند » : « تمسكوا بما جئتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » فيه قول ابن الأثير ، إن زرادشت « يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك على رأس ألف سنة وستمائة سنة » . ويدرك من أخبار دلائل نبوة النبي قبل بعثته ، الخبر التالي عن جبير بن مطعم ، أنه قال : « كنا جلوسا عند صنم « بوابة » قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر ، ونحرنا جزورا ، فإذا صائح يصيح من جوف الصنم : اسمعوا إلى العجب ، ذهب استراق الوحي ونرمى بالشهب لنبي بمكة اسمه أحمد ، مهاجره إلى يثرب . قال (جبير) : فامسكنا وعجبينا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم » ومثل هذه المبالغات المتتكلفة كثيرة ، نكتفي منها بما ذكرنا ، وأما الأخبار الصحيحة والمقبولة شكلا ومواضعا ، فإن ابن الأثير لم يأت بجديد عما ذكره السابقون عليه من مؤرخي السيرة وغيرهم من المؤرخين .

أما تاريخه للعالم الإسلامي - بعد السيرة - فهو موضع الاعجاب والتقدير حقا ، لاتزان أخباره ، وجديتها ، ودسامتها وأهميتها ، بحيث أنها - اليوم - المصدر الأساسي للدارسين المحدثين من شرقين وغربين ، وميزات ابن الأثير في تاريخه للعالم الإسلامي كثيرة ،

تمنعوا هذه العجالة من الاسترسال والوصف ، ولذلك نستعرض  
أهمها استعراضاً موجزاً فيما يلي :

- بروز شخصيته في أخباره : ويتمثل في نقده لأصحاب  
مصادره ، وفي مناقشته الأخبار والتعليق عليها ( وقد سبق الحديث  
عنها في الفصل السابق ) .

- أسلوبه : كتب ابن الأثير تاريخه بالأسلوب النثري المرسل ،  
وتجنب الزخرفة اللغوية ، والألفاظ الحوشية ، فخلت كتاباته من  
التعقييد ، واهتم بابراز المادة الخبرية بعبارات موجزة ولكنها واضحة .  
ومع ذلك نجد في أسلوبه حيوية ونشاطاً ، وفيه فكاهة ودعابة ، فهو  
يستشهد بالشعر في بعض المناسبات ، ويعملق على بعض الأحداث  
والأخبار تعليقات ساخرة ، ويضرب الأمثلة المناسبة للحدث ، ومنها  
أمثال تجري على السنة العامة - مثال ذلك ، أنه لما حاصر الصليبيون  
دمياط سنة ٥٦٥ هـ ، استباح نور الدين محمود بلادهم في الشام  
واستولى على بعضها ، فلما عان الصليبيون بذلك وتأكد لهم عجزهم  
في الاستيلاء على دمياط عادوا إلى الشام مسرعين ، فيسخر ابن الأثير  
منهم ويعملق على عودتهم بقوله : « وهذا موضع المثل ، خرجت النعامة  
تطلب قرنين رجعت بلا أذنين » . ويدرك أيضاً في أخبار سنة ٦١٥ ،  
أن كل من صاحب مدينة سنحار ورجال حكومته تخوفوا من بعضهم  
بعضاً ، فعم صاحب سنحار على الغدر بهم ، فسبقوه وخانوه ، فيقول  
ابن الأثير : « فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم » .

- انفعالاته : وهذه ظاهرة - أو ميزة - قلما نجدها عند غيره من  
المؤرخين وهي تسجيله انفعالاته مع الأحداث - سواء كانت انفعالات  
رضي أو استنكار - وإن كانت سابقة على عصره ، وهو يسجل  
انفعالاته أما عن طريق النقد أو التعليق ، وهذه الانفعالات تزيد من  
توضيح صورة الحادث الذي يدونه . فهو يذكر في ترجمته لنقفور  
ملك الروم شدته على المسلمين والبلاد التي استولى عليها منهم ، ثم

يقول : « وتم له ما أراد باشتغال ملوك الاسلام بعضهم ببعض » . وكان الملك جلال الدولة بن بهاء الدولة البوبيهى سبئي السيرة ضعيفا ، ومع ذلك امتد حكمه لفترة طويلة ، فيقول ابن الأثير : « ومن علم سيرته وضعفه ، واستيلاء الجناد والنواب عليه ، ودوام ملكه الى هذه الغاية ، علم أن الله على كل شيء قادر ، يؤتى الملك من يشاء وينزعه من يشاء » . ومن تعليقاته الراضية ، ففي ترجمته لركن الدولة البوبيهى - وكان حسن السيرة - يقول : « فدام مرضه الى أن توفي ، فأصيب الدين والدنيا جميعا ، لاستكمال جميع خلال الخير فيه » ، وغير ذلك من الانفعالات التي نذكرها في حديثنا عن تدوينه **أخبار الحروب الصليبية** ، والغزو التترى .

- التنبيهات : وينذكرها ابن الأثير في الخبر ، سواء في ثنائياته أو في نهايته تذكرة للقاريء ، أهمها تنبيهه اذا كان للخبر بقية تأتى في السنة التالية ، مثل ذلك ، ما ذكره تحت عنوان ( ذكر حال وشميء بعد قتل أبيه ) سنة ٣٢٣ ، حيث يذكر ما حدث بين « وشميء » وبين نصر أحمد السامانى وما كان بن كاتى ، ثم يقول في آخر الخبر « وسند ذكر باقى خبرهم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة » رهذا التنبيه هام ، لأن ابن الأثير ينهى الخبر بقوله : « ولما سار ما كان عن كرمان عاد إليها أبو علي محمد بن الياس فاستولى عليها ، وصافت له بعد حروب له مع جنود نصر بكرمان ، وكان الظفر له أخيرا » فيفهم من هذه الخاتمة بأن الحادث قد انتهى إلى هذا الحد ، ولكن تنبيه ابن الأثير هنا ينبيه القاريء إلى أن الحادث لم ينته بعد ، وأن له بقية في سنة ٣٢٤ ، فيتابع الخبر إلى هذه السنة . وكذلك تنبيهه إلى اختلاف الروايات في الحادث الواحد ، مثل ذلك . ما ذكره تحت عنوان ( ذكر هروب ابن المهلب ) سنة ١٠١ ، فيبعد أن ذكر سبب خوف ابن المهلب من الخليفة ، قال : « وقيل في سبب خوف ابن المهلب من يزيد بن عبد الملك ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى » . وقوله تحت عنوان ( ذكر انقراض دولة بنى سبكتكين ) سنة ٥٤٧ ،

وظهور دولة الغورية : « وبالجملة ، فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلف ، لو ينكشف الحق فأصلحه ان شاء الله تعالى » .

- ضبط الأسماء المشتبهة ، المؤتلفة في الخط المختلفة في المفظ مثل « البريدى » فقد ضبطه هكذا : ( بالباء الموحدة والراء المهملة ) ، منسوب الى البريد . كذلك شرح الألفاظ الأعجمية وغيرها التي ترد في الأخبار ، مثال ذلك :

شباشى : وهو لفظ تركى ، معناه : قائد الجيش .

كاکويه : وهو لفظ بلغة الديلم ، معناه : الحال .

رتيل رنه : اسم مكان ، هو : مضيق رنه .

البستان : اسمه في لغة أهل المغرب « البحيرة » ، وتسمى وقعة حدثت في المغرب في سنة ٥١٤ « وقعة البحيرة » ، أي وقعة البستان . وغير هذه الألفاظ التي شرحها كثير .

كذلك يعرف بأهمية بعض الأماكن ، فيقول عن مدينة « هرمز » ، « فان هرمز مرسى عظيم ، ومجمع للتجار من أقصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد » .

ويلاحظ أن ابن الأثير ، جرى على تجريد أخباره من « السنن » في تاريخه الا في مناسبات قليلة . واهمال ابن الأثير « السنن » ليست بدعة ابتدئها ، وإنما سبقه إليها مؤرخون سابقون عليه بقرون ، جردوا أخبارهم منه ، مثل : الدينوري ( توفي سنة ٢٨٧ ) في كتابه « الأخبار الطوال » ، واليعقوبي ( توفي بعد سنة ٢٩٢ ) في تاريخه المعروف باسمه ، ومسكويه ( توفي سنة ٤٢١ ) في كتابه « تجارب الأمم » . ولعل ابن الأثير اقتفى اثرهم تفهمًا منه أن قراء التاريخ من ذوى الثقافة المتوسطة - الذين يهمهم الخبر أكثر مما يهمهم السنن - أكثر عدداً من المتخصصين الذين يهمهم معرفة

السند مع الخبر ، ولذلك ، رأى أن الأكثريّة أحق بالرعاية ويسير القراءة لهم من الأقلية المتخصصة ، فضلاً عن أن ذكر السند تتحمله المطولات وتحتاج إليه الكتب ذات الموضوعات الخاصة . أما المختصرات ( وابن الأثير يعتبر كتاب منها ) فإنها تعمد إلى التجاوز عند السند . لأن الفرض من الأخبار التاريخية هو الافادة والتعليم .

### مصادره :

استعمل ابن الأثير المصادر بأنواعها : المصنفات ، والوثائق ، والنقوش ، والآثار ، والرسائل الشخصية ، والعاصرين ، ومشاهداته بطبيعة الحال . ويختلف استعماله لكل نوع من هذه المصادر من حيث انكثرة والقلة بحسب امكانياته .

وأوسع المصادر استعمالا هي المصنفات بطبيعة الحال ، وقد تخير ابن الأثير منها الموثوق بها ، فقد اعتمد على أمهات المصنفات التي تؤرخ القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، وقد سمي هذه المصنفات في كتابه باعتبارها مصادره الرئيسية التي نقل منها حتى سنة ٤٤٧هـ ، وقد كان من حسن حظ ابن الأثير ، أن هذه المصادر سلسلة متصلة الحلقات يكمل بعضها بعضا ، فالكتاب الأول الذي اعتمد عليه هو « تاريخ الأمم والملوك » للطبرى الذي يبدأ من بدء الخليقة وينتهي سنة ٣٠٢هـ . والكتاب الثاني هو تاريخ ثابت بن سنان الذي يبدأ سنة ٢٦٥ وينتهي سنة ٣٦٣ ، والكتاب الثالث « تكملة تاريخ الطبرى » للهمذانى الذي ينتهي بسنة ٤٨٧ ، والكتاب الرابع « تجارب الأمم » لمسكويه الذي يبدأ من بدء الخليقة وينتهي بسنة ٣٦٩ ، والكتاب الخامس « ذيل تجارب الأمم » للوزير أبي شجاع الروزراورى الذي يبدأ سنة ٣٦٩هـ وينتهي سنة ٣٨٩ ، والكتاب السادس « تاريخ هلال الصابى » الذى يبدأ بسنة ٣٦٣ وينتهي بسنة ٤٤٧هـ ؛ بالإضافة

إلى كتاب «المنظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي الذي يبدأ بـ *بيداء الخليقة* وينتهي بسنة ٤٧٤، هذا بالإضافة إلى المصادر المساعدة التي نذكرها بعد . أما مصادره عن القسم المغربي وما بين المشرق والمغرب ، كالشام ومصر واليمن ، فإنه رجع إلى مصادر مشهورة ، ذكر بعضها وأغفل عن ذكر بعضها الآخر . وفيما يلي مصادر ابن الأثير التي رجع إليها ، سواء التي ذكرها هو والتي عرفناها نحن ، ولنست هي - بطبيعة الحال - كل المصادر التي رجع إليها :

#### ومصادره عن الزمن القديم :

- تاريخ الأمم والملوك : للطبرى
- أنساب الأشراف : للبلاذرى .
- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام : لحمزة الأصفهانى .
- الملوك والنحل : للشهم ستانى .

#### ومصادره عن السيرة :

- الطبرى : الكتاب السابق .
- البلاذرى : الكتاب السابق .

#### ومصادره عن مشرق العالم الإسلامي :

- الطبرى : الكتاب السابق .
- أخبار الخلفاء : للتميمي .
- تاريخ ثابت بن سنان .
- تجارب الأمم وتعاقب اليمم : لمسكويه .
- اليميني : للعتبى .

- كتاب التاريخ : لهلال الصابى
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى .
- ذيل تجارت الأمم : للوزير أبى شجاع الروزراورى .
- تكملة تاريخ الطبرى : للهمدانى .
- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزى .
- مسارات التجارب : للبيهقى .
- نصرة الفترة وعصرة القطرة : للعماد الكاتب الأصفهانى .
- ومصادره عن مغرب العالم الإسلامي ( افريقيا ، والمغرب ، والأندلس ) :**
- الطبرى : الكتاب السابق .
- تاريخ افريقيا والمغرب : للأمير عبد العزيز .
- فتوح مصر والمغرب : لابن عبد الحكم .
- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس : للمحميدى .
- ومصادره عن مصر :**
- الطبرى : الكتاب السابق .
- سيرة أحمد بن طولون : للبلوى .
- النكت العصرية فى الوزارة المصرية : لعمارة اليمنى .
- فتوح مصر والمغرب : لابن عبد الحكم .
- ومصادره عن الشام :**
- الطبرى : الكتاب السابق .
- ذيل تاريخ دمشق : لابن القلانسى .
- تاريخ دمشق : ابن عساeker .

- البرق الشامي :
- { للعماد الكاتب الأصفهانى .
- الفتح القسى فى الفتح القدسى
- تاريخ حلب : لابن العديم .

### ومصادره عن الموصل والجزيرة :

- الطبرى : الكتاب السابق .
- تاريخ الموصل : ابن اياس الأزدى .
- تاريخ العظيمى .

ومن مصادره المتنوعة أىضاً : دمية القصر للبخارزى ، والاكمال لابن ماكولا ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، ومشتتبه النسبة لعبد الغنى بن سعيد . هذا بالإضافة الى الكتب المعماة التى ذكرها ولم يصرح بأسماها أو أسماء مصنفيها .

وقد حظى كتاب «الكامل» بتنديير القدامى فأشادوا به واحتفلوا به ، فهم من قرط الكتاب :

- ابن خلkan ( فى ترجمته لابن الأثير فى كتابه وفيات الأعيان ) ، فقال عنه ، انه « من خيار التواريخ » .

- ووصفه ابن كثير ( فى ترجمته لابن الأثير فى كتابه البداية والنهاية فى التاریخ ) ، بأنه من أحسن مؤلفات ابن الأثير .

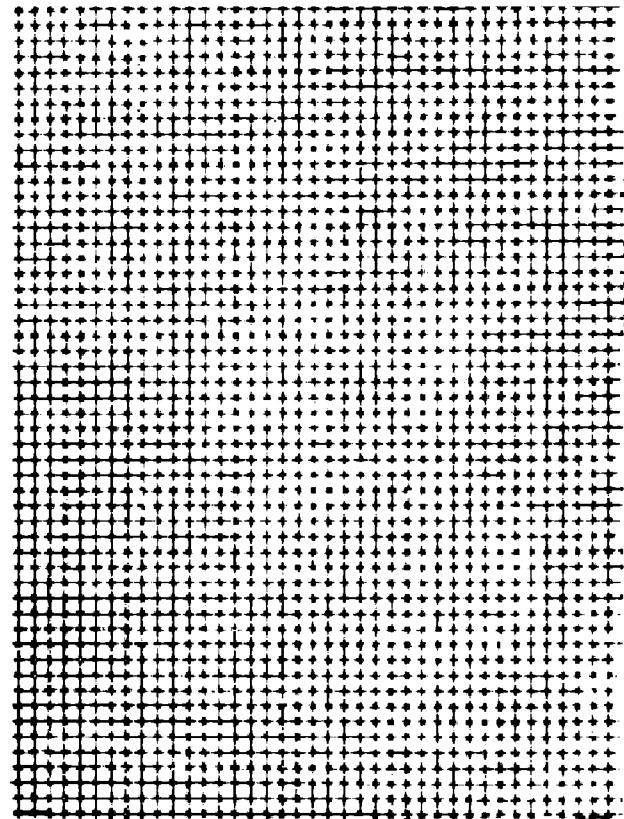
- وقال ابن الأكفانى ( فى كتابه ارشاد القاصد الى أنسى المقاصد ) ، ان « أضيطر التواريخ فى زماننا الذى جمعه ابن الأثير » .

- وقال السخاوى ( فى كتابه الاعلان بالتبسيط لمن ذم التاریخ ) : « وللأستاذ الحافظ العلامة العز أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزري ابن الأثير صاحب « معرفة الصحابة » و « الأنساب » وغيرها ، التاریخ المسمى بالكامل ، وهو

كاسمه بحيث قال شيخنا ، انه أحسن التوارييخ بالنسبة الى ايراد الواقع موضحة ببيانه حتى كان السامع في الغالب حاضرها من حسن التصرف وجودة الايراد ، قال : « بحيث خطر لي أن أذيل عليه من سنه وقف وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة - يعني قبل وفاته بستين - ولكن لم يتيسر لشيخنا ذلك ؛ نعم ذيل عليه أبو طالب على بن أنجب البغدادي الخازن المتوفى في سنة أربع وسبعين وستمائة » . وقد وصل ابن أنجب في تذيله إلى سنة ٦٥٦ ، وهي سنة سقوط الدولة العباسية ، وغيرهم .

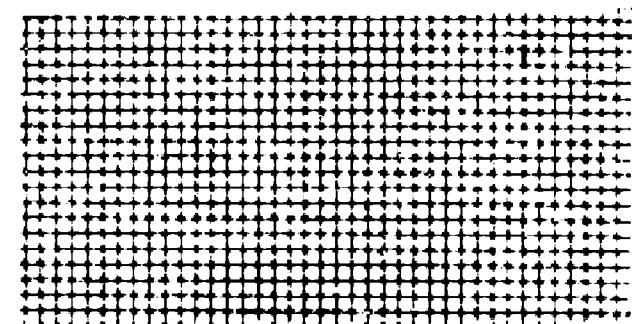
وأما من نقل عن الكتاب فانهم كثيرون ، نذكر منهم : سبط ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان » ؛ وأبو شامة في كتابيه « الروضتين في أخبار الدولتين » و « (الذيل على الروضتين) » (طبع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ) ؛ وابن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » ؛ وأبو الفداء في كتابه « المختصر في تاريخ البشر » ؛ وابن الساعي في كتابه « الجامع المختصر في عناوين التوارييخ وعيون السير » ، وابن خلدون في كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . وغيرهم .

أما تقدير المهتمين بالتاريخ الإسلامي من المحدثين المكتاب ، فيكفي القول أن جل اعتمادهم عليه في أبحاثهم ومؤلفاتهم عن التاريخ الإسلامي .



## الفصل الخامس

# تاريخ ابن الأثير أحداث عصره



يتميز ابن الأثير بانفراده – من بين معاصريه – كمؤرخ لأحداث خطيرين حدثا في المنطقة التي يعيش فيها والمناطق القريبة منها، وأرخهما بتوسيع من بدايتهما إلى ما قبل وفاته بستين ، ، أى إلى سنة ٦٢٨ ، وهما : الحروب الصليبية ، والغزو التترى . وسوف نتحدث عنهما بياجاز لضيق المقام ، ونحيل القارئ إلى دراستنا المفصلة الواسعة عنهما لكتاب « الكامل في التاريخ » .

### **الحروب الصليبية :**

فاما الحروب الصليبية ، فقد ظهر قبل ابن الأثير مؤرخون أرخوا للحروب ، مثل ، ابن زريق ، وابن أبي جراده ، والأثاربى المتوفى سنة ٥٢٠ ، وأخيرا ابن القلنسى المتوفى سنة ٥٥٥ . وبعد وفاة ابن القلنسى لم يظهر مؤرخ جامع للحروب الصليبية سوى

ابن الأثير الذي ولد في نفس السنة التي توفي فيها ابن القلansi . صحيح كان هناك العماد الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ، والقاضى بهاء الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ ، وابن أبي طى الحلبى المتوفى سنة ٦٣٠ ( أى في نفس السنة التي توفي فيها ابن الأثير ) والثلاثة أرخوا الحروب الصليبية ولكن لفترة محدودة . فالعماد الكاتب أرخها في كتابه « البرق الشامى » من سنة ٥٥٢ – وهى السنة التي دخل فيها الشام في خدمة نور الدين محمود – حتى سنة ٥٨٩ – وهى السنة التي توفي فيها صلاح الدين الأيوبى – ؛ والقاضى ابن شداد وابن أبي طى ، فانهما أرخا الحروب الصليبية في عصر صلاح الدين فقط ، الأول في كتابه « التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وهو عن صلاح الدين ، والأخر ( ابن أبي طى ) في كتابه « كنز المؤحدين في سيرة صلاح الدين » وهو عن صلاح الدين أيضا . أما ابن الأثير ، فإنه أرخ الحروب تأريخا جاما متصلة منذ بدايتها في سنة ٤٩١ حتى سنة ٦٢٨ ، أى إلى ما قبل وفاته بستين . فكان هو المرجع الأساسى لمن جاء بعده من أرخ الحروب الصليبية : كأبى شامة في كتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » وابن واصل في كتابه « مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب » وسبط ابن الجوزى في كتابه « مرآة الزمان » وغيرهم كثير .

ولم يعاصر ابن الأثير الفارة الصليبية منذ بدايتها ، وإنما عاصرها بعد خمس وستين سنة من استقرار الصليبيين في الشام ، فقد ولد في سنة ٥٥٥ كما سبق أن ذكرنا ، بينما كان دخول الصليبيين الشام في سنة ٤٩١ . وكان أول معرفته بالفارقة الصليبية ، وهو في سن التمييز ، ومن المؤكد أنه سمع بها من والده في مجالسه الخاصة عندما كان يحدث أصحابه عن ذكرياته عن بنى زنكى وسياستهم وحروبهم ضد الصليبيين ، ثم أخذت معلوماته عنها تزداد بمشاهداته حين كبر وبعد أن سافر إلى

الشام - ميدان الصراع الإسلامي الصاهي - وحضر فيها بعض المعارك الإسلامية الصليبية مع صلاح الدين الأيوبي .

وقد استعان ابن الأثير في تاريخ الفترة التي لم يعاصرها على المصادر السابقة عليه والتي ذكرناها آنفا ، كذلك استعان في بداية الفترة التي عاصرها بالعماد الكاتب ، وما بعدها اعتمد على مشاهداته ومن المعاصرين في الشام حيث تردد على الشام كثيرا أيام صلاح الدين وخلفائه وقد حضر مع صلاح الدين كثيرا من معاركه ضد الصليبيين - مشاهدا لا مشاركا في القتال - .

وقد تضمن تاريخ ابن الأثير المحروب الصليبية - بحسب التقسيم الحديث للحملات الصليبية - أخبار الحملات الأولى ، والثانية ، والثالثة ، والخامسة ، والستادسة . وأما الحملة الرابعة ، فقد كانت معدة لفزو المسلمين - كما يقول المؤرخون الأوربيون - ولكنها تحولت إلى القدسية لأسباب ذكروها ، ومع ذلك ، فقد ذكرها ابن الأثير أيضا ، وذكر أسبابها ، وربط بينها وبين الحملة الخامسة على الشام .

ومن أخبار ابن الأثير عن القوى الإسلامية التي واجهت الصليبيين على طول الحقبة التي أرخها (٩١ - ٦٢٨) يمكن تقسيمها إلى أربع مراحل ، تمتاز كل مرحلة عن سابقتها بوضع خاص بالنسبة للمسلمين والصليبيين على السواء ، ويظهر فارق وضع كل مرحلة ظهورا واضحا لا يحتاج إلى مجھود كبير لموازنة جھود القوى الإسلامية التي واجهت الصليبيين قوة بعد قوة ، ولذلك ، نستعرض تاريخ ابن الأثير الحروب - استعراضا موجزا في ضوء هذا التقسيم .

فالمرحلة الأولى : تبدأ منذ دخول الصليبيين الشام في سنة ٩١ حتى سنة ٥٢٠ ، وهي مرحلة المد الصليبي والانحسار الإسلامي ، ذلك أن القوة الإسلامية التي واجهت

الصلبيين كانت ضعيفة مفككة ، بحيث انتصر الصليبيون انتصاراً كاسحاً ، فاستولوا على الساحل الشامي كله ما عدا عقلان وعلى كثير من البلاد الداخلية في الجزيرة حتى وصلوا إلى العريش على حدود مصر كما يقول ابن الأثير .

والمرحلة الثانية : وتبعد من سنة ٥٢١ حتى سنة ٥٦٩ ، ومع أن الحملة الصليبية الثانية كانت في هذه المرحلة ، إلا أن المرحلة كانت مرحلة المد الإسلامي والانحسار الصليبي ، فقد كانت مرحلة اليقظة الإسلامية على يد عماد الدين زنكي وأبنه نور الدين محمود ، فقد استرد كل منهما كثيراً من البلاد التي كانت في يد الصليبيين ، وأهمها مدينة الرها التي كانت أول إمارة صليبية أسسها الصليبيون في الشام ، فاستولى عليها عماد الدين في سنة ٥٣٩ كذلك استولى نور الدين محمود على كل من دمشق ومصر بعد أن باغتا حداً كبيراً من الضعف فحال بذلك دون سقوطهما في أيدي الصليبيين .

والمرحلة الثالثة : وتبعد من سنة ٥٧٠ حتى سنة ٥٨٩ ، وفيها كانت الحملة الصليبية الثالثة ؛ وزعيم هذه المرحلة هو صلاح الدين الأيوبي ، وهي امتداد للمرحلة الثانية ( مد الإسلامي وأنحسار صليبي ) فقد استرد صلاح الدين من الصليبيين كثيراً من بلاد الساحل التي في يد الصليبيين كذلك استرد بيت المقدس منهم ، إلا أن المرحلة انتهت كما لا يحب المسلمون وكما أشتهي الصليبيون ، حيث تنازل صلاح الدين لملك إنجلترا عن كثير من البلاد الساحلية التي كان قد استردها ، وذلك بمحاجب الصالح الذي عقد مع الملك في سنة ٥٨٨ هـ .

والمرحلة الرابعة : وتبعد من سنة ٥٩٠ حتى سنة ٦٢٨ ، وهي مرحلة خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين . وهذه المرحلة تشبه إلى حد كبير المرحلة الأولى ، مرحلة المد الصليبي

والانحسار الإسلامي ، فقد انشغل الأيوبيون بالمنافسات الأسرية فيما بينهم من أجل التوسيع الإقليمي ، بعد أن تقسمت الدولة الأيوبية الموحدة إلى ممالك وأمارات يحكم كل مملكة وأماراة حاكم أيوبي مستقل ، فانتهز الصليبيون الفرصة وأخذوا يستردون كثيراً من البلاد التي استردها منهم صلاح الدين ومنها بيت المقدس .

وإذا كان ابن الأثير ، قد صور الحادث الصليبي بأخباره - في المراحل الأربع - فإنه صوره أيضاً بأسلوب وبطريقة عرض لا نجد لها عند غيره من المؤرخين سواء السابقين عليه أو اللاحقين بعده (١) . فقد قدم ابن الأثير تاريخ الحروب الصليبية بأسلوب فيه حيوة ونشاط ، وذلك عن طريق انفعالاته وأحساسه وتعليقاته الجدية والساخرة ، وتنويهه بشجاعة الصليبيين ، ووصفه لأبطالهم ، وتحديده لمواطن الضعف والقوة عند المسلمين والصلبيين ، بالإضافة إلى تقوده المستحسنة والمستنكرة لحرفات بعض القادة المسلمين التي أدت إلى نتائج حسنة أو سيئة .

ونلمس تطور انفعالات ابن الأثير منذ أن بدأ يؤرخ للحروب الصليبية حتى انتهى منه ، فقد كانت انفعالاته في المرحلة الأولى انفعالات يائسة حزينة لفلبة الصليبيين على المسلمين ، بينما يجرده في المرحلتين الثانية والثالثة ينفعل انفعال السرور والغضب لفلبة المسلمين على الصليبيين ، ولكنه في المرحلة الرابعة ينفعل حزناً .

---

(١) فيما عدا سبط ابن الجوزي ، صاحب « مرآة الزمان » فإنه صور أحداث الفترة التي عاصرها بالأخبار وتعليقاته وبوصف مشاعر الناس وأحساسهم تصويراً واضحاً .

فمن انفعالاته الحزينة ، بسبب تفرق ملوك الاسلام وقتالهم بعضهم بعضا بينما الصليبيون يوالون الاستيلاء على البلاد ، قوله تحت عنوان ( ذكر غزو سقمان وجكرمش الفرج ) سنة ٤٩٧ : « .. ولما استطاع الفرج - خذلهم الله تعالى - بما ملكوه من بلاد الاسلام ، واتفق لهم اشتغال عساكر الاسلام وملوكيه بقتال بعضهم بعضا ، فتفرق حينئذ بال المسلمين الآراء ، واختلفت الاهواء ، وتمزقت الاحوال .. » . وأيضا انفعاله لاستيلاء الصليبيين على مدينة صور سنة ٥١٨ : « .. وكان فتحه ( اي فتح البلد ) وهنا عظيما على المسلمين ، فانه من احسن البلاد وامنها ، فالله يعيده الى الاسلام ، ويقر اعين المسلمين بفتحه بمحمد وآلها » .

اما انفعالاته السارة ، فتبعدوا واضحة أيضا ، عند استرداد صلاح الدين بيت المقدس من الصليبيين في سنة ٥٨٣ ، فانه يصف المعركة التي دارت بين الخصمين ، والتي اظهر كل منهما فيها اروع ما لديه من فن الحرب ، والحماس ، والصبر في القتال ، والاستهانة بالحياة ، حيث يصف حماس الصليبيين وترجمتهم من كل مكان لحرب صلاح الدين ، كذلك يصف حماس المسلمين ، حتى اذا انتهى القتال بسقوط بيت المقدس في ايدي المسلمين ، يظهر ابن الأثير فرحته ، ويشيد بصلاح الدين ، فيقول : « .. فعاد الاسلام هناك غضا طريا ، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخرا وشرفا » . وينفعل أيضا انفعال الغبطة ، لاستعادة المسلمين دمياط في سنة ٦١٨ بعد أن احتلها الصليبيون اربع سنين ، فيقول : « وأعاد الله سبحانه وتعالي الحق الى نصابه ، ورده الى أربابه ، واعطى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم ، فانهم كانت غاية اماناتهم ( اي امانى المسلمين ) أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم

بالشام ليعدوا دمياط ، فرزقهم الله اعادة دمياط ، وبقيت البلاد  
بأيديهم على حالها ، فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على  
الاسلام وال المسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شر التتر ،  
على ما ذكره ان شاء الله تعالى » .

ويروي ابن الأثير بشجاعة ومميزات الأمراء الصليبيين  
تنويهاً مشوباً بالحسنة ، مثال ذلك اشادته بـ « هنفرى » أحد  
القادة الصليبيين ، وقد قتل في معركة دارت بين الصليبيين  
وال المسلمين ، فيقول عن قتلى الصليبيين « وقتل من مقدميهم  
جماعة منهم » هنفرى « وما أدرك ما هنفرى ، كان يضرب به  
الثلث في الشجاعة والرأى في الحرب ، وكان بلاء صبه الله على  
المسلمين ، فأراح الله من شره » . ويصف « ارنات » الصليبي  
صاحب « الكرك » بأنه « كان من شياطين الفرنج ومردتهم ،  
وأشدهم عداوة للمسلمين » . ويصف ريتشارد ملك إنجلترا  
بقوله : « وكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا ، وجلداً وصبراً ، وباي  
الملمون منه بالداهية التي لا مثيل لها » .

ولم يقتصر ابن الأثير على الأحداث الظاهرة والأخبار  
المادية ، وإنما كان يحرص على الوصول إلى أخبار الصليبيين  
أنفسهم التي لا يعرفها إلا الخواص ، مثال ذلك ، ما ذكره في خبر  
( ذكر وقعة المسلمين والفرنج على عكا ) سنة ٥٨٦ ، « ثم ان  
الفرنج وصلهم كتاب من بابا - وهو كبيرهم الذين يصدون  
عن أمره ، وقوله عندهم كقول النبي لا يخالف ، والمحرم  
عندتهم من حرمهم ، والمقرب من قربه ، وهو صاحب رومية  
الكبير - يأمرهم بملازمة ماهم بصدده ، ويعلمهم أنه قد أرسل  
إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ، ويعلمهم  
بوصول الإمداد إليهم ، فازدادوا قوة وطمئناً » . كذلك يذكر أنه  
لما وصل ملك إنجلترا إلى الشام ، عزم على الاستيلاء على عسقلان

— وهي بيد المسلمين — فسار إليها ، واستولى في طريقه على بعض المدن الساحلية حتى يافا ، عندئذ خرب صلاح الدين عصعرن خوفاً من سقوطها في يد الصليبيين ، فلما بلغ صاحب « صور » الصليبي ، تحرير عسقلان ، أرسل إلى الملك — وكان بينهما عداوة — يقول له : « مثلك لا ينبغي أن يكون ملكاً ويتقدم على الجيوش » ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك ؟ يا جاهل ، لما بلغك أنه قد شرع في تحريرها ، كنت سرت إليه مجدداً فرحته وملكتها صفووا بغير قتال ولا حصار ، فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح ، لو انتهى معي كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها برج واحد » .  
 فهذا الخبران — وغيرهما كثير — يعني أن ابن الأثير كان في استطاعته معرفة أخبار الصليبيين الخاصة ، أما عن طريقهم مباشرةً أو عن طريق غيرهم ممن لهم صلة بهم .

### الفزو التترى :

وأما الفزو التترى فقد عاصره ابن الأثير من بدايته في سنة ٦١٦ ، وقد توفي ابن الأثير سنة ٦٣٠ ، وما زال التتر في البلاد الإسلامية يستولون على بعضها ويديرون بعضها الآخر ، حتى سقطت بغداد في سنة ٦٥٦ ، فكان القضاء على الخلافة العباسية .

وتاريخ ابن الأثير للفزو التترى لا يقل روعة عن تاريخه للحروب الصليبية ، وقد بلغت دقة أخباره إلى حد أثارت اعجاب معاصره النسوى<sup>(١)</sup> الذي عاش في قلب الأحداث ، حيث كان

---

(١) هو محمد بن أحمد النسوى ، توفي سنة ٦٣٩ ، وقد ألف كتاباً عن السلطان جلال الدين منكريتى بعنوان « سيرة السلطان جلال الدين منكريتى » دون فيه أخبار الفزو كشاهد عيان حتى وفاة السلطان .

موظفا عند السلطان جلال الدين منكيرتى - الذى كان ، بعد أبيه - أقوى القوى الإسلامية التى واجهت التتر - بوظيفة كاتب البناء ، فقال فى مقدمة كتابه : « ورأيت الكامل » من تأليف على بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ، يتضمن من أحاديث الأمم عموما ، وغرائب أخبار العجم خصوصا ما شد عن غيره ، وأنصاف - لعمرى - في تسميته كاملا ما ألف ، ولم يستبعد ظفره بشيء من تواريختهم المؤلفة بالغتهم ، والا فما الأمر مما يؤخذ بالقياس ، والذى أودعه تأليفه منها أكثر من أن تتلتف من أفواه الناس ، ولما أفضت بي المطالعة إلى ما تضمنه من أخبار السلطان الأعظم علاء الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن تكش بن ايل أرسلان ابن آتسز بن محمد بن نوشتكتين ، متبعها بنبيذة من تصارييف الدهر وتدابير الزمان بولده السعيد الشهيد جلال الدين منكيرتى - سقى الله ثراهما ، وجعل الجنة مشواهما - وو جدته لم يفته من معظمات الأمور جليل ، ولم يتجاوز الصحة إلا قليل ، قلت : الله در مقيم بديار الشام ( يقصد الموصل ) دعته همته إلى ضبط ما حدث من الواقع بأعلى بلاد الصين ، وأعمال ديار الهند » . وهذه شهادة من معاصر مشارك للفزو بأهمية أخبار ابن الأثير عن التتر .

وقد كان الغزو التترى صدمة عنيفة لابن الأثير أثارت مشاعره لما اقترفه التتر من الفظائع في بلاد المشرق من قتل وتخريب وتدمير ونهب بحيث أذهله ، فأحجم عن تدوين أخبارهم ليشأ عنه ما أثربوه في حق المسلمين والبلاد الإسلامية ، واستنكارا ل موقف الملوك المسلمين المتخاذلين من هذه « الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى » - على حد تعبيره - ولكن لم يوجد مناصا من تدوين أخبارهم تحت الحاج أصحابه عليه من ناحية ، ولأنه وجد أن عدم تسطيرها لا يجدى نفسها من ناحية أخرى ، ولكنه أبى أن

يدون أخبار التتر دون أن ينفَس عن نفسه ، ودون أن يدلُّ برأيه في أحداثهم العظام ، فبدأ تأريخه بقوله : « لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيا ، الا أنى حشنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف . ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخست المسلمين ، فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن ، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدان بها ، ومن أشظيم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما البيت المقدس وما بنو إسرائيل بالنسبة لمن قتلوا ؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج وماجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبעהه ويهلك من خالقه ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنحة ، فإن الله وإنما إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لهذه الحادثة التي استطار شررها ، وعم ضررها ، وسارت في البلاد كالسحاب استديرته الريح » . ثم ياخذ ابن الأثير خبر خروج التتر من بلادهم ، وانتشارهم في بلاد الإسلام وما ارتكبوا من الفظائع ، وذلك قبل أن يذكر أخبارهم مفصلة على السنين ، فيقول : « فان قوماً خرجوا من أطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان ، مثل كاشغر وبلاساغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر ، مثل سمرقند ،

وبخاراً وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً وتخرسها وقتلاً ونهباً ، ثم يتتجاوزونها إلى الرى وهمدان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ، ثم بلاد أذربيجان وأرانية ويخرسونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج إلا الشريد النادر في أقل من سنة ؟ هذا ما لم يسمع بمثله — ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان ، فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التي بها ملكهم ، وعبروا عندها إلى بلد اللان والسكن ، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة ، فأوسعواهم قتلاً ونهباً وتخرسياً . ثم قصدوا بلاد قفجاق — وهم أكثر الترك عدداً — فقتلوا كل من وقف لهم ، فهرب الباقيون إلى الفياض ورعوس الجبال ، وفارقوا بلادهم ، واستولى هؤلاء التتر عليها ، فعلاوا هذا في أسرع زمان ، ولم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لا غير . ومضي طائفة أخرى — غير هذه الطائفة — إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسبستان وكرمان ، ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد ؟ هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر ، الذي اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا ، لم يملكها في هذه السرعة ، إنما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحداً ، إنما رضى من الناس بالطاعة ، وهو هؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض (؟) وأحسنها وأكثرها . عمارة وأهلاً ، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة في نحو سنة ، ولم يبت أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلا وهو خائف يتوقيهم ويترقب وصولهم إليه » .

وقد خشي ابن الأثير أن يتهم بالبالفة فيما دونه من أخبار الزحف التترى السريع حتى طروا بلاد المشرق الإسلامي في سنة واحدة ، فيؤكّد صدق ما يرويه بقوله : « ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه ، طائفة تخرج من

حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد أرمينية من هذه الناحية ، ويتجاوزون العراق من ناحية همدان ، وتأله لا أشك أن من يجئ بعدها اذا بعد به العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها - والحق بيده - فمتى استبعد ذلك ، فلينظر أننا سطروا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه ، في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة ، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو الى عظيم » .

ومما يزيد في نكبة ابن الأثير ويرمضه ، أنه في الوقت الذي أخذ فيه التتر يزحفون على بلاد الاسلام من الشرق ، كان قلب العالم الاسلامي - بلاد الشام ومصر - يقاسي من الصليبيين وأهواهم - وكان المسلمين قد وقعوا بين شقي الرحى ، التتر من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، والملوك المسلمون ، في الشرق وفي الشام ومصر ، متهمون على ملذاتهم أو خلافاتهم ، وكأن الأمر لا يعنيهم فينفعل انفعالات مؤثرة صاخبة يحمل على هؤلاء الملوك ويجرحهم ، فيقول : « ولقد بلي الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم ، منها : هؤلاء التتر قبحهم الله ، أقبلوا من الشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها - وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى - ومنها خروج الفرنج - لعنهم الله - من الغرب الى الشام وقصدهم ديار وملکهم تغر دمياط منها ، وأشرفوا ديار مصر والشام وغيرها أن يملكونها ، لو لا لطف الله تعالى ونصره عليهم - وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة - ، ومنها : أن الذى سلم من هاتين الطائفتين ، فالسيف بينهم مسلول ، والفتنة قائمة على ساق - وقد ذكرناه ايضا - فانا لله وانا اليه راجعون ، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معذوم ،

( و اذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ) » .

ويحمل ابن الأثير ، السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، مسئولية نجاح زحف التتر عند أول خروجهم من بلادهم لسوء سياساته ، وطمعه في ممالك الملوك المسلمين المجاورين له فاستولى عليها فأضمروا له العداء ، فلما زحف التتر على البلاد لم يتعاونوا معه ولم يستطع صدهم وحده ، يقول ابن الأثير : « فان هؤلاء التتر ، انما استقام لهم الأمر لعدم المانع ، وسبب عدمه ان خوارزم شاه مهما كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكهم وأفناهم وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ( ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) » .

ولذلك لم يستطع خوارزم شاه الصمود أمام التتر فأخذ يفر منهم من بلد إلى أخرى غربا ، حتى احتوى بقلعة له في بحر طبرستان حيث توفي بها في سنة ٦١٧ . ولما توفي ، خلفه ابنه جلال الدين منكيرتى ، ولم يستطع بدوره الصمود في وجه التتر ، انما فر منهم إلى الهند وظل بها حتى سنة ٦٢٢ ، ولما عاد إلى بلاده عاود سيرة والده في معاداة الأمراء المجاورين له بالاستيلاء على اماراتهم حتى انه اعتدى على أملاك الخليفة فجلب على نفسه عداوتهم ، فتخلوا عنه ، ولذلك يحمل عليه ابن الأثير حملة عنيفة فيقول : « وكان جلال الدين سبيلا السيرة ، قبيح التدبير لملكه ، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونazuنه الملك وأسae مجاورته ، فمن ذلك أنه أول ما ظهر بأصفهان ( بعد عودته من الهند ) جمع العساكر وقصد خوزستان ، فحاصر مدينة ششتـر - وهي للخليفة - فحاصرها ، وسار إلى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر - وهي للخليفة أيضا - ؛ ثم ملك أذربيجان - وهي لأوزبك بن البهلوان فملكتها ، وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ؛ ثم عادى الملك الأشرف ( الأيوبى ) صاحب خلاط ؛ ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم ؛ وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم

وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم ، فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده » .

ويحمل أيضا على أوزبك بن البهلوان ( قبل أن يستولى جلال الدين على بلاده ) لتقصيده في قتال التتر فيقول : « وكان ( أوزبك ) أميراً متخلفاً ، لا يزال منهمكاً في الخمر ليلاً ونهاراً ، يبقى الشهرين والشهرين لا يظهر . وإذا سمع هيبة طار مجفلاً منها ، وله جميع أذربيجان وأرمان ، وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها » .

كذلك يحمل على الملوك جميعاً « فالله تعالى ينصر الاسلام وال المسلمين نصراً من عنده ، فما نرى في ملوك الاسلام من له رغبة في الجهاد ، ولا نصرة في الدين ، بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته ، وهذا أخوف عندي من العدو » . وما دخل التتر ديار بكر والجزيرة وأربيل وخلط أفسدوا فيها ، « ولم يمنعهم أحد ولا وقف في وجههم فارس ، وملوك الاسلام منحرون في الأنقاب » .

وقد أثار ابن الأثير في تاريخه للغزو التترى مشكلة خطيرة ، وذاك بتدوينه ما شاع في ذلك الوقت من أن الخليفة العباسى الناصر للدين الله هو الذى استدعاهم لمحاربة السلطان علاء الدين خوارزم شاه الذى كان يقتل عليه ويطلب منه الاعتراف به سلطاناً ، وأن يخطب له على منابر بغداد ، وقد ذكر ابن الأثير هذا الاتهام مرتين ، المرة الأولى في بداية تدوينه أخبار التتر ، ولكنه لم يصرح باسم الخليفة وإنما قال - بعد أن ذكر أن سبب خروجهم من بلادهم ، هو قتل علاء الدين لبعض التجار التابعين لجنكز خان عندما وردوا بلاده : « وقد قيل في خروجهم غير هذا مما لا يمكن أن يوجد في بطون الدفاتر » ، وفي المرة الثانية ، صرخ بأنه الخليفة ، وذلك في ترجمته له ، فيقول ، إن الخليفة

« كان قبيح السيرة »، ثم يقول : « وان كان (أى الخليفة) سبب ما ينسبه الفجم اليه صحيححا ، من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسا لهم فى ذلك ، فهو الطامة الكبرى التى يصفر عندها كل ذنب عظيم ». . ويذكر ابن واصل أيضاً الخلاف الذى حدث بين الخليفة وبين السلطان علاء الدين وتهديد الخليفة له ، فيقول : « قلت : وقد بلغنى أن الخليفة الامام الناصر لدين الله كتب الى علاء الدين خوارزم شاه كتابا ، وضمنه بيتا يهدده فيه وهو :

ستعلم ان حانت من الدهر لفتة

## عمود دواتی ام سانانک اقوام

وهذه قضية تستدعي البحث والدراسة الدقيقة لوصول الى الحقيقة .

وقد دون ابن الأثير أخبار الفزو بوعى وفهم لتحركات التتر وسبب انتشارهم فى البلاد انتشارا سريعا ، فقد تنبه الى أن التتر قسموا جيشهم الكبير قسمين : قسم خصص لفتح بلاد تركستان وأقاليم ما وراء النهر ، وقسم خصص لفتح خراسان وال العراق غربا ، ولذلك يسمى ابن الأثير هذا القسم من الجيش بـ « التتر المغربية » تمييزا لهم عن القسم الأول « لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد » ، ثم أخذ فى تدوين أخبار كل قسم على حدة ، فدون أخبار زحف القسم الأول تحت عنوان ( ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه ) فذكر أخبار سقوط بخارا وسمرقند . ثم دون أخبار القسم الثانى - التتر المغربية - تحت عنوان ( ذكر مسیر التتر الى خوارزم شاه وانهزامه وموته ) فذكر الأقاليم والبلاد التى سقطت فى أيديهم اقليما اقليما وبلدا بلدا ، حتى سنة ٦٢٨ . كذلك ذكر اغارة التتر على البلاد المجاورة

لل المسلمين ، مثل : الكرج ، واللان ، وقفجاق ، والروس ، وبغار .

وحرص ابن الأثير أيضاً على وصف عمليات التتر العربية ، وقدرتهم على تذليل الصعاب في انتقالاتهم من مكان إلى مكان ، وفي قدرتهم أيضاً على احراق حصار المدن الحصينة حتى تسقط في أيديهم ، وهذا الوصف يبرز في الوقت نفسه جهود المسلمين واستماتتهم في الدفاع حتى تنفذ قواهم ، من ذلك ، ما ذكره من أن التتر لما أرادوا أن يعبروا نهر جيحون من سمرقند إلى الضفة الأخرى ، لم يجدوا سفناً ليعبروا عليها « فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لثلا يدخلها الماء ، ويضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيول في الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض من الخشب مشدودة إليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره عن حصارهم مدينة « شماخى » من بلاد « دربند شروان » ، وقد كانت أسوار المدينة عالية ، والمدافعون عنها مستميتون في القتال صابرون على الحصار ، فجمع التتر كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم ، أى من التتر ، ومن قتل من غيرهم ، وألقوا بعضه فوق بعض بجانب الأسوار حتى صار مثل التل ، وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وظلوا يقاتلون أهل المدينة حتى استولى عليهم .

وحاصر التتر قلعة « منصور كوه » في خراسان ، ويقول ابن الأثير عنها أنها قلعة لا ترام علوها وارتفاعها ، وبما رجأ شجاع بقاتلها ، وظلوا محاصرين لها ستة أشهر يقاتلون ولا يظفرون منها بطائل ، فأرسلوا إلى جنكيرخان - وكان بسمرقند - يعرفونه عجزهم عن امتلاكه ، فحضر بنفسه ومعه عدد كبير من المقاتلة ، وظل محاصرها القلعة يقاتل حاميتها مدة أربعة أشهر أخرى حتى قتل من التتر عليها

خلق كثير ، « فلما رأى ملكهم ذلك ، أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك ، وصاروا يعملون صفا من خشب ، وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي القلعة » فلما رأت الحامية ذلك ، خافت وفتحت أبواب القلعة واندفع الفرسان هاربين ، وأما الرجال فقد تخطفthem سيف التتر ، واستولى التتر على القلعة .

وقد يظن أن تصوير ابن الأثير ، التتر بصورة الهمج المخربين الوالغين في الدماء مبالغ فيه ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن معاصرة النسوى الذي عاش في صميم الأحداث كما سبق أن ذكرنا ، يصورهم كما صورهم ابن الأثير ، وهذا ما قاله النسوى عما فعل التتر بأهل مدينة « نسا » بعد أن استولوا عليها ، قال : إن التتر بعد أن استولوا على المدينة أخرجوا أهلها إلى الفضاء ، « نم أمروا الناس بأن يكتف بعضهم ببعض ، ففعلوا ذلك خذلانا ، والا لو تفرقوا وطلبووا الخلاص عدوا من غير قتال - والجبل قريب - لنجا أكثرهم ، فحين كتفووا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعواهم على العداء ، وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء ، فمن دماء مسفوكـة ، وستور مهتوـكة ، وصغرـار على ثدى أمهاـتها المقتولة متـروـكة ، وكان عـدة من قـتل بلـسان هـنـ أـهـلـهاـ وـهـنـ اـنـضـوـيـاـ اليـهـمـ منـ الغـرـباءـ وـرـعـيـةـ بـلـدـهـاـ سـبـعـيـنـ أـلـفـاـ ، وـهـيـ كـوـرـةـ منـ كـوـرـ خـرـاسـانـ » (١) .

وبالنسبة للحديث عن النسوى ، نذكر أن هناك اختلافات فى بعض الأخبار المشتركة بينه وبين ابن الأثير ، والصواب - فيما يرجح - هو فى جانب النسوى . لأنه الأقرب الى ميدان الأحداث . كذلك نجد عند النسوى أخبارا لم يذكرها ابن الأثير ، وهى أخبار ليست عن الغزو ذاته ، وإنما هى أخبار شخصية عن السلطان علاء الدين وابنه جلال الدين ، كان لأحداثها أثر فى انتصارهما

<sup>١١٥</sup> (١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكيرتى ، ص/ ١١٥ .

وهو زائفهما ، وهي أخبار مفيدة للباحث الحديث حيث تساعدة على فهم الأحداث فهما جيدا .

\* \* \*

ومصادر ابن الأثير عن الزحف التترى تقتصر على المعاصرين شهود العيان ، وعلى الرسائل التي تصل من البلاد المغزوة الى الموصل ويوفق في الاطلاع عليها ، ومنها مكتبات التجار الى عملائهم او أصدقائهم فيها . وشهود العيان ، هم أبناء البلاد المغزوة الفارون من وجه الغزاة ويصلون الى الموصل ويجتمع بهم ابن الأثير ، فهو ينقل خبر استيلاء التتر على بخارا وسمرقند عن أحد فقهاء بخارا كان التتر قد أسروه عندما استولوا على المدينة وأخذوه معهم الى سمرقند ؛ ثم نجا منهم ووصل الى الموصل ، ولكن تصل ابن الأثير رواية أخرى عن الخبر نفسه من أحد التجار ، فيها بعض الاختلافات في التفاصيل عن رواية الفقيه ، فيتحقق ابن الأثير برواية التاجر فيقول : « وكان هذا هو الصحيح ، فان الفقيه كان حينئذ مأسورا ، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمدان ، ووصل خبر خوارزم شاه ، ثم وصل بعده من خبره بوصول التتر . . . . » . كذلك نقل من رواة لم يذكر أسماءهم ، وإنما يقول : « حكى لي بعض التجار » و « حكى لي رجل منهم » و « لقد بلغني » و « حكى لي رجل » و « سمعت بعض أهلها يقول » ، وعن طريق المهاجرين ، علم أهل الموصل بوصول التتر الى مدينة أربيل - القرية من الموصل - فانتشر الخوف بين الموصليين ، حيث يقول ابن الأثير : « ووصل الخبر اليانا بذلك بالموصل ، فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف » .

\* \* \*

بقي نقطة هامة نختتم بها حديثنا عن ابن الأثير ، وهي عن الهجوم الذي شنه بعض الأساتذة (١) على ابن الأثير ، متأثرين بآراء بعض الأجانب عن تاريخ ابن الأثير لصلاح الدين الأيوبي ، فقالوا : إن ميل ابن الأثير للزنكيين دفعه إلى التحيز لهم ، فلم يذكر عنهم إلا الأخبار الطيبة ، بينما تحامل على صلاح الدين فشهر به - اشباعاً لنزعه الحقد عليه - لاستيلائه على الدولة الزنكية وتكوين دولته بعد وفاة نور الدين محمود - ، وذلك بأن :

- صور صلاح الدين بصورة الطامع في تكوين إمبراطورية تحمل اسمه لأشباع أطماعه العائلية .

- ونقد بعض تصرفاته الحربية .

- ثم حور روایات مصادره عن صلاح الدين وأغفل ذكرها لتضليل قرائه .

ونحن ، وإن كنا ناقشنا هذا الهجوم بتوسيع في دراستنا الأخرى الواسعة لكتاب « الكامل » ، فإننا نجمل هنا ردنا على هذه الاتهامات ، استيفاء لموضوعنا عن ابن الأثير .

فأما ميل ابن الأثير للزنكيين ، فهذه حقيقة واقعة لا شك فيها ، ومن حق ابن الأثير أن يميل للزنكيين ، وأن يحبهم وأن يعجب بهم ويقدرهم ، والا كان عاقاً ومنتكرًا لأيادٍ أحسنت إليه والى أسرته ، ورفعتهم إلى مكانة عالية في البلاط الموصلى وفي مجتمعهم ، وقد

---

(١) الدكتور نظير سعداوي في كتابه « المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي » ، والدكتور جمال الدين الشيال في كتاب « مفرج الكروب » لابن واصل والذي يحققه الدكتور الشيال ، والدكتور الباز العرينى في كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية » ، والدكتور سعيد عاشور في كتابه « الناصر صلاح الدين » المنشور في مجموعة « أعلام العرب » .

صرح ابن الأثير بفضل الزنكيين عليهم في مقدمة كتابه «التاريخ الباهر» كما سبق أن ذكرنا ذلك في ترجمتنا له في الفصل الثاني، وكذلك في الفصل الثالث عند تعريفنا بالكتاب . أما أن ابن الأثير لم يذكر عن الزنكيين إلا الأخبار الطيبة ، فهو مبالغة من المهاجمين تنفيها أخبار ابن الأثير نفسه عن الزنكيين ، سواء في كتابه «التاريخ الباهر» أو كتابه «الكامل في التاريخ» .  
حقيقة أن ابن الأثير أكثر من مدح الزنكيين في كتابه «التاريخ الباهر» ، وقد قصد ابن الأثير بهذا المديح التعبير عن رأيه فيهم ، وأظهار تقديره للدور البطولى الذى قام به كل من عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وأيضا لحسن سياستهم الداخلية ورضاء شعبهم عنهم ، ومع ذلك ، فقد كانت تتغلب عليه طبيعته الناقدة ، فنقد بعض الملوك منهم نقدا لاذعا ، كما بينا ذلك في حديثنا عن الكتاب . وأما في كتابه «الكامل» ، فقد ذكر بصراحة - وبلا مواربة - ما عرفه من المآخذ عن عماد الدين وغيره من الملوك الزنكيين ، مثال ذلك ، ما ذكره عن استيلاء عماد الدين على مدينة حماة غدرا ب أصحابها بعد أن قطع له على نفسه العهود بعدم خيانته ؛ كذلك غدره بحامية بعلبك بعد أن أمنها ، ثم قتل رجالها بعد أن استسلمت له ، «فاستيقظ الناس ذلك من فعله واستعظموه» كما يقول ابن الأثير . ووصف سيف الدين غازى (الثاني) بالجبن ، ونقده أيضا لقبضته على وزيره جلال الدين (سنة ٥٧٣) «لغير جرم ولا عجز ولا تقصير ، بل لعجز سيف الدين . . .» . كذلك نقد عز الدين مسعود لقبضته على مجاهد الدين قايماز ، «واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر إلى مضره صاحبه . . .» وهو (مجاهد الدين) على الحقيقة الملك والاسم لعز الدين . . . ولولا الإطالة لذكرنا كثيرا من النقد الذى وجهه ابن الأثير للملوك الزنكيين ،فهم يتتفق هذا النقد وقول المهاجمين بأن ابن الأثير لم يذكر عنهم إلا الأخبار الطيبة ؟ .

وأما ابن الأثير صور صلاح الدين بصورة الطامع في تكوين امبراطورية تحمل اسمه ، فان ابن الأثير لم يزد على أن ذكر تصرفات صلاح الدين مع الزنكيين خلفاء نور الدين بعد وفاته في سنة ٥٦٩ ، ومنها حروب المستمرة معهم للاستيلاء على ما بآيديهم من البلاد ، فما أثر حلت سنة ٥٧٩ حتى كان استولى على البلاد الزنكية في الشام والجزيرة ، ما عدا مدينة الموصل التي خضع صاحبها له في سنة ٥٨١ بعد قتال متكرر . وحروب صلاح الدين مع الزنكيين التي ذكرها ابن الأثير ، يتفق فيها معه كل المعاصرين لصلاح الدين ، وهم : العماد الكاتب ، وابن شداد ، وابن أبي طي ، - وان كان ابن الأثير يختلف مع بعضهم في تفاصيل بعض الأخبار - . وهذا ما ذكره ابن أبي طي - على سبيل المثال - من قول صلاح الدين عندما استولى على مدينة حلب من صاحبها عماد الدين زنكي ( الثاني ) : « والله ما سرت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة ، والآن قد تبينت أننى أملك البلاد ، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت » . ويفهم من هجوم المهاجمين ، أنهم يريدون تنزيه صلاح الدين عن الطموح في تكوين دولة أو امبراطورية تحمل اسمه ، وفي رأينا أنهم أسرفوا في حسن الظن بصلاح الدين وزهده عن المطامع والطموح كاسرافهم في انكارهم على ابن الأثير ميله للزنكيين ، متناسين أن صلاح الدين كان متأثرا بطابع عصره وتقاليده ، هذا العصر الذي أصدق وصف له هو « عصر الغلبة » أي العصر الذي كان الحكم فيه للغالب ، فأيما صاحب منصب يجد في نفسه القدرة على تحسين مركزه يقدم عليه ، ويبدل أقصى ما يستطيع لتحقيق غرضه ، ولا يتورع عن الوصول إليه بشتى الوسائل والسبيل ، بالدس والتآمر وبالقتل والقتال ، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، وأقرب مثل لدينا ، هو تكوين الدولة الزنكية ذاتها والتي كان صلاح الدين وعمه أسد الدين شير كوه قائدين في جيوشها ، فقد كانت الدولة في أول أمرها عبارة عن

مدينة الموصل التي ولـى عماد الدين زنكي امرتها من قبل السلطان السلاجوقى فأخذ عماد الدين - المتطلع الطموح - يعمل على توسيع منطقة حكمه ونفوذه حتى نجح بالرغم من اثارته عليه عداوة الخليفة العباسى ، والسلطان السلاجوقى ، وأمراء الجزيرة ، وصاحب دمشق ، آثار عليه هؤلاء جمـعا لأنـه لم يقنـع بالموصل ، وـاـنـما رـنا إلى تـكـوـيـن دـوـلـة وـاسـعـة الـأـرـجـاء ، ثـمـ لـما تـوـفـى عمـادـالـدـين ، وـخـلـفـه ابنـاهـ سـيـفـالـدـينـ غـازـىـ وـنـورـالـدـينـ مـحـمـودـ ، أـخـذـ نـورـالـدـينـ بـدـورـهـ يـعـملـ عـلـىـ التـوـسـعـ الـاقـلـيمـيـ لـدـولـتـهـ ، وـبـسـطـ نـفـوذـهـ عـلـىـ مـنـ يـجـاـوـرـهـ مـنـ الـأـمـرـاءـ ، وـأـخـذـ يـعـارـبـ صـاحـبـ دـمـشـقـ حـتـىـ اـسـتـوـىـ عـلـيـهـاـ ، نـمـ اـسـتـوـىـ عـلـىـ مـصـرـ ، وـلـوـ طـالـ العـمـرـ بـأـخـيهـ سـيـفـالـدـينـ غـازـىـ لـتـوـسـعـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـجـزـيرـةـ أـيـضـاـ ، فـهـلـ كـانـ صـلـاحـ الـدـينـ أـقـلـ مـنـ عـمـادـالـدـينـ وـنـورـالـدـينـ طـمـوـحـاـ ؟ـ أـمـ هـوـ أـزـهـدـ مـنـهـمـاـ فـيـ الـمـلـكـ وـالـسـلـطـانـ ؟ـ ثـمـ دـلـيـلـ آـخـرـ ، وـهـوـ أـنـ خـلـفـاءـ صـلـاحـ الـدـينـ ، وـهـمـ أـبـنـاؤـهـ وـأـخـوـتـهـ طـبـقـواـ تـقـالـيدـ عـصـرـهـ «ـ عـصـرـ الـغـلـبةـ »ـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ أـنـفـسـهـمـ بـعـدـ وـفـاتـهـ ، فـحـارـبـ الـأـخـاءـ وـالـعـمـ اـبـنـ أـخـيهـ ، مـنـهـمـ مـنـ كـانـ يـطـمـعـ فـيـ زـعـامـةـ الـبـيـتـ الـأـيـوبـيـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ كـانـ يـعـملـ عـلـىـ التـوـسـعـ الـاقـلـيمـيـ لـأـمـارـتـهـ أـوـ مـمـلـكتـهـ غـيرـ نـاظـرـيـنـ إـلـىـ قـرـابـةـ الدـمـ أـوـ مـقـيـمـيـنـ لـهـ أـىـ حـسـابـ ، فـمـاـ دـامـ الـحـالـ هـكـذـاـ ، فـلـمـاـ يـسـتـشـنـىـ صـلـاحـ الـدـينـ مـنـ تـأـثـيرـ تـقـالـيدـ عـصـرـهـ عـلـيـهـ ، وـيـكـونـ وـحـدهـ عـفـ عنـ الـمـطـامـعـ وـالـطـمـوـحـ ، وـأـبـلـغـ مـنـ هـذـاـ فـيـ التـسـاؤـلـ ، إـذـاـ كـانـ صـلـاحـ الـدـينـ لـمـ يـعـملـ بـنـفـسـهـ فـيـ تـكـوـيـنـ الـدـوـلـةـ التـىـ أـنـشـأـهـ بـقـوـةـ السـيـفـ ، فـكـيـفـ كـوـنـهـاـ ؟ـ هـلـ كـوـنـهـاـ سـلـماـ ، أـمـ هـلـ وـرـثـهـ بـوـصـيـةـ مـنـ نـورـالـدـينـ - وـنـورـالـدـينـ لـمـ يـعـيـنـهـ حـتـىـ وـصـيـاـ عـلـىـ اـبـنـهـ الـقـاـصـرـ الصـالـحـ اـسـمـاعـيلـ كـمـاـ تـثـبـتـ ذـلـكـ الـوـثـائقـ الـأـيـوبـيـةـ ، أـمـ تـنـازـلـ لـهـ خـلـفـاءـ نـورـالـدـينـ عـنـ الـدـوـلـةـ عـنـ طـوـاعـيـةـ ، وـرـضـوـاـ بـهـ خـلـفـاءـ نـورـالـدـينـ ؟ـ ثـمـ اـذـنـ مـاـ مـعـنـىـ أـخـبـارـ صـرـاعـهـ وـحـرـوبـهـ مـعـ خـلـفـاءـ نـورـالـدـينـ ، هـذـهـ الـحـرـوبـ التـىـ دـوـنـهـاـ الـمـعـاـصـرـوـنـ اـصـلـاحـ الـدـينـ ، الـعـمـادـ ، وـابـنـ شـدـادـ ، وـابـنـ أـبـىـ طـىـ ؟ـ وـقـدـ ظـهـرـتـ

كتبهم قبل أن يظهر كتاب ابن الأثير . ومع ذلك ، فإن فكرة تكوين دولة ايوبيه نم نظهر عند صلاح الدين وحده ، وإنما سبقه في ذلك أبوه وعمه أسد الدين ، وهذا ما فصلناه بتوسيع في دراستنا الواسعة عن كتاب «الكامل» .

وأما بعد ابن الأثير لبعض تصرفات صلاح الدين العربية التي أدت إلى نتائج سيئة ، فإن ابن الأثير لم يزد عن أن عامل صلاح الدين كما عامل شخصياته التاريخية التي أرخها في كتابه ، فبنقده كما نقد هم ، وقد سبق أن تحدثنا عن ابن الأثير الناقد ، ولكن المهاجمين لم يتبنوا إلى طبيعة ابن الأثير الناقدة ، وإنما انصرف ذهنيهم فقط إلى نقده لصلاح الدين وذلك لأنهم لم يعرفوا ابن الأثير إلا عن طريق كتاباته عن صلاح الدين . ولنر كيف استنكر الدكتور سعيد عاشور نقد ابن الأثير لصلاح الدين في تصرفه في مدينة «صور» الذي أدى إلى فشله في الاستيلاء عليها من الصليبيين ، حيث يقول ابن الأثير : « . . . ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين ، فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج ، وأمدتها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك ، كان يعطيهم الأمان ويسيطرهم إلى «صور» ، فصار فيها من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة ، وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهם بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويملؤون إليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها – وسند ذكر أن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك – ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم – وإن ساعدته الأقدار – فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفترطا مضيئا للحزم وأعذر له عند الناس » . فماذا قال الدكتور سعيد عاشور عن صلاح الدين وصور؟ لقد ذكر الدكتور عاشور ، صلاح الدين وصور ثلاث مرات في كتاباته (الناصر صلاح الدين) . المرة الأولى (ص / ١٩٨) ، استعرض فيها المدن التي

استولى عليها صلاح الدين من الصليبيين ، ثم قال : « وهذا نلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلع والمراکز الساحلية في جنوب بلاد الشام ، الا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا ، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج ، فقصد معظمهم مدينة صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المختلفة عن مملكة بيت المقدس ، وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا بعد أن اجتمع فيها كل أفرنجي يقى في الساحل ، فتركها مؤقتا ، وأثر الانصراف إلى غيرها » .

وقال في المرة الثانية (ص / ٢١٤) ، في معرض حديثه عما استولى عليه صلاح الدين من قواص مملكة بيت المقدس ، فقال : « وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس في قبضة الصليبيين غير صور » **التي أخطأ صلاح الدين خطأ جسيماً بعدم الاستيلاء عليها عقب « عكا »** وتركها تلك المدة لتنجتمع فيها البقايا الصليبية التي خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة بيت المقدس لتتمد المدينة بحصانة بشرية إلى جانب حصانتها الطبيعية » ، ويقول أيضا : « وعنده استيلاء صلاح الدين على عكا ، كانت صور تابعة لريينو حاكم صيدا ، الذي كان مستعدا لتسليمها لصلاح الدين عندئذ ، ولكن صلاح الدين تأخر في القيام بتلك العملية ، وصادف أن وصلت إلى ميناء صور ، عندئذ ، في منتصف يوليو سنة ١١٨٧ ، سفينة عليها الأمير كونراد دى موتنفرات لاجئا ، فرحب به أهل صور ، وأخذ يدعم تحصينات المدينة ، ويقوى الروح المعنوية بين الصليبيين فيها ، حتى صار من العسير على صلاح الدين الاستيلاء عليها ، وخاصة بعد أن تلقت بعض المuronات عن طريق البحر » .

وفي المرة الثالثة (ص / ٢٢١) ذكر حصار صلاح الدين لمدينة « صور » وفشلته في الحصار ، وأثر هذا الفشل عند المؤرخين المسلمين ، واستشهد بنقد ابن الأثير لصلاح الدين الذي ذكرناه

آنفا ، ثم يقول الدكتور عاشور معلقا على نقد ابن الأثير : « على أننا لا نريد أن ننساق وراء ابن الأثير في مؤاخذته لصلاح الدين على مسألة صور ، لأن موقف ابن الأثير بالذات من صلاح الدين معروف ، وهو موقف يتسم بالكراءية الواضحة » ، ثم يقول مدافعا عن صلاح الدين : « ولعله من الانصاف أن نلتزم العذر لصلاح الدين في أمر صور ، فقد كان من الصعب على الرجل أن يتخل عن سماحته وتسامحه وكرم أخلاقه ، وهي الصفات الحميدة التي تحلى بها والتي خلدت اسمه في تواريخ الغرب فضلا عن الشرق ، هذا بالإضافة إلى الأشياء التي أحاطت بصلاح الدين أمام صور ، والتي يجب أن نقدرها ، وأهمها تعب رجاله ورغبة بعضهم في الانصراف للراحة ، فضلا عن حصانة المدينة كما سبق أن ذكرنا » فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا آخذ الدكتور عاشور – فيما فات من الصفحات – صلاح الدين خطئه في عدم استيلائه على المدينة عقب استيلائه على عكا ، ولماذا نوه الدكتور عاشور بتأثير تجمع الصليبيين – بكرم من صلاح الدين وسماحته وتسامحه – في المدينة حتى ازدادت حصانتها فاستعانت عليه ، والتي حطمت سفنها ، سفن أسطول صلاح الدين – كما يقول الدكتور نفسه (ص / ٢١٩) ، ويبدو أن الدكتور عاشور ، يبيح لنفسه أن ينقد صلاح الدين ويؤاخذه ، ويحرمه على ابن الأثير لموقفه من صلاح الدين الذي « يتسم بالكراءية الواضحة » في الوقت الذي استعان في مؤاخذته لصلاح الدين ب النقد ابن الأثير لنفسه . وأما دفاعه عن صلاح الدين ، بعد أن آخذه وخطأه ، فاننا نتركه للقاريء ليحكم على قيمته كما يتراهى له . وأما تحوير ابن الأثير أخبار مصادره عن صلاح الدين ، فالواقع أن هذا اتهام يحمل كثيرا من علامات التعجب ، وخاصة عندما يقول الدكتور سعداوي وهو يعدد عيوب تاريخ ابن الأثير لصلاح الدين : « ويعاب عليه كذلك أنه لم يذكر مصادره الأصلية التي اعتمد على روایاتها بالتعديل والتحريف الكثير ، لدرجة أصبح البحث عنها

من أشقر الأمور وأعزها منالا ، ويبدو أنه كان متعمدا في تضليل قرائه بدليل قوله في هذا الصدد « ثم ذكر أصحاب التواريخ » و« حكى أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ ، قال» و« حكى لي والدى» و « حدثنى والدى عن بعض خواصه قال » ، وكان في مقدوره أن يذكر أسماء هؤلاء جميعا وأسماء تواريχهم التي أشار إليها ، بدلا من ذكر تلك العبارات التي يشغلي الباحث في سبيل الكشف عنها ، والتي لا تفيء المؤرخ الحديث في قليل أو كثير ، ولا تخدم البحث من جوانبه المتعددة » . فاذا كان الدكتور سعداوي لم يستطع معرفة مصادر ابن الأثير ، فكيف تأكد له أنه اعتمد عليها بالتحريف ؟ ونحن نفهم أن يتهم الدكتور سعداوي ابن الأثير بالاعتداء على مصادره بالتعديل والتحريف ، اذا كانت هذه المصادر تحت يده ، وإذا أجرى مقابلة بين الأخبار المشتركة بينها وبين ابن الأثير ، وأشار إلى التعديل والتحريف بأدلة وأسانيد . والدكتور العريني الذي يتهم ابن الأثير بنفس الاتهام ، أكثر موضوعية من الدكتور سعداوي ، لأنه اتهم ابن الأثير بتحوير روايات العماد الكاتب وذكر أمثلة يؤيد بها اتهامه ، وان كنا نختلف معه فيها ، انما على كل حال ، أيد اتهامه بأمثلة – ظن أنها متنعة – ولم يلق اتهاماته بعبارات إنسانية كالدكتور سعداوي .

وقد ذكر الدكتور العريني كثيرا من الأمثلة لتحوير ابن الأثير أخبار العماد ، ونحن نذكر منها ذكره الدكتور لنبيين إلى أي حد بلغ اسرافه واسراف المهاجمين في تحرير ابن الأثير ، بحيث يتهمه بالغفلة وبالتزوير المحكم لاختلافه مع العماد في تاريخ وقعتين حدثتا بين صلاح الدين وبين الصليبيين في سنة ٥٧٣ ، ثقة من الدكتور بأن ابن الأثير نقلهما من العماد ، والوقutan هما : وقعة « حماة » وقعة « الرملة » . أما التحوير الذي يقول عنه الدكتور العريني ، فهو أن العماد ذكر أن وقعة « حماة » كانت قبل وقعة « الرملة » ، فالوقعة

الأولى كانت في ٢٠ جمادى الأولى ، وأما الواقعة الثانية فكانت في مستهل جمادى الآخرة من نفس السنة ؛ أما ابن الأثير فإنه ذكر أن الواقعتين كانتا في شهر جمادى الأولى ، وأن وقعة الرملة كانت قبل وقعة حماة ، وبسبب هذا الاختلاف يعلل الدكتور العرييني تصرف ابن الأثير هذا « أما الى الغفلة ، فلم يدرك ابن الأثير حقيقة ما ورد في « البرق » (كتاب العماد) من أن الهجوم على حماة تلي وقعة الرملة (١) ، وأما الى تعمد تزوير المحكم » ويلاحظ في هذا الهجوم أن الدكتور العرييني لم يذكر الخطورة التي ترتبت عن تقديم وتأخير خبرى ابن الأثير عما عند العmad ، وبخاصة اذا عرفنا أن نتيجتى الواقعتين متفقان عندهما ، فوقة الرملة انهزم فيها صلاح الدين من الصليبيين ، وأما وقعة حماة فقد انتهت الى لا شيء . فما معنى اتهام ابن الأثير بالغفلة وبالتزوير المحكم ؟ هذا في الوقت الذي نجد فيه ابن شداد – وهو مؤرخ معاصر للعماد ولا ابن الأثير – يتفق مع ابن الأثير في أن وقعة « الرملة » كانت في شهر جمادى الأولى ، ويختلف مع العmad الذى يقول انها كانت في مستهل جمادى الآخرة ، وابن شداد والعماد كانوا ملازمين لصلاح الدين فى الشام .

ودليل آخر على اسراف المهاجمين في الهجوم على ابن الأثير ، ما ذكره الدكتور الشيبال في تعليقه على خبر ما ذكره ابن واصل في كتابه ( مفرج الكروب ، ج / ١ ص / ٣٣٧ ) عن « النفرة » التي حدثت بين نور الدين محمود وبين صلاح الدين الأيوبى بعد أن حل في وزارة مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، وفي الخبر أن نور الدين عزم على اخراج صلاح الدين من مصر بالقوة ، فيتعلق

(١) في عبارة الدكتور العرييني اضطراب ظاهر ، وهو يقصد عكس ما يقول ، أي ان الهجوم على حماة كان قبل وقعة الرملة ، والا يكون ابن الأثير متفقا مع العmad .

الدكتور الشيبال على الخبر - مشككاً في صحته - بقوله : « ولا يحظى  
 أن المصدر الأول لأخبار النفرة بين نور الدين وصلاح الدين هو  
 ابن الأثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكدها كلما سُنحت له فرصة » .  
 والواقع أن ابن الأثير لم يكن المصدر الأول لأخبار النفرة ، وإنما  
 كان آخر المصادر في المعاصرة لصلاح الدين ، وأن أول ما أذاعها هو  
 العماد الكاتب في كتابه « البرق الشامي » ، والعماد الكاتب توفي في  
 سنة ٥٩٧ ، أي قبل وفاة ابن الأثير بثلاث وثلاثين سنة ، كذلك  
 أذاعها قبل ابن الأثير كل من ابن أبي طي الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠  
 في كتابه « كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين » ، وابن شداد  
 المتوفى سنة ٦٣٢ في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن  
 اليوسفية » وهو في سيرة صلاح الدين ، وإذا كان ابن أبي طي توفي في  
 نفس السنة التي توفي فيها ابن الأثير ، وأن ابن شداد توفي  
 بعده بستين ، إلا أن كتابيهما ظهرَا قبل وفاتهما بسنوات طويلة ،  
 لأن الكتابين في سيرة صلاح الدين ، وليس من شك في أن الرجلين ،  
 كانوا حريصين على إخراج كتابيهما بعد وفاة صلاح الدين مباشرة  
 لعلاقتهما المستمرة بخلفائه الأيوبيين ؛ والفرق بين هؤلاء المؤرخين  
 وبين ابن الأثير ، أن ابن الأثير انفرد عنهم بذكر مناقشة دارت في  
 اجتماع أسرى عقده صلاح الدين للتشاور فيما يصنع لما بلغه عزم  
 نور الدين على إخراجه من مصر ، فماذا قال ابن أبي طي عن النفرة  
 التي حدثت بين نور الدين وصلاح الدين ؟ قال ، إنه لما أرسل نور الدين  
 من قبله ابن القيسراني لمحاسبة صلاح الدين على ما حصل له من  
 أموال مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية : « فصعب ذلك على  
 السلطان ( صلاح الدين ) وأراد شق العصى ، لو لا ما ثاب إليه من  
 السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه  
 على ابن القيسراني » .

أما ابن شداد فأنه قال : « ولقد حكم إلى السلطان ( صلاح الدين )

قال : « كان بلغنا عن نور الدين أنه على عزم قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشieren بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ، ونلقى عسکره بمصاف نرده اذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته » .

أما ما ذكره العماد الكاتب ، فان النص الذى لدinya لا يبرز التفرة كما أبرزها ابن أبي طى وابن شداد ، وان كان يفهم منه أن نور الدين لم يكن راضيا عن صلاح الدين . قال العماد ، انه بعد أن قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ، واستولى على قصر الخليفة الفاطمى ، أرسى إلى نور الدين هدايا من تحف القصر لم تعجب نور الدين لأنه لم يكن فى حاجة إليها ، وإنما كان فى حاجة إلى مساعدة فعالة من صلاح الدين من المال والجنود لقتال الصليبيين ، قال العماد : « وكان نور الدين ذكيا ، فطننا لوذعيا ، لا تشتبه عليه الأحوال ، ولا يتبرج عليه الرجال ، ولا يتأهل لغير أهل منه الأفضال » ثم قال بعد أن ذكر أنواع الهدايا وكمياتها : « فشكر نور الدين همته ( همة صلاح الدين ) وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته وفضل صفتة ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا تسد به خلة الإقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لِمْ يَنْفُقْ الْذَّهَبُ الْمَرْبُى بِكَثْرَتِهِ

على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد ، ووفر الأعداد من الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الإمداد بالمعونة والإمداد ، فاستنزه وما استغزره ، واستقل المحمول فى جنب ما حزره ، وتروى فيما يدبره ، وأفکر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره » الخ وهكذا نرى أن ابن الأثير ليس هو المصدر الأول

لأخبار النفرة ، وإنما هو آخر المصادر المعاصرة ، باعتبار أن كتابه ظهر بعد ظهور كتب العماد ، وابن أبي طي ، وابن شداد .

وعلى كل حال ، فإن ما عرضنا من الهجوم على ابن الأثير وردنا عليه لا يعطى الصورة الكاملة للهجوم والرد ، ولذلك نحيل من يهمه الموضوع ، إلى دراستنا المفصلة لكتاب « الكامل » ، وفيهما الصورة الكاملة للهجوم والرد .

## نماذج

هـنـ أـخـبـارـ اـنـ الـأـثـيـرـ فـيـ «ـ الـكـامـلـ »

من أخبار هذه الخليقة :

( القول في ابتداء الخلق وما كان أوله )

« صحيح في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه عبادة بن الصامت أنه سمعه يقول : « ان أول ما خلق الله تعالى ، القلم ، وقال له : اكتب ، فجري في تلك الساعة بما هو كائن » . وروى نحو ذلك عن ابن عباس . وقال محمد بن إسحاق : أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ، فجعل الظلمة ليلاً أسود ، وجعل النور نهاراً أبيض مضيئاً ، والأول أصح للحديث . وابن إسحاق لم يسند قوله إلى أحد . واعتبر أبو جعفر ( يقصد الطبرى ) على نفسه بما روى سفيان عن أبي هاشم عن مجاهد عن ابن عباس انه قال : « ان الله تعالى كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق الله القلم ، فجري بما هو كائن إلى يوم القيمة ، وأحاب بأن هذا الحديث ان كان صحيحاً ، فقد رواه شعبه أيضاً عن أبي هاشم ، ولم يقل فيه ان الله كان على عرشه ، روى أنه قال : أول ما خلق الله القلم » .

**ومن أخبار آدم :**

**( ذكر الموضع الذي أهبط فيه آدم وحواء من الأرض )**

« قيل : ثم ان الله تعالى أهبط آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذي خلقه فيه ، وهو يوم الجمعة مع زوجته حواء من السماء . فقال علي وابن عباس وقتادة وأبو العالية : انه أهبط بالهند على جبل يقال له « نور » من أرض سرندليب ، وحواء بـ « جدة » . قال ابن عباس : فجاء في طلبها ، فكان كلما وضع قدمه بموضع صار قرية ، ومن بين خطوطيه مفاوز ، فصار حتى أتى « جمعا » ، فازدلفت اليه حواء ، فلذلك سميت « المزدلفة » وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات » واجتمعا بجمع فلذلك سميت « جمعا » ، وأهبطت الحياة بأسفهان ، وابليس بـ « ميسان » . وقيل : أهبط آدم بالبرية ، وابليس بالأبلة » .

**من أخبار الأنبياء :**

**( ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه )**

« ثم ان إبراهيم والذين اتبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم ، فخرج مهاجرا حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى ، كان اسمه سنان ابن علوان بن عبيد بن عولج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح . وقيل : كان أخا الضحاك ، استعمله على مصر ، وكانت سارة من أحسن النساء وجهها ، وكانت لا تعصي إبراهيم شيئا ، فلما وصفت لفرعون أرسيل إلى إبراهيم فقال : من هذه التي معك ؟ قال : أختي – يعني في الإسلام – وتخوف أن قال هي امرأتي أن يقتله . فقال له : « زينها وأرسلها إلى ، فأمر بذلك إبراهيم فتزينت وأرسلها إليه ، فلما دخلت عليه أهوى بيده إليها – وكان إبراهيم حين أرسلها قام يصلي – فلما أهوى إليها أخذ أخذ شديدا . فقال لها : ادعى الله

وَلَا أَضْرَكَ ، فَدَعَتْ لَهُ ، فَأَرْسَلَ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا ، فَأَخْذَ أَخْذًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : ادْعِ اللَّهَ وَلَا أَضْرَكَ ، فَدَعَتْ فَأَرْسَلَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ الْثَالِثَةَ ، فَذَكَرَ فِي الْمَرْتَنَ ، فَدَعَا أَدْنَى حِجَابِهِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ ، وَإِنَّكَ أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ ، أَخْرَجَهَا وَاعْطَاهَا هَاجِرَ ، فَفَعَلَ ، فَأَقْبَلَتْ بِهَا هَاجِرَ ، فَلَمَّا أَحْسَنَ إِبْرَاهِيمَ بِهَا ، انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ ، فَقَالَ : مَهِيمٌ ؟ فَقَالَتْ : كَفَى اللَّهُ كِيدَ الْكَافِرِينَ ، وَأَخْدَمَ هَاجِرَ » وَكَانَ أَبُو هَرِيرَةَ يَقُولُ : تَلِكَ أَمْكَمَ يَا بْنَى مَاءِ السَّمَاءِ • وَرَوَى أَبُو هَرِيرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَكُنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا ثَلَاثَ مَرَاتٍ : اثْنَتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلَهُ « إِنِّي سَقِيمٌ » وَقَوْلَهُ : « بَلْ فَعْلَهُ كَبِيرٌ هُمْ هَذَا » وَقَوْلَهُ فِي سَارَةَ « هِيَ أَخْتِي » •

### ( ذِكْرُ بَنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَوِفَّاقَ دَاوِدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ )

« قَيْلٌ : أَصَابَ النَّاسَ فِي زَمَانِ دَاوِدَ طَاعُونَ جَارِفَ ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى مَوْضِعِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَانَ يَرَى الْمَلَائِكَةَ تَعْرَجُ مِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلَهُذَا قَصْدَهُ لِيَدْعُوهُ فِيهِ • فَلَمَّا وَقَفَ مَوْضِعَ الصَّخْرَةِ ، دَعَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كَشْفِ الطَّاعُونِ عَنْهُمْ فَاسْتَجَابَ لَهُ وَرَفَعَ الطَّاعُونَ ، فَاتَّخَذُوا ذَلِكَ المَوْضِعَ مَسْجِدًا ، وَكَانَ الشَّرُوعُ فِي بَنَائِهِ لَاحِدًا عَشْرَةَ سَنَةً مَضَتْ مِنْ مَلَكِهِ ، وَتَوَفَّى قَبْلَ أَنْ يَسْتَتِمَ بِبَنَاءِهِ ، وَأَوْصَى إِلَى سَلِيمَانَ بِاتِّمامِهِ ، وَقُتِلَ الْقَائِدُ الَّذِي قُتِلَ أَخَاهُ إِيْشَانُ بْنُ دَاوِدَ • فَلَمَّا تَوَفَّى دَاوِدُ وَدُفِنَ سَلِيمَانُ ، تَقَدَّمَ بِانْفَادَ أَمْرِهِ ، فَقُتِلَ الْقَائِدُ ، وَاسْتَتِمَ بِبَنَاءِ الْمَسْجِدِ ، بِنَاءً بِالرَّخَامِ ، وَزَخْرَفَهُ بِالذَّهَبِ ، وَرَصَّعَهُ بِالْجُواهِرِ ، وَقَوَى عَلَى ذَلِكَ جَمِيعَهُ بِالْجُنُونِ وَالشَّيْاطِينِ ، فَلَمَّا فَرَغَ اتَّخَذَ ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا عَظِيمًا ، وَقَرَبَ قَرْبَانًا ، فَتَقْبِيلَهُ اللَّهُ مِنْهُ • وَكَانَ ابْتِداَءُهُ أَوْلًا بِبَنَاءِ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا ابْتَدَأَ بِعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ • وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسَ فِي صَفَةِ الْبَنَاءِ مَا يَسْتَبَعُهُ وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهِ •

« وَقَيْلٌ : أَنَّ سَلِيمَانَ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَ بِعِمَارَةِ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ

داود أراد أن يبنيه ، فأوحى الله إليه : إن هذا بيت مقدس ، وإنك قد صبغت يدك في الدماء فلست ببنيه ، ولكن ابنك سليمان يبنيه لسلامته من الدماء . فلما ملك سليمان بناء . ثم إن داود توفي ، وكان له جارية تغلق الأبواب كل ليلة ، وتأتيه بالمفاتيح فيقوم إلى عبادته ، فاغلقتها ليلة ، فرأى في الدار رجلا ، فقالت : من أدخلك الدار ؟ فقال : أنا الذي أدخل على الملوك بغير إذن . فسمع داود قوله فقال : أنت ملك الموت ؟ قال : نعم . قال : فهلا أرسلت إلى لاستعد للموت ؟ قال : قد أرسلت إليك كثيرا . قال : من كان رسولك ؟ قال : أين أبوك وأخوك وجارك ومعارفك ؟ قال : ماتوا . قال : فهم كانوا رسلي إليك لأنك تموت كما ماتوا . ثم قبضه . فلما مات ورث سليمان ملكه وعلمه ونبوته ، وكان له تسعه عشر ولدا ، فورثه سليمان دونهم . وكان عمر داود - لما توفي - مائة سنة ، صحيح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم : وكانت مدة ملكه أربعين سنة » .

ومن أخبار الأمم السابقة ( الفرس ) : ( ذكر الأحداث التي كانت من لدن ملك شيش إلى أن ملك يرد ) « . وأما نسابو الفرس ، فقد ذكرت ما قالوا في مهلائيل ابن قينان ، وأنه هو « أوشنهنج » الذي ملك الأقاليم السبعة ، وبينت قول من خالفهم . وقال هشام بن الكلبي : انه أول من بني البناء ، واستخرج المعادن ، وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد ، وبنى مدینتين كانتا أول ما بني على ظهر الأرض من المدائن ، وهما : مدینة « بابل » - وهي بالعراق - ومدینة « السوس » - بخوزستان - . وكان ملكه أربعين سنة . وقال غيره : هو أول من استنبط الحديد ، وعمل منه الأدوات للصناعات ، وقدر المياه في مواضع المنافع ، وحض الناس على الزراعة واعتماد الأعمال ، وأمر بقتل السباع الضاربة ، واتخاذ الملابس من جلودها والمفارش ، وبذبح البقر والغنم والوحش وأكل لحومها ، وأنه بني مدینة

«الرى» . قالوا : وهى أول مدينة بنيت بعد مدينة جيومرث التى كان يسكنها بدنباوند . وقالوا : انه أول من وضع الأحكام والحدود . وكان ملقبا بذلك يدعى بيشداد ، ومعناه بالفارسية أول من حكم بالعدل ، وذلك أن «بيش» معناه : أول ، و «داد» معناه : عدل وقضاء . وهو أول من استخدم الجوارى ، وأول من قطع الشجر وجعله فى البناء . وذكروا أنه نزل الهند وتنقل فى البلاد ، وعقد على رأسه تاجا ، وذكروا أنه قهر ابليس وجنوده ومنعهم الاختلاط بالناس وتوعدهم على ذلك ، وقتل هردمتهم فهربوا من خوفه الى المفاوز والجبال ، فلما مات عادوا . وقيل : انه سمي شرار الناس شيئاً طين واستخدموهم ، وملك الأقاليم كلها ، وأنه كان بين مولد «أوشنهنج» وموت «جيومرث» مائتا سنة وثلاثة وعشرون سنة .

## ومن أخبار الفرس والعرب :

### ( ذكر غزو بختنصر العرب )

«قيل : أوحى الله الى برخيا بن ضانيا يأمره أن يقول لبختنصر ليغز العرب ، فيقتل مقاتلتهم ويسبى ذراريهم ويستبيح أمواهم عقوبة لهم على كفرهم ، فقال برخيا لبختنصر ما أمر به ، فابتداً بهن في بلاده من تجار العرب فأخذهم وبني لهم «حران» بالنجد وحبسهم فيه ، ووكل بهم ، وانتشر الخبر في العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مستأمين فقبلهم وعفا عنهم فأنزلهم السوداد فابتزوا الأنبار ، وخل عن أهل الحيرة فاتخذوها منزلاً حيارة بختنصر ، فلما مات انضموا إلى أهل الأنبار - وهذا أول سكنى العرب السواد بالحيرة والأنبار - . وسار إلى العرب بنجد والجعاز ، فأوحى الله الى برخيا وأرميا يأمرهما أن يسيراً الى معد بن عدنان فيتخذاه ويحمله الى حران ، وأعلمهما أنه يخرج

من نسله محمد صلى الله عليه وسلم (؟) الذي يختتم به الأنبياء ، فسيراً تطوى لها المنازل والأرض حتى سبقا بختنصر إلى معد ، فحملاه إلى حرا في ساعتهما - ولم يعده حينئذ اثنتا عشرة سنة - . وسار بختنصر ، فلقى جموع العرب فقاتلهم فهزهم ، وأكثر القتل فيهم ، وسار إلى الحجاز ، فجمع عدنان العرب ، والتقي هو وبختنصر بذات عرق ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزم عدنان وتبعه بختنصر إلى حصون هناك ، واجتمع عليه العرب وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه ، فكمن بختنصر كمينا - وهو أول كمين عمل - وأخذتهم السيوف ، فنادوا بالويل ، ونهى عدنان عن بختنصر وبختنصر عن عدنان ، فافترقا ، فلما رجع بختنصر ، خرج معد بن عدنان مع الأنبياء حتى أتى مكة ، فأقام أعلامها ، وحج وحج معه الأنبياء ، وخرج معد حتى أتى « ريشوب » وسائل عمن بقى من ولد الحرش بن مضاض الجرهمي ، فقيل له : بقى جوشم ابن جلهمة ، فتزوج معد ابنته معانة ، فولدت له نزار بن معد .

## ومن أخبار الروم :

### ( وما كان من الأحداث شمسون )

« وكان من قرية من قرى الروم قد آمن ، وكانوا يعبدون الأصنام ، وكان على أميال من المدينة ، وكان يغزوهم وحده ، ويقاتلهم بلحي جمل ، فكان إذا عطش انفجر له من الحجر الذي فيه ماء عذب فيشرب منه . وكان قد أعطى قوة ، لا يوثقه حديد ولا غيره ، وكان على ذلك يجاهدهم ويصيب منهم وما يقدرون منه على شيء ، فجعلوا لامرأته جعلا لتوثقه لهم ، فأجابتهم إلى ذلك ، فأعطوها جيلا وثيقا ، فتركته حتى نام وشدت يديه ، فاستيقظ وجذبه ، فسقط الجبل من يديه ، فأرسلت إليهم فأعلمتهم ، فأرسلوا

اليها بجامعة من حديد ، فتركتها في يديه وعنقه وهو نائم ، فاستيقظ وجذبها ، فسقطت من عنقه ويديه ، فقال لها في المرتين : ما حملك على ما صنعت ؟ فقالت : أريد أن أجرب قوتك وما رأيت مثلك في الدنيا فهل في الأرض شيء يغلبك ؟ قال : نعم ، شيء واحد ، فلم تزل تسأله حتى قال لها : ويحك ، لا يضطبني إلا شعري . فلما نام أوثقت يديه بشعر رأسه – وكان كثيرا – فأرسلت إليهم ، فجاءوا فأخذوه ، فجذعوا أنه وأذنيه وفقوءوا عينيه ، وأقاموه للناس . وجاء الملك لينظر إليه ، وكانت المدينة على أساطين ، فدعا الله شمسون عليهم ، فأمر أن يأخذ عمودين من عمد المدينة فيجذبهما ويرد إليه بصره وما أصابوا من جسده ، وجذب العمودين فوقعت المدينة بالملك والناس ، وهلك من فيها هدما . وكان شمسون أيام ملوك الطوائف » .

**ومن أخبار بنى إسرائيل :**

### ( ذكر أمر بنى إسرائيل في القيه ووفاة هارون عليه السلام )

« ثم ان الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسير بيني إسرائيل إلى « أريحا » بلد الجبارين ، وهي أرض بيت المقدس ، فساروا حتى كانوا قريبا منهم، فبعث موسى اثنى عشر نقيبا من سائر أسباط بنى إسرائيل، فساروا ليأتوا بخبر الجبارين ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له « عوج بن عنان » فأخذ الاثنى عشر فحملهم وانطلق بهم الى امرأته ، فقال : انظرى الى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا ، وأراد أن يطأهم برجله ، فمنعته امرأته ، وقالت : اطلقهم ليرجعوا ويخبروا قومهم بما رأوا ، ففعل ذلك ، فلما خرجوا قال بعضهم لبعض : انكم ان أخبرتم بنى إسرائيل بخبر هؤلاء لا يقدموا عليهم ، فاكتمروا الأمر عنهم ، وتعاهدوا على ذلك ، ورجعوا ، فنكث عشرة منهم العهد وأخبروا بما رأوا ، وكتم رجلان

منهم ، وهما : يوشع بن نون وَكَالْبُ بْنُ يَوْفَنَا خَتْنَ مُوسَى ، وَلَمْ يَخْبُرُوا  
إِلَّا مُوسَى وَهَارُونَ ٠

« فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْخَبَرَ عَنِ الْجَبَارِينَ ، امْتَنَعُوا عَنِ  
الْمُسِيرِ إِلَيْهِمْ ( فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى يَا قَوْمَ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي  
كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقِلُبُوا خَاسِرِينَ ) قَالُوا :  
يَا مُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا  
فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَا دَخْلُونَ ( قَالَ رَجُلٌ ) وَهُمَا يَوْشَعُ وَكَالْبُ  
( مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمِ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ  
فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ٠ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبْدًا مَا دَامُوا فِيهَا  
فَإِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَّا قَاعِدُونَ ) فَغَضِبَ مُوسَى فَدَعَا  
عَلَيْهِمْ فَقَالَ ( رَبِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخْرِي فَافْرَقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ  
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ) وَكَانَتْ عَجْلَةً مِنْ مُوسَى ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( فَإِنَّهَا  
مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ ) فَنَدِمَ مُوسَى حِينَئِذٍ  
فَقَالُوا لَهُ : فَكَيْفَ لَنَا بِالطَّعَامِ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَنْ وَالسَّلُوْيَ - فَأَمَّا  
الْمَنْ ، فَقَيْلٌ : هُوَ كَالصِّمْعَ وَطَعْمُهُ كَالشَّهْدَ يَقْعُدُ عَلَى الْأَشْجَارِ ؛  
وَقَيْلٌ : هُوَ التَّرْنَجَبَيْنِ ؛ وَقَيْلٌ : هُوَ الْخَبْزُ الرَّقَاقِ ؛ وَقَيْلٌ : هُوَ عَسلٌ  
كَانَ يَنْزَلُ لِكُلِّ اِنْسَانٍ صَاعٌ ٠ وَأَمَّا السَّلُوْيَ ، فَهُوَ طَائِرٌ يَشْبِهُ  
السَّمَانِيَ - ٠ فَقَالُوا : أَيْنَ الشَّرَابُ ؟ فَأَمَرَ مُوسَى ( فَضَرَبَ بَعْصَاهُ  
الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ) لِكُلِّ سَبْطٍ عَيْنٌ ٠ فَقَالُوا :  
أَيْنَ الظَّلَ ؟ فَظَلَلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ ؛ فَقَالُوا : أَيْنَ الْلِّبَاسُ ؟ فَكَانَتْ  
ثِيَابُهُمْ تَطُولُ مَعْهِمْ وَلَا يَتَمَرَّقُ لَهُمْ ثُوبٌ ، ثُمَّ ( قَالُوا يَا مُوسَى لَنْ  
نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَخْرُجَ لَنَا مِمَّا تَنْبَتُ الْأَرْضُ مِنْ  
بَقْلَهَا وَقَنَائِهَا وَفَوْمَهَا وَعَدْسَهَا وَبَصْلَهَا قَالَ أَتَسْتَبَدُلُونَ الَّذِي هُوَ  
أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوكُمْ مَصْرًا فَإِنَّكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ) فَلَمَّا خَرَجُوا  
مِنْ الْتِيْهِ رَفَعَ عَنْهُمُ الْمَنْ وَالسَّلُوْيَ ٠ »

## ومن أخبار السيرة :

( ذكر الوقت الذي أرسل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم )

« بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لعشرين سنة مضت من ملك كسرى أبروين بن هرمز بن أنوشروان ، وكان على العيرة اياس بن قبيصه الطائى عاماً للفرس على العرب . قال ابن عباس من رواية حمزة وعكرمة عنه ، وأنس بن مالك ، وعروة بن الزبير : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وأنزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة . وقال ابن عباس من رواية عكرمة أيضاً عنه وسعید بن المسيب : انه أنزل عليه صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وكان نزول الوحي يوم الاثنين بلا خوف ، واختلفوا في أي الاثنين كان ذلك . فقال أبو قلابة الجرمي : أنزل الفرقان على النبي صلى الله عليه وسلم لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وقال آخرون : كان ذلك لتسعة عشرة مضت من رمضان ، وكان - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يظهر له جبريل يرى ديعاً من آثاراً من ي يريد الله أكرامه بفضله ، وكان من ذلك ما ذكرت من شق الملائكة بطنه واستخراجهما ما في قلبه من الغل والدنس ؛ ومن ذلك أنه كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه ، فكان يلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً . وكانت الأمم تتحدث بمبعثه وتخبر علماء كل أمة قومها بذلك . قال عامر ابن ربيعة : سمعت زيد بن عمرو بن نفیل يقول : أنا لتنظر نبياً من ولد اسماعيل ، ثم من بنى عبد المطلب ولا أرانى أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى ، فان طالت بك حياة ورأيته فاقرأه مني السلام ، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك ، قلت : هلن . قال : هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، ولا تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده وبعثته ، ثم يخرج به قومه

ويكرهون ما جاء به ويهاجر إلى يشرب ، فيظهر بها أمره ، فايالك  
أن تنخدع عنه ، فاني طفت البلاد كلها أطلب دين ابراهيم ، فكل  
من أسأله من اليهود والنصارى والمجوس يقول : هذا الدين وراءك  
وينعمونه مثل نعمتك ، ويقولون : لم يبقنبي غيره . قال عامر :  
فلما أسلمت أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول زيد  
وأقر أنه السلام ، فرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترحم  
عليه ، وقال : قد رأيته في الجنة يسبح ذيولا . وقال  
حبير بن مطعم : كنا جلوسا عند صنم بوابة قبل أن يبعث رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بشهر ونحرنا جزورا ، فإذا صائحة يصيح  
من جوف الصنم : اسمعوا إلى العجب ، ذهب استراق الموحى ونرمى  
بالشهب ، لنبي بمكة اسمه أحمـد ، مهاجره إلى يشرب . قال :  
فأمسكنا وعجبنا ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم « .  
والأخبار عن دلائل نبوته كثيرة . وقد صنف العلماء في ذلك كتبـا  
كثيرة ذكرـوا فيها كل عجيبة ليس هنا موضع ذكرـها » .

### ( ودخلت السنة الثالثة من الهجرة )

« في المحرم سنة ثلاـث ، سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن جمـعا من بـنى ثعلبة بن سـعد بن ذـبيان ، وبـنى محـارب ابن حـفص ، تـجمـعوا ليصـيبـوا من المسلمين فـسـارـ إليـهم في أربعـمائة وخمسـين رـجـلا ، فـلـما صـارـ بـذـى الـقصـة ، لـقـى رـجـلا من ثـعلـبة فـدعـاه إـلـى إـلـاسـلام فـأـسـلم ، وـأـخـبـره أنـ المـشـركـين أـتـاهـمـ خـبـرـه فـهـرـبـوا إـلـى رـؤـوسـ الـجـبـالـ ، فـعـادـ وـلـمـ يـلـقـ كـيـدا ، وـكـانـ مـقـامـهـ اـثـنـيـ عـشـرةـ لـيـلـةـ .

وفيـها ، فيـ جـمـادـىـ الـأـوـلـى ، غـزاـ بـنـىـ سـلـيمـ بـبـحرـانـ ؟ وـسـبـبـ هذهـ الغـزوـةـ ، أـنـ جـمـعاـ منـ بـنـىـ سـلـيمـ تـجـمـعواـ بـبـحرـانـ منـ نـاحـيةـ الفـرعـ ، فـبـلـغـ ذـلـكـ النـبـىـ - صلىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـيمـ - فـسـارـ إـلـيـهاـ فيـ

ثلاثمائة ، فلما بلغ بحران وجدهم قد تفرقوا فانصرف ولم يلق  
كيدا . وكانت غيبته عشر ليال ، واستخلف على المدينة  
ابن أم مكتوم » .

ومن أخبار فتوح العراق ( بقيادة خالد بن الوليد ) :

( ذكر وقعة الفراخ ) سنة ١٢ هـ

« ثم سار خالد من « الرضاب » الى الفراص - وهي تخوم الشام  
والعراق والجزيرة - وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات ، وحميت  
الروم واستعنوا بمن يليهم من مسالع الفرس فأعانوهم ، واجتمع  
معهم ( من العرب ) : بنو تغلب ، وأياد ، والنمر وساروا الى خالد ،  
فلما بلغوا الفرات قالوا له : اما أن تعبروا علينا واما أن نعبر اليكم ،  
فقال خالد : اعبروا . قالوا له : تنح عن طريقنا حتى نعبر . قال :  
لا أفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا - وذلك للنصف من ذى القعدة  
سنة اثنى عشرة - . فقالت الروم وفارس بعضهم البعض : احتسبوا  
ملككم ، هذا رجل يقاتل على دين ، وله عقل وعلم ، ووالله لينصرن  
ولنخذلن ، ثم لم ينتفعوا بذلك - فعبروا أسفل من خالد ، وعظم  
في أعينهم ، وقالت الروم : امتازوا حتى نعرف اليوم من يثبت  
من يولي ، ففعلوا ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، وانهزمت الروم ومن معهم ،  
وأمر خالد المسلمين أن لا يرفعوا عنهم ( السيف ) فقتل في المعركة  
وفى الطلب مائة ألف ، وأقام خالد على الفراص عشرة ، ثم أذن  
بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمرو  
أن يسير بهم ، وجعل شجرة بن الأعز على الساقية وأظهر خالد أنه  
في الساقية » .

## ومن أخبار فتوح الشام :

### ( ثم دخلت سنة خمس عشرة )

( ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية ) : « ثم أرسل أبو عبيدة ، خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر ، زحف إليهم الروم وعليهم « ميناس » - وكان من أعظم الروم بعد هرقل - فاقتتلوا ، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها ، فماتوا على دم واحد . وأما أهل الحاضر ، فأرسلوا إلى خالد انهم عرب ، وأنهم حشروا ، ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم . وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنا منه ، فقال : إنكم لو كنتم في الصحابة لحملنا الله إليكم أو لأنزل لكملينا ، فنظروا في أمرهم ، ورأوا ما لقي أهل حمص فصالحوهم على صلح حمص ، فأبى خالد إلا على خراب المدينة فأخربها ، فعند ذلك دخل هرقل القسطنطينية ، وسببه أن خالدا وعيضا خاصا أدربا إلى هرقل من الشام ، وأدرب عمر بن مالك من الكوفة ، فخرج من ناحية قرقيسيا ، وأدرب عبد الله بن المعتم من ناحية الموصل ، ثم رجعوا ، فعندما دخل هرقل القسطنطينية ، وكانت هذه أول مدرسة في الإسلام سنة خمس عشرة - وقيل سنت عشرة - فلما بلغ عمر صنيع خالد ، قال : أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني - وقد كان ( عمر ) عزله والثني بن حارثة ، وقال : إنني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلا إليهما ، فاما الثني ، فإنه رجع عن رأيه فيه لما قام بعد أبي عبيدة ، ورجع عن خالد بعد قنسرين - . وأما هرقل ، فإنه أخرج من الرعا ، وكان أول من أنبع كلابها ، ونفر دجاجها من المسلمين زياد بن حنظلة - وكان من الصحابة - . وسار هرقل فنزل بشمساط ، ثم أدرب منها نحو القسطنطينية ، فلما أراد المسير منها ، علا على نهر ثم التفت إلى الشام فقال : « السلام عليك يا سوريه سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي »

أبدا إلا طائفها حتى يولد المولود المشئوم ويما ليته لا يولد فما أحلى فعله وأمر فتنته على الروم » ، ثم سار فدخل القسطنطينية ، وأخذ أهل الحصون التي بين اسكندرية ( لعله يقصد اسكندرية ) وطرسوس معه لثلا يسير المسلمين في عمارة ما بين انطاكيه وبلاط الروم ، وشعث الحصون ، فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا ، وربما كمن عندها الروم ، فأصابوا غرة المتخلفين فاحتاط المسلمون لذلك » .

### ومن أخبار فتوح الهند :

( ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة )

( ذكر مسیر الهند الى بلاد الاسلام وما كان منهم مع سبكتکین ) : « لما فرغ سبكتکین من « بست » و « قصدار » غزا الهند ، فافتتح قلاعا حصينة على شواهد الجبال وعاد سالما ظافرا . ولما رأى « جيپال » ملك الهند ما دهاء وأن بلاده تملك من أطراها ، أخذه ما قدم وحدث ، فحشد وجمع ، واستكثر من الفيول وساز حتي اتصل بولاية سبكتکین - وقد باض الشيطان في رأسه وفرخ - ، فسار سبكتکین عن غزنة اليه ومعه عساکره وخلق كثير من المتطوعة ، فالتقو واقتتلوا أياما كثيرة ، وصبر الفريقان ، وبالقرب منهم « عقبة غورك » وفيها عين ماء لا تقبل نجسا ولا قدرا ، واذا ألقى فيها شيء من ذلك ، اکفهرت السماء ، وهبت الرياح ، وكسر الرعد والبرق . والأمطار ولا تزال كذلك الى أن تظهر من الذي ألقى فيها ، فأمر سبكتکین بالقاء نجاسة في تلك العين ، فجاء الغيم والرعد والبرق ، وقامت القيامة على الهند لأنهم رأوا ما لم يروا مثله وتواتت عليهم الصواعق والأمطار واشتد البرد حتى هلكوا ، وعميت عليهم المذهب ، واستسلموا لشدة ما عاينوه ؛ وأرسل ملك الهند إلى سبكتکین يطلب الصلح وترددت الرسل ، فأجابهم اليه بعد

امتناع ولده محمود على مال يؤديه وبلاد يسلّمها وخمسين فيلا يحملها إليه ، فاستقر ذلك ، ورهن عنده جماعة من أهله على تسليم البلاد ، وسير معه سبكتكين من يسلّمها ، فان المال والقبيلة كانت معجلة ، فلما أبعد « جيجال » ملك الهند ، قبض على من معه من المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه ، فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر ، وسار نحو الهند ، فآخر كل ما من عليه من بلادهم ، وقصد « لغان » - وهي من أحسن قلاعهم - فافتتحها عنوة ، وهدم بيوت الأصنام ، وأقام فيها شعار الإسلام ، وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها ، فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة ، فلما بلغ « جيجال » سقط في يده ، وجمع العساكر وسار في مائة ألف مقاتل ، فلقى سبكتكين وأمر أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهند ففعلوا ذلك ، فضجر الهند من دوام القتال معهم ، وحملوا حملة واحدة ، فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب ، وحمل أيضا المسلمين جميعهم ، واختلط بعضهم ببعض ، فانهزم الهند وأخذهم السيف من كل جانب ، وأسر منهم ما لا يعد ، وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة ، وذل الهند بعد هذه الواقعة ، ولم يكن لهم بعدها راية ، ورضوا بأن لا يطلبوا في أقصى بلادهم ، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الواقعة ، أطاعه الأفغانية والخليج وصاروا في طاعته .

### ( ثم دخلت سنة خمس وتسعين وثلاثمائة )

( ذكر غزوة بهاطية ) : « في هذه السنة ، غزا يمين الدولة بهاطية من أعمال الهند - وهي وراء المولتان - وصاحبها يعرف ببحرا ، وهي مدينة حصينة عالية سور يحيط بها خندق عميق ، فامتنع صاحبها بها ، ثم انه خرج إلى ظاهرها ، فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم في الرابع ، وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقوهم المسلمين إلى باب البلد فملكونه عليهم وأخذتهم السيف من بين أيديهم ومن خلقوهم ، فقتل المقاتلة ، وسيبيت الذرية ، وأخذت الأموال . وأما بحرا ،

فانه لما عاين الهايك ، أخذ جماعة من ثقاته وسار الى رءوس تلك الجبال ، فسير اليه يمين الدولة سرية ، فلم يشعر بهم بحيرا الا وقد أحاطوا به ، وحكموا السيف في أصحابه ، فلما أتيقنا بالعطب أخذ خنجر ا كان معه فقتل به نفسه . وأقام يمين الدولة ببهاطية حتى أصلاح أمرها ورتب قواعدها وعاد عنها الى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه ، ولقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهر ، ففرق منه ومن عسكره شيء عظيم » .

## ومن أخبار الصراع بين العباسيين والأمويين :

### ( ثم دخلت سنة دائمة )

( ذكر ابتداء الدعوة العباسية ) : « في هذه السنة ، وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، الدعاة في الآفاق . وكان سبب ذلك أن مهدياً كان ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام ، فسار أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام ، إلى ( الخليفة الأموي ) سليمان بن عبد الملك ، فاجتمع به محمد بن علي فأحسن صحابته ، واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ، ورأى من علمه وفصاحته ما حسنه عليه وخافه ، فوضع عليه من وقف على طريقة فسمه في لبن ، فلما أحس أبو هاشم بالشر ، قصد الحميمة من أرض الشام وبها محمد بن نمير ، وأعلمته أن هذا الأمر ( أي الخلافة ) صائر إلى ولده وعرفه ما يعمل . وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان وال伊拉克 عند ترددتهم إليه أن الأمر صائر إلى ولد محمد بن علي وأمرهم بقصده بعده ، فلما مات أبو هاشم قصداً مهدياً وبأعيوه وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم ، وكان الذين سيرهم إلى الآفاق جماعة ، فوجده ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج - وهو أبو محمد الصادق -

وحيان العطار - خال ابراهيم بن سلمة - الى خراسان ، وعليها  
الجراح الحكى ، وأمرهم بالدعاء اليه والى أهل بيته فلقوها من لقوا ،  
ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم الى محمد بن محمد بن علي فدفعوها الى  
ميسرة ، فبعث بها ميسرة الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ،  
فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثنى عشر رجلا نقباء ، منهم :  
سليمان بن كثير الخزاعي ، ولاهز بن قريظ التميمي ، وقطيبة  
ابن شبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن ابراهيم  
أبو داود من بنى شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمي ،  
وعمران بن اسماعيل أبو النجم - مولى آل أبي معيط - ، ومالك  
ابن الهيثم الخزاعي ، وطلحة بن زريق الخزاعي ، وعمرو بن أعين  
أبو حمزة مولى خزاعة ، وشبل بن طهمان أبو علي الهروى - مولى  
لينى حنيفة - ، وعيسى بن أعين - مولى خزاعة - ، واختار سبعين رجلا ،  
وكتب اليهم محمد بن علي كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسرون بها » .

### ومن أخبار ثورة الزنج :

( ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين )

( ذكر أخبار صاحب الزنج ) : « في هذه السنة ، سير جعلان  
لحرب صاحب الزنج بالبصرة ، فلما وصل الى البصرة نزل بمكان  
بينه وبين صاحب الزنج فرسخ ، وخذل عليه وعلي أصحابه ، وأقام  
ستة أشهر في خندقه ، وجعل يوجه الزينبى وبنى هاشم ومن  
خلف لحربهم هذا اليوم الذى تواعدتهم جعلان للقائه ، فلم يكن بينهم  
الرمى بالحجارة والنشاب ، ولا يجد جعلان الى لقائه سبيلا  
لضيق المكان عن مجال الخيil ، وكان أكثر أصحاب جعلان خيالة ،  
فلما طال مقامه في خندقه أرسل صاحب الزنج أصحابه الى مسالك  
الخندق فبيتوا جعلان وقتلوا من أصحابه جماعة ، وخلف الباقيون خوفا  
شديدا ، وكان الزينبى قد جمع : البلاطية ، والسعديات ووجه بهم من

مكانين ، وقاتلوا الحبيت فظفر بهم ، وقتل منهم ممتلكة عذرية ، فترك جعلان خندقه وانصرف الى البصرة ، وظهر عجزه للسلطان فصرفه عن حرب الزنج ، وأمر سعيدا العاجب بمحاربتهم ، وتحول صاحب الزنج بعد ذلك من السبيحة التي كان فيها ، ونزل بنهر أبي الخصيب ، وأخذ أربعة وعشرين مركبا من مراكب البحر ، وأخذوا منها أمرا لا كثيرة لا تحصى ، وقتل من فيها ونهبها أصحابه ثلاثة أيام وأخذ لنسمه بعد ذلك من النهب » .

### ( ذكر دخول الزنج الأبلة )

« وفيها ، دخل الزنج « الأبلة » ، فقتلوا فيها خذنا كثيرا وأحرقوها ، وكان سبب ذلك أن جعلان لما تناهى عن خندقه الى البصرة ، ألح صاحب الزنج بالغارات على « الأبلة » ، وجعلت سرياه تضرب الى ناحية نهر معقل ، ولم يزل يحارب الى يوم الأربعاء لخمس بقين من رجب فافتتحها ، وقتل أبو الأحوص وعبيد الله بن حميد ابن الطوسي ، وأضر بها نارا ، وكانت مبنية بالساج ، فأسرعت النار فيها ، وقتل من أهلها خلق كثير ، وحروا الأموال العظيمة ، وكان ما أحرقت النار أكثر من الذي نهب » .

ومن أخبار الحروب الصليبية :

### ( ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وأربعين )

( ذكر ملك الفرنج لعنهم الله البيت المقدس ) « كان البيت المقدس لشาก الدولة تتش ، وأقطعه للأمير سقمان بن ارتق التركمانى ، فلما ظفر الفرنج بالأتراك على أنطاكية وقتلوا فيهم ضعفوا وتفرقوا ، فلما رأى المصريون ضعف الأتراك ساروا اليه ومقدمهم لافضل بن بدر الجمامي وحضروه وبه الأمير سقمان وايلغازي ابن ارتق وابن عمهم سونج وابن أخيهما يا قوتى ، ونصب عليه نيفا وأربعين منجنينا ،

فهدموا موانع من سوره وقاتلهم أهل البلد ، فدام القتال والحصار  
نيفا وأربعين يوماً وملکوه بالأمان في شعبان سنة تسع  
وثمانين وأربعين ، وأحسن الأفضل إلى سقمان وايلغازي ومن  
معهما ، وأجزل لهم العطاء وسيرهم ، فساروا إلى دمشق ، ثم عبروا  
الفرات ، فأقام سقمان ببلد الرها ، وسار ايلغازي إلى العراق ، واستناب  
المصريون فيه رجلاً يعرف بافتخار الدولة ، وبقي فيه إلى الآن ،  
فتصده الفرنج بعد أن حصرروا عكا فلم يقدروا عليها ، فلما وصلوا  
إليه حصروه نيفا وأربعين يوماً ، ونصبوا عليه برجين ، أحدهما من  
ناحية صهيون وأحرقه المسلمين وقتلو كل من به ، فلما فرغوا من  
احراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من الجانب الآخر وملکوها  
من جهة الشمال منه ضحوة نهار يوم الجمعة لسبعين بقين من شعبان ،  
وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه  
المسلمين ، واحتدمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به  
وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم ،  
ووفى لهم الفرنج ، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها . وقتل  
الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كثيرة  
من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ومن فارق الأوطان  
جاور بذلك الموضع الشريف ؛ وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين  
قنديلاً من الفضة ، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ،  
وأخذوا تذوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي ، وأخذوا من  
القنديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة ، ومن الذهب نيفا وعشرين  
قنديلاً ، وغنموا منه مالا يقع عليه الإحصاء . وورد المستنفرون من  
الشام في رمضان إلى بغداد صاحبة القاضي أبي سعد الهروي ،  
فأردوه في الدبوان كلما أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع  
جمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين  
والقدس الشريف معظم من قتل الرجال ، وسيبي العریم والأولاد ،  
ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا ، فأمر الخليفة أن يسیر

القاضى أبو محمد الدامغاني ، وأبو بكر الشاشى ، وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو الوفا بن عقيل ، وأبو سعد الحلوانى ، وأبو الحسين ابن سماك ، فساروا الى حلوان ، فبلغهم قتل مجد الملك البلاساني - على ما نذكره - فعادوا من غير بلوغ أرب ، ولا قضاء حاجة ، واختلف السلاطين - على ما نذكره - فتمكن الفرنج من البلاد » .

### ( ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسين )

( ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية ) « وفي هذه السنة ، السادس جمادى الآخرة فتح أتابك عماد الدين زنكى بن آق سنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح وغيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا . وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ، ووصلت غاراتهم الى أدانيها وأقاصيها ، وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقعة ؛ وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب مارددين الى الفرات مثل : الرها ، وسروج ، وألبيرة ، وسن ابن عطية ، وحملن ، والموزر ، والفرادي وغير ذلك . وكانت هذه الأعمال مع وغيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين - وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر - . وكان أتابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة ، فاستغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ الى قصد بلادهم ، فلما رأوه أنه غير قادر على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث أنه محارب لهم ، اطمأنوا ، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاده الغربية ، فجاءت عيون أتابك اليه فأخبروه الخبر ، فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غدوته ، وجمع الأمراء عنده ، قال : قدموا الطعام ؛ وقال : لا يأكل على مائدةي هذه الا من يطعن غدا معى بباب الرها ، فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته ، وأن أحدا لا يقدر على مساواته فى الحرب . فقال الأمير

لذلك انتصبي : ما أنت في هذا المقام ؟ فقال أتابك : دعه ، فوالله الذي أرى وجهها لا يختلف عنى . وسار والعساكر معه ، ووصل إلى أرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبي ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضاً فاعتراضه ذلك أمير فطعنه فقتله وسلم الشهيد (عماد الدين أتابك) ونازل البلد وقاتلته ثمانية وعشرين يوماً ، فزحف إليه عدة دفعات ، وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه ، فسقطت البدنة التي نقبها النقابون ، وأخذ البلد عنوة وقبراً ، وحصر قلعته فملكها أيضاً ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذريعة ، وقتلوا الرجال ، فلما رأى أتابك البلد ، أعجبه ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة ، فأمر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوه الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء إلا الشاذ النادر الذي أخذ ، وفارق من أخذه العسكر فعاد البلد إلى حاله الأولى ، وجعل فيه عسكراً يحفظه ، وتسليم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ، ما عدا البيرة ، فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فساز إليها وحصراها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها فبقى على حصارها إلى أن رحل عنها - على ما ذكره إن شاء الله تعالى - » .

( ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسماة )

( ذكر اختلاف الفرنج بالشّام وانحياز القمح صاحب طرابلس الى صلاح الدين ) : « كان القمح صاحب طرابلس واسمه ريمند بن الصنجيل كان قد تزوج بالقومية صاحبة طبرية وانتقل اليها وأقام عندها بطبرية ، ومات ملك الفرنج بالشّام ، وكان مجذوماً ، وأوصى بالملك الى ابن اخت له وكان صغيراً ، فكفله التّمجي وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنّه لم يكن للفرنج في ذلك الوقت أكبر منه شأناً ولا أشعّ ولا أحود رأياً منه ، فطمع في الملك بسبب

هذا ألم غير ؟ فاتفق أن الصفير توفي ، فانتقل الملك إلى أمه فبطل  
 ما كان القمص يحدث نفسه به . ثم ان هذه الملكة هو يت رجل  
 من الفرنج من الذين قدموا الشام اسمه « كى » فتزوجته ونقلت  
 الملك إليه ، وجعل التاج على رأسه ، وأحضرت البطريرك والقسوس  
 والرهبان والاستبارية والداويه والبارونية وأعلمتهم أنها قد ردت  
 الملك إليه ، وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له ، فعظم ذلك  
 على القمص وسقط في يديه ، وطلب بحساب ما جبي من الأموال  
 مدة ولاية الصبي ، فادعى أنه أنفقه عليه ، وزاده ذلك نفورا ،  
 وجاهر بالمشaqueة والمباهنة ، وراسل صلاح الدين وانتهى إليه  
 واعتصد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ،  
 ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له في  
 كل ما يريد ، وضمن له أن يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة ؟  
 وكان عنده جماعة من فرسان القمص فأطلقهم ، فحل ذلك عنده  
 أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على ما فعل جماعة  
 من الفرنج ، فاختلت كلتهم وتفرق شملهم ، وكان ذلك أعظم  
 الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم  
 على ما ذكره أن شاء الله . وسير صلاح الدين السرايا من ناحية  
 طبرية ، فشنت الغارات على بلاد الفرنج ، وخرجت سالمة غانمة ،  
 فوهن الفرنج بذلك وضعفوا ، وتجروا المسلمين عليهم وطمعوا  
 فيهم » .

( ذكر غدر البرنس أرنات ) : « كان البرنس أرنات صاحب  
 الكرك من أعظم الفرنج وأخيبهم وأشدتهم عداوة للمسلمين ،  
 وأعظمهم ضررا عليهم ، فلما رأى صلاح الدين ذلك منه ، قصده  
 بالحصار مرة بعد مرة ، وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى ، فذل  
 وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك ، وهادنه  
 وتحالفا ، وترددت القوافل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى

الشام . فلما كان هذه السنة ، اجتازت به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجندي ، فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، واغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وأودع السجنون من أسر منهم ، فارسل اليه صلاح الدين يلومه ويقيبح فعله وغدره ويتوعده أن لم يطلق الأسرى والأموال فلم يجب الى ذلك وأصر على الامتناع ، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله ان ظفر به ، فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى » .

### ومن أخبار الفزو التترى :

( ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة )

( ذكر مسیر التتر الى خوارزم شاه وانهزامه وموته ) : « لما ملك الكفار « سمرقند » عمد جنکر خان - لهنه الله - وسیر عشرين ألف فارس ، وقال لهم : « أطلبوا خوارزم شاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه » . وهذه الطائفة تسمیها التتر المقربة ، لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم ، لأنهم هم الذين أوغلوا في البلاد ، فلما أمرهم جنکر خان بالمسير ، ساروا وقصدوا موضعًا يسمى « بنج آب » - ومعناه : خمس مياه - فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة ، فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار ، وألبسوها جنود البقر لئلا يدخلها الماء ، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم ، وألقوا الخيول في الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم ، فكان الفرس يجذب الرجل ، والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعه واحدة ، فلم يشعر خوارزم شاه الا وقد صاروا معه على أرض واحدة ، وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعباً وخوفاً ، وقد اختلفوا فيما بينهم ، وكانوا يتماسكون بسبب أن نهر جيحون بينهم ، فلما عبروه إليهم

لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل نفرقوا أيدي سبأ ، وطلب كل طائفة منهم جهة ، ورحل خوارزم شاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها ، وكانوا لم يتعرضوا في مسيرةهم لشيء ، لا بنهب ولا قتل ، بل يجدون في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم ، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى « مازندران » – وهي له أيضا – فرحل التتر المقربون ذي أثره ، ولم يعودوا على « نيسابور » بل تبعوه ، فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها ، فوصل إلى مرسي من بحر طبرستان ، تعرف « باب سكون » ، وله هناك قلعة في البحر ، فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر ، فلما رأوا خوارزم شاه – وقد دخل البحر – وقفوا على ساحل البحر ، فلما أيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا ، فهم الذين قصدوا الرى وما بعدها – على ما نذكره إن شاء الله . هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان يبحار وأسروه معهم إلى سمرقند ثم نجا منهم ووصل إلينا ( بالموصل ) . وذكر غيره من التجار ، أن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الرى ثم منها إلى همدان والتتر في أثره ، ففارق همدان في نفر يسير جريدة ليسترن نفسه ويكتبه خبره وعاد إلى مازندران وركب في البحر إلى هذه القلعة ، وكان هذا هو الصحيح ، فإن الفقيه كان حينئذ مأسورا ، وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمدان ووصل إلى خوارزم شاه ، ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ، ففارق همدان ، وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ، ووصل التتر إليها بعد هم ببعض نهار ، فهم يخبرون عن مشاهدتهم ولما وصل خوارزم شاه إلى هذه القلعة المذكورة توفى فيها .

( ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند ) :  
 « قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكيز خان

— لعنه الله — الى خوارزم شاه ، وأما جنكيز خان ، فانه بعد أن سير هذه الطائفة الى خوارزم شاه ، وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام : فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكونها ؛ وسير قسما آخر منها الى ترمذ ؛ وسير قسما منها الى كلابة — وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحسن القلاع وأمنع الحصون — فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدتها ونازلتها واستولت عليها ، وفعلت من انقتل والأسر والسبى والنهب والتخييب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم ، فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكيز خان وهو سمرقند ، فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيره الى خوارزم ؛ وسير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان » .

### ( ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة )

( ذكر عود طائفة من التتر الى الري وهمدان وغيرهما : « أول هذه السنة » ، وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكيز خان — وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الري — وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها ؛ فلم يشعروا بالterror الا وقد وصلوا اليهم ، فلم يتمتنعوا عنهم ، فوضعوا في أهلها السيف وقتلوهم كيف شاءوا ونهبوا البلد وخربوه ، وساروا الى « ساوية » ففعلوا بها كذلك ، ثم الى « قم » و « قاشان » — وكانتا قد سلمتا من التتر أولا ، فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما اذى — فاتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوها أهلها وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ، ثم ساروا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ، ثم قصدوا همدان ، وكان قد اجتمع بها كثير من سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد . وكانوا لما وصلوا الى الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوها منهم وانهزم الباقيون الى

أذربيجان ، فنزلوا بأطراها ، فلم يشعروا إلا والتر أيضا قد  
كبسوهم ووضعوا السيف فيهم ، فولوا منهزمين ، فوصل طائفة  
منهم إلى تبريز ، وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون :  
إن كنت موافقنا ، فسلم علينا من عندك من الخوارزمية ،  
وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا في طاعتنا ، فعمد إلى من عندك  
من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم ، وحمل الأسرى  
والرءوس إلى التتر ، وأنفذه معها من الأموال والثياب والدواب  
شيئاً كثيراً ، فعادوا عن بلاده نحو خراسان ، فعلوا هذا وليسوا في  
كثرة ، كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس ، وكان الخوارزمية الذين  
انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس ، وعسكر أوزبك أكثر من  
الجميع ، ومع هذا فلم يحدث نفسه ، ولا الخوارزمية – بالامتناع  
منهم . نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم ،  
فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النقوس ، ونهب الأموال ،  
وأسر قاق الأولاد ، وسبى الحرير وقتلهم وتخريب البلاد » .



## ثبت المراجع

**ابن الأثير :** علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزرى :

— أسد الغابة في معرفة الصحابة (المطبعة الوهبية ١٢٨٠ هـ).

— التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ( تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات — دار الكتب الحديثة — القاهرة ١٩٦٣ ) .

— انكامل في التاريخ ( طبعة الادارة المنيرية ومصطفى محمد — القاهرة ) .

— اللباب في تهذيب الأنساب ( نشر مكتبة القدسى — القاهرة ١٣٥٧ هـ ) .

**ابن الأكفانى :** محمد ابراهيم بن سماعد :

— ارشاد القاصد الى أنسى المقاصد . ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٦٧ فن المكتبات ) .

**ابن اياس الأزدي :** يزيد بن محمد :

— تاريخ الموصل ( مصور : دار الكتب المصرية رقم : ٢٤٧٥ تاريخ ) .

**ابن الجوزي :** عبد الرحمن بن علي بن محمد :

— المنتظم في تاريخ الملوكة والأمم ( طبعة الهند ١٣٥٧ هـ ) .

**ابن حجر العسقلاني :** أحمد بن علي بن محمد :

— تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنتورة ، المسمى بالعجم المفهمن ( مخطوط : دار الكتب المصرية ، رقم : ٨ مصطلح الحديث ) .

— الاصابة في تمييز الصحابة ( المكتبة التجارية الكبرى بمصر — ١٣٥٨ هـ ) .

ابن حزم : على بن أحمد الظاهري :

— جمهرة أنساب العرب ( تحقيق : ليفي بروفنسال : دار المعارف بمصر : ١٩٤٨ م ) .

ابن حيمان : حيلن بن خلف :

— المقتبس في تاريخ الأندلس ( مصور : دار الكتب المصرية رقم : ٤٨٥١ تاریخ ) .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر .

ابن خلكان : أحمد بن إبراهيم :

— وفيات الأعيان وأنباء الزمان ( طبعة بولاق ١٢٩٦ ، طبعة الدكتور محمد فريد رفاعي ) .

ابن الشحنة : محمد بن محمد الحنفي :

— روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر .

ابن شداد : يوسف بن رافع بن تهيم :

— النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ( المعروفة بسيرة صلاح الدين الأيوبي ) .

( مطبعة الآداب والمؤيد بمصر : ١٣١٧ هـ ) .

- ابن الطقطقى :** محمد بن على بن طباطبا :
- الفخرى في الآداب السلطانية ( المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٠ هـ ) .
- ابن ظافر :** جمال الدين على :
- أخبار الدول المنقطعة ( مصور : دار الكتب المصرية رقم : ٨٩٠ تاريخ ) .
- ابن عبد البر :** يوسف بن عبد البر النمرى القرطبي :
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ( مطبوع مع كتاب الاصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلانى - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٥٨ هـ ) .
- ابن عبد الحكم :** عبد الرحمن بن عبد الله :
- فتوح مصر والمغرب ( تحقيق : عبد المنعم عامر - القسم التاريخي - لجنة البيان العربي ) .
- ابن العديم :** عمر بن أحمد بن هبة الله :
- زبدة الحلب في تاريخ حلب ( تحقيق : سامي الدهان ) .
- ابن عساكر :** علي بن الحسن بن هبة الله :
- تاريخ دمشق ( مطبوع بعنوان : التاريخ الكبير ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر - طبعة الشام ) .
- ابن العماد الحنبلي :** أبو الفلاح عبد الحي :
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ( نشر مكتبة القدسى - القاهرة ) .

- ابن قاضي شهبة :** أبو بكر بن أحمد بن محمد :
- الكواكب الدرية في السيرة النورية ( مصور : دار الكتب المصرية رقم : ١٢٢٧ تاريخ ) .
- ابن القلansi :** حمزة بن أسد بن على :
- ذيل تاريخ دمشق ( بيروت - مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨ م ) .
- ابن كثير :** اسماعيل بن عمر الفرشى :
- البداية والنهاية في التاريخ ( مطبعة السعادة بالقاهرة ) .
- ابن ماكولا :** علي بن هبة الله العجلى :
- الاكمال فى رفع الارتياب عن المختلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب . ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٨ مصطلح الحديث ) .
- ابن النديم :** محمد بن اسحاق :
- الفهرست ( المطبعة الرحمانية بالقاهرة ) .
- ابن واصل :** محمد بن سالم الحموى :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ( تحقيق : الدكتور جمال الدين الشيال ) .
- أبو شامة :** عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم :
- الذيل على الروضتين ( مطبوع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع - تحقيق السيد عزت العطار ١٩٤٦ ) .

— الروضتين في أخبار الدولتين ( تحقيق : الدكتور محمد حلمي محمد أحمد — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومطبعة وادي النيل بالقاهرة ١٢٨٧ ه ) .

أبو شجاع الروزراوري : محمد بن حسين بن عبد الله :  
— ذيل تجارب الأمم ( تحقيق ه . ف . آمدو ز — طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٦ م )  
أبو الفدا : اسماعيل بن علي بن محمود :  
— المختصر في أخبار البشر .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر :  
— أنساب الأشراف ( تحقيق : الدكتور محمد حميد الله — دار المعارف بمصر ١٩٥٩ ) .

البلاوي : عبد الله بن محمد المديني :  
— سيرة أحمد بن طولون ( تحقيق : محمد كرد على — المكتبة العربية بدمشق ) .

البندادي : الفتح بن علي بن محمد :  
— تاريخ دولة آل سلجوقي ( مطبعة الموسوعات بمصر : ١٩٠٠ م ) .

حاجى خليفة : مصطفى بن علي :  
— كشف الغطون عن أسامى الكتب والفنون ( دار الطباعة المصرية ١٢٧٤ ه ) .

**جشى : حسن (الدكتور) :**

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ( دار الفكر العربي ١٩٥٨ ) .

**حمزه الأصفهانى : ابن حسن :**

- تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ( بيروت ) .

**الديوه جى : سعيد :**

- الموصل في العهد الأتابكي ( بغداد ١٩٥٨ م ) .

**الذهبى : محمد بن أحمد :**

- تجريد أسماء الصحابة ( طبعة الهند : ١٣١٥ هـ ) .

- تذكرة الحفاظ ( طبعة الهند ١٣٧٦ هـ ) .

- سير أعلام النبلاء ( مصورة : دار الكتب المصرية رقم : ١٢١٩٥ تاريخ ) .

**رسمان : ستيفن :**

- الحضارة البيزنطية ( ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد

- مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١ ) .

**روزنثال : فرانز :**

- علم التاريخ عند المسلمين ( ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي - مكتبة المشنی ببغداد سنة ١٩٦٣ ) .

**الزبيدي : محمد بن حسين بن عبد الله الأندلسى :**

- مختصر كتاب العين ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٦٤٤٥ هـ )

**زیدان : جرجی :**

- تاريخ آداب اللغة العربية ( دار الهلال ١٩٣١ ) .

**سبط ابن الجوزى : يوسف بن قراوغلى التركى :**

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ( طبعة الهند ١٩٥١ م ) .

**السبكي : عبد الوهاب بن تقى الدين :**

- طبقات الشافعية الكبرى ( المطبعة الحسينية المصرية ) .

**السخاوى : محمد بن عبد الرحمن :**

- الإعلان بالتبسيخ لمن ذم التارييخ ( مطبعة الترقى  
سنة ١٣٤٩ هـ ) .

**سرهنك : اسماعيل ( باشا ) :**

- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصطفين

( استانبول ١٩٥١ ) .

**سعداوي : نظير حسان ( الدكتور ) :**

- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي ( مكتبة النهضة

المصرية ١٩٦٢ ) .

**السمعاني : عبد الكريم بن محمد بن منصور :**

- الأنساب ( طبع حجر : دار الكتب المصرية رقم : تاريخ )

**السيوطى : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد :**

- لب اللباب في تحرير الأنساب ( مخطوط : دار الكتب  
المصرية رقم : ٢١٣٤ تاريخ ) .

- الشهرستاني** : محمد بن عبد الكريم بن أحمد :
- الملل والنحل ( تحقيق : محمد سيد كيلانى - مطبعة الحلبى ١٣٨١ هـ )
- الصابى** : هلال بن المحسن :
- تاريخ هلال الصابى ( مطبوع مع كتاب ( ذيل تجارب الأمم ، لأبى شجاع الروزراورى ) .
- صایغ** : سليمان ( القس ) :
- تاريخ الموصل ( المطبعة السلفية بمصر : ١٣٤٢ م ) .
- الطبرى** : محمد بن جرير :
- تاريخ الأمم والملوك ( المطبعة الحسينية المصرية ) .
- العرىنى** : السيد الباز ( الدكتور ) :
- مؤرخو الحروب الصليبية . ( دار النهضة العربية : ١٩٦٢ ) .
- العزawi** : عباس ( المحامى ) :
- التعريف بالمؤرخين ( بغداد ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ) .
- عماد الدين الأصفهانى** : محمد بن حامد :
- الفتح القسى في الفتح القدسى ( المطبعة الخيرية بالقاهرة : ١٣٢٢ هـ ) .
- عمارة اليهنى** : ابن على بن زيدان :
- النكت العصرية في الوزارة المصرية

**الفيومي : أحمد بن محمد بن علي المقرى :**

- نشر الجمان فى ترجم الأعيان ( مخطوط : دار الكتب المصرية ، رقم : ١٧٤٦ تاريخ )

**القزويني : ذكريا بن محمد بن محمود :**

- آثار البلاد وأخبار العباد ( دار صادر - بيروت - ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ) .

**القططى : على بن يوسف :**

- أنباء الرواية على انباء النهاة ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٨٠١ تاريخ )

**كلارى : روبرت :**

- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ( ترجمة الدكتور حسن جبشى - دار الفكر العربي بمصر : ١٩٦٤ ) .

**مسكويه : أحمد بن محمد :**

- تجارب الأمم وتعاقب الهمم ( مخطوط : دار الكتب المصرية، رقم ٦٤٤ تاريخ ، ومطبوع : تحقيق : هـ . فـ . أمدروز - طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ ) .

**المندري : عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله :**

- التكميلة لوفيات النقلة ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٦٠٦٠ ح ) .

**الميني : أحمد بن علي بن عمر :**

- شرح الميني على تاريخ اليمني ، المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبى (المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٦ هـ) .

- النسوی : محمد بن احمد بن علی :**
- سیرة السلطان جلال الدين منکرتی ( تحقیق : حافظ  
احمد حمدى - دار الفکر العربی ١٩٥٣ ) .
  - نصحی: ابراهیم ( الدکتور ) :
  - مصر فی عصر البطالمه ( مکتبة الانجلو المصرية : ١٩٦٦ ) .
- النwoی : یحییی بن شرف بن هری :**
- تهذیب الأسماء واللغات ( دار الطباعة المنیریة بمصر ) .
  - طبقات الشافعیة ( مخطوط : دار الكتب المصرية رقم : ٢٠٢١ تاریخ ) .
- هنداوی : محمد موسی ( الدکتور ) :**
- المعجم فی اللغة الفارسیة ( مکتبة مطبعة مصر ) .
- یاقوت : ابن عبد الله الحموی :**
- معجم الأدباء ( نشر الدکتور محمد فرید رفاهی ) .
- الیعقوبی : احمد بن ابی یعقوب بن جعفر :**
- تاریخ الیعقوبی ( مطبعة العزی - النجف ١٣٥٨ھ ) .
- اليونینی : موسی بن محمد بن احمد :**
- ذیل مرآۃ الزمان ( طبعة الهند : ١٣٧٤ھ - ١٩٥٤م ) .

## فِرْس

### صفحة

٣	مقدمة . . . . .
٧	الفصل الأول : عصر ابن الأثير . . . . .
١٣	الفصل الثاني : أسرة ابن الأثير - ترجمته . . . . .
٣٤	الفصل الثالث : ابن الأثير المؤرخ . . . . .
٥٢	الفصل الرابع : مؤلفات ابن الأثير . . . . .
١١٨	الفصل الخامس : تاريخ ابن الأثير أحداث عصره . . . . .
١٤٧	نماذج من أخبار ابن الأثير في « الكامل » . . . . .
١٧٣	ثبت المراجع . . . . .



# صدر من سلسلة أعلام العرب

---

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده ... ... ... عباس العقاد	
٢ - المعتمد بن عباد ... ... على أدهم	
٣ - جابر بن حبان ... ... د . زكي نجيب محمود	
٤ - عبد الرحمن بن خلدون ... د . علي عبد الواحد واف	
٥ - ابن تيمية ... ... د . محمد يوسف موسى	
٦ - معاوية ... ... ابراهيم الباري	
٧ - سيد درويش ... ... د . محمد أحمد الحفني	
٨ - عبد القاهر الجرجاني ... د . أحمد بدوى	
٩ - عبد الله النديم ... د . علي الحديدي	
١٠ - عبد الملك بن مروان ... د . ضياء الدين الرئيس	
١١ - مالك ... ... ... ... أمين الغولى	
١٢ - القلقشندي ... ... ... ... د . عبد اللطيف حمزه	
١٣ - الطبرى ... ... ... ... د . احمد محمد الحوقى	
١٤ - الظاهر بيبرس ... ... ... ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور	
١٥ - ابن الفارض ... ... ... ... د . محمد مصطفى حلمى	
١٦ - المختار الشفهى ... ... ... ... د . علي حسنى الخريبوطلى	

اسم الكتاب	المؤلف
١٧ - الوليد بن عبد الملك ... ...	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الاصمسي ... ...	د . احمد كمال زكي
١٩ - ذكرييا احمد ... ...	صبرى ابو المعد
٢٠ - قاسم امين ... ...	د . ماهر حسن فهمي
٢١ - شكيب ارسلان ... ...	احمد الشرباصي
٢٢ - ابن قتيبة ... ...	د . عبد الحميد سند الجندي
٢٣ - ابو هريرة ... ...	محمد عجاج الخطيب
٢٤ - عبد العزيز البشري ... ...	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ - الغسقاء ... ...	محمد جابر العينى
٢٦ - الكندى ... ...	د . احمد فؤاد الاهوانى
٢٧ - الصاحب بن عباد ... ...	د . بدوى طبانه
٢٨ - الناصر بن قلاوون ... ...	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ - احمد زكي ... ...	انور الجندي
٣٠ - حسان بن ثابت ... ...	د . سيد حنفى حسنين
٣١ - المثنى بن حارثة الشيباني ...	عقید : محمد فرج
٣٢ - مظفر الدين كوكبورى ... ...	عبد القادر احمد
٣٣ - رشيد رضا ... ...	د . ابراهيم احمد المدوى
٣٤ - اسحاق الموصلى ... ...	د . محمود احمد الحفنى
٣٥ - أبو حيان التوحيدى ... ...	د . ذكرييا ابراهيم
٣٦ - ابن المعتز العباسى ... ...	د . احمد كمال زكي
٣٧ - الزهاوى ... ...	د . ماهر حسن فهمي
٣٨ - أبو العلاء المعري ... ...	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ - أحمد لطفي السيد ... ...	د . حسين فوزى النجار

### اسم الكتاب

### المؤلف

٤٤ - الجويني امام الحرمين	د . فوقيه حسين
٤٥ - صلاح الدين الايوبي ...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٦ - عبد الله فكري ... ... ...	محمد عبد الغنى حسن
٤٧ - عبد الله بن الزبير ... ... ...	د . على حسنى الخربوطلى
٤٨ - عبد العزيز جاويش ... ...	انور الجندي
٤٩ - ابن رشيق القسمروانى ... ...	عبد الرءوف مخلوف
٥٠ - محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد المجرسى
٥١ - حفني ناصف ... ... ...	محمود غنيم
٥٢ - احمد بن طولون ... ... ...	د . سيدة اسماعيل كاشف
٥٣ - محمود حمدى الفلكى ... ...	احمد سعيد الدمرداش
٥٤ - احمد فارس الشدياق ... ...	محمد عبد الغنى حسن
٥٥ - المهدى العباسى ... ... ...	د . على حسنى الخربوطلى
٥٦ - الأشرف قانصوه الغوري ...	د . محمود رزق سليم
٥٧ - رفاعه الطبططاوى ... ... ...	د . حسين فوزى النجار
٥٨ - زریاب ... ... ...	د . محمود أحمد الحفني
٥٩ - الكندى « المؤرخ » ... ...	د . حسن احمد محمود
٦٠ - ابن حزم الاندلسي ... ... ...	د . زكريا ابراهيم
٦١ - ابن النفيس ... ... ...	د . بول غليونجى
٦٢ - السيد أحمد البدوى ... ...	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٦٣ - المأمون ... ... ...	د . محمد مصطفى هدارة
٦٤ - المقىرى ... ... ...	محمد عبد الغنى حسن
٦٥ - جمال الدين الافسانى ... ...	عبد الرحمن الرافاعى

المؤلف	اسم الكتاب
	٦٦ - لجاحظ ... ... ... ...
د . احمد كمال زكي	٦٢ - ابن ماجد ... ... ...
د . أنور عبد العليم	٦٣ - محمد توفيق البكري ...
د . ماهر حسن فهمي	٦٤ - محمود سامي البارودى ...
د . علي محمد الحديدى	٦٥ - ابن فريدون ... ... ...
علي عبد العظيم	٦٦ - عمر مكرم ... ... ...
د . عبد العزيز محمد الشناوى	٦٧ - موسى بن نصر ... ... ...
د . ابراهيم أحمد العدوى	٦٨ - أبو الحسن الشاذلى ...
د . عبد الحليم محمود	٦٩ - عبد العزيز بن مروان ...
د . سيدة اسماعيل كائيف	٧٠ - على مبارك ... ... ...
د . حسين فوزي النجار	٧١ - أبو الحسن الشاذلى ...
د . عبد الحليم محمود	٧٢ - العزيز بالله الفاطمى ...
د . علي حسنى الخربوطلى	٧٣ - أبو بكر الطرطوشى ...
د . جمال الدين الشيال	٧٤ - يونس بن حبيب ...
د . حسين نصار	٧٥ - صقر قريش ... ...
عبدة كحبيلة	٧٦ - البهرونى ... ... ...
د . محمد جمال الفندي	٧٧ - عبد الكريم الخطابى ...
د . امام ابراهيم أحمد	٧٨ - أسامة بن منقد ... ...
د . جلال يحيى	٧٩ - محبى الدين بن العربي ...
د . أحمد كمال زكي	٨٠ - مصطفى صادق الرافعى ...
عبد الحفيظ فرغلى	٨١ - أبو جعفر المنصور ... ...
د . كمال نشأت	٨٢ - ابن الأثير الجزرى ... ...
على أدهم	٨٣ - عبد القادر أحمد طليمان



رابط بديل  
lisnerab.com

مَكْتَبَةُ

لِسَانُ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



twitter



facebook



مكتبة لسان العرب instagram



مكتبة لسان العرب



صدر حديثا  
في سلسلة "سرحيات عالبة"

اللعنة الخطيرة

تأليف الكاتب المسرحي البر نور سارف

برانسلاف نوشيتس

وتتمثل في التجربة التي قام بها أحد العلماء النفسيين محاولاً قتل فريزة الحب لدى أحدي الفتىـات . لقد ظل يعمل خلال سنوات عديدة وفق برنامج خاص ليتزعـع من قلبها كل شعور بالحب وليحول بينها وبين معرفته أو معرفة كنهـه . فهل أفلح ؟ وماذا كان هدـفـه ؟

ذلك ما سيتضح خلال هذا العمل المسرحي الذي يغـلب على الظن أنه نـشـأ عن تجربة واقعية عاـلـمـها الكاتـبـ فيـ شـيـخـوـختـهـ .

ترجم المسـرـحـيةـ عنـ اللـغـةـ الصـرـبـوـكـروـاتـيةـ (ـاليـوغـوسـلـافـيةـ)ـ :

الكتور حـسـينـ عـبـرـلـطـيفـ  
والـأـسـازـ جـمـالـ الـزـمـنـ سـيدـ

دار الكاتـبـ العـرـبـيـ للـطـبـاعـةـ وـالـنـشـرـ

فرع مصر - ١٩٦٩